من فكر السجون وأدبه

الإصدار الحادي والعشرون

النذير

الخروج إلى الجهاد

فهد عبدالله صوالحي

سجن ريمون

النذير

الخروج إلى الجهاد

الكتاب: سلسلة فكر وأدب السجون (21)

النذير

الخروج إلى الجهاد

المؤلـف: الأسير المجاهد/ فهد عبد الله صوالحي

الناشـر: مؤسسـة مهجة القـدس

غـزة – فلسطيـن

الطبعة: الأولـى

سنة النشر: رمضان 1444هـ

مارس - آذار 2023م

رقم الإيداع: 1982 / 2023

الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة
عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾

صدق الله العظيم

[التوبة: 20]

إهداء

- إلى أهل الفضل وأصحابه، وحدهم الشهداء أولًا، شهداء فلسطين، كل فلسطين.
- إلى الذين ما زالوا قابضين على جمرتيّ الدين والوطن.
- إلى حماة الديار ورافعي راية التحرير والنصر.
- إلى روح الشهيد علي عجوري «الضباي»، ابن مخيم عسكر الجديد.
- إلى روح الشهيد مراد مرشود، ابن مخيم بلاطة الشهداء.
- إلى روح الشهيد رائد حجة، زوج أختي.
- إلى الأسرى والجرحى.
- إلى المرابطين والمقاومين.
- إلى المجاهدين والصامدين على أرضك، يا فلسطين.

شكر وتقدير

لذلك الجندي المجهول الذي ساعد في كتابة وإخراج هذا العمل والذي سوف يبقى مجهولًا إلى أن يأذن لنفسه بالظهور، فخشيته من قتلٍ أو اعتقال منعته من استكمال باقي المشوار والحوار، وأكملت أنا الرواية والحكاية بناءً على طلبه ورغبته، فبين السيرة والرواية كانت هذه الحكاية.

1

يوم جميل، كنت أتوقع أنني أجبرت استخبارات سجن "مجدو" من خلال إضرابي عن الطعام لثمانية أيام متواصلة على تحقيق مطلبي القاضي بنقلي إلى سجن "كتسيعوت" "النقب"، سجن "النقب" الذي يعد نوعًا ما صاحب النجمة الخامسة لما يحوي من ميزاتٍ لنزلائه مقارنة بالسجون الأخرى، بعد رحلة شاقة مررت بها انطلاقًا من سجن "مجدو" إلى سجن "شطة" و"جلبوع"، ومن ثم سجن "تسلمون"، ومن ثم إلى سجن "الجلمة"، ومن بعدها إلى سجن "هشارون" و"هداريم" حتى توقفنا لعدة ساعات في سجن "الرملة" وتناولنا طعام الغداء الذي ليس كمثله شيء، بيضة، أظن

أنها وضعت بعد سلقها أسبوعًا كاملًا في الثلاجة، إضافة إلى شريحتين من الخبز المقطع ونصف خيارة، وفوق كل ذلك شيء من القناعة بأن هذا ما يكفي لشخصٍ مثلي ينوي القيام بحميةٍ غذائية. صلينا المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا وانطلق بنا "الناحشون" إلى سجن "بئر السبع"، كنا نهتز داخل حافلة "البوسطة" كأننا طرد بريدي لا يتأثر بعوامل الحرارة والرطوبة التي توفرها وعلى أعلى المستويات هذه الكتلة الحديدية التي احتوتنا، وصلنا لسجن "بئر السبع"، وللحظة كل ما رسخ في عقلي أنني في الغد سأعيش ما تبقى لي من أشهر في سجن يُعز وافديه بخدماتٍ شتى، أولها وأهمها الساحة الكبيرة التي تمكن النزلاء هناك حتى من لعب كرة القدم. وصلنا إلى غرفة سجن "بئر السبع" أو ما يعرف بـ "معبار هوليكدار" لنبيت ما تبقى من ساعاتٍ حتى صباح اليوم التالي قبيل المغادرة كلٌ إلى السجن الذي حكمت له الظروف بالانتقال إليه.

لقد هزمني تعبي وألقاني صريع فراشٍ لم أعبأ بمدى نظافته حتى اليوم التالي. استيقظت والمسافرون معي وانطلقنا وإياهم إلى غرف الانتظار حتى يأتي سعاة البريد "الناحشون" ليحملونا كالطرود المغلفة بلباس السجن البني إلى محطاتنا الأخيرة، وما تبقى لنا الآن إلا ثلاثة سجون "نفحة، ريمون، والنقب".

وأنا حتى هذه اللحظة ما زال في تقديري أنني إلى سجن "النقب"، ولكن خرج كل من معي في غرفة الانتظار هذه، والذين من المقرر أن يخرجوا إلى سجن "النقب". انتظرت مجبرًا أن أنتظر فليس في يدي أي حيلة

ووسيلة. جاء دور الراحلين إلى سجن "نفحة"، وجميعهم خرجوا، لم يتبقَ إلا أنا وآخرون، كلهم ينتظرون دور رحلتهم إلى سجن "ريمون"، وفعلًا ضم اسمي لاسمهم. ليس لي خيار وكل العبث مع "الناحشون" لا يفيد ولن يغير مسار اسمي أبدًا. هكذا علمتنا التجارب أن الآمر الناهي في هذا الشأن هم الاستخبارات وهي غائبة دائمًا عن غرف الانتظار والمعابر بين السجون؛ لذلك ركبت وبدأت تارةً أقنع نفسي بالاحتجاج فور دخولي لسجن "ريمون"، وتارة أُرضي نفسي بأن "ريمون" أيضًا سجن جيد وأجود ما فيه ثقافة وتضحيات نزلائه، لكن عقلي الذي لم يعتد معاشرة هذه النخب من الأسرى أظن أنه لن ينسجم معهم فأقلهم محكومٌ بعشرين سنة وأنا بينهم سأكون كالشاذ لن يستوعبوا جلوسي بينهم، كانت وطوال الطريق تنصهر بي أفكار لم أكن أصلًا روضتُ نفسي لاستيعابها فعلًا، كنت أخشى كل شيء في تلك اللحظات، صدقًا أخشى التعلق بأحدهم فأجد نفسي استبيح الاعتقالات لي من أجل أن أجمع بأحدهم وهم معلقون دائمًا بحبالٍ معقودةً بالسماء يرجون الفرج من الغيث. أما أنا فأعلم التاريخ الذي من المقرر أن يفك أسري فيه، يا لها من معضلة كنتُ في غنى عنها.

فور وصولي لسجن "ريمون" هدأت النفس الأمارة بالخزعبلات وقررت أن أدخل دون احتجاج، لم أتوقع أن استخبارات السجن لا تعلم بأن سجنها مُعبأ بالأسرى ولا فراغ لي، ولحسن حظي أو سوئه لا أدري للحظة تم طرحي على ثلاثة أقسام لمحاولة إتاحة فراغ لي في أحدها وتم الأمر، وتفسحت لي المجالس ووقعنا في قسم رقم (1).

قسم رقم (1)، ساحة كبيرة كثلث ساحات "النقب"، خمس عشرة غرفة تلف الساحة إضافة إلى ثلاث غرف تستخدم كمرافق عامة "مطبخ ومكتبة وكنتين"، ولجت لداخل الساحة كنت أظن أنني سأكون غريب بلاد، لكن تفاجأت أنني أعرف جزءًا ليس بالقليل من نزلاء هذا القسم سواء التقيت بهم شخصيًا أو أعرف عائلاتهم أو أعرف عنهم. كان هذا كافيًا في أن يقنع نفسي بأن تسترخي في واقعٍ لم يكن لي هدفًا إطلاقًا، ولكن أمسى الآن واقعي الذي يجب عليَّ أن أتأقلم فيه وأرى أجمل ما فيه، وهو من المؤكد أفضل من ذلك الواقع الذي عايشته في سجن "مجدو" طوال خمسة عشر شهرًا، فاللحظات الأولى في هذا السجن عززت من احتمال راحتي بين طياته وإن كان دون النجمات الخمس، كان هناك عزةُ نفس ترافق جميع النزلاء يستشعرها أي طارئ بينهم، رهبة إدارة السجن من أي خطوة يقدم عليها أي نزيل منهم قد يسكن نفس من هم مثلي، أيديهم ما زالت ناعمة مقارنة مع هؤلاء الذين يصفهم إعلام العدو وعلى الدوام بأصحاب الأيدي الملطخة بالدم، إذن رهبةٌ مطلقة من هؤلاء النزلاء لم أشاهدها لا في أروقة سجن "مجدو" ولا في غيره من تلك السجون التي أكلت الصراصير فيها من ظهري، لذلك كله كان حقًا علي أن أهمس لنفسي: (ارفع رأسك أنت في "ريمون").

"ريمون" ليس أسواره ولا ساحاته ولا أي إنجاز حقق للأسرى فيه، يكفي بأن يمنحك هذا الشعور، فلعل من اطلع على تاريخ هذه السجون على يقين تام بأن كل سجنٍ وذات مرحلة كان على شاكلة "ريمون" في هذه المرحلة، فإدارة السجون "الشاباص" تسعى دائمًا لإيجاد تلك الفروقات بين

السجون لتقلل من حدة النتائج التي قد تصدر من خلال أوامر النقل الإجبارية التي تنفذ بحق أسير أو آخر؛ لذلك فإن "ريمون" في مرحلة مجده؛ لأن فيه من فيه، وكما قال كثر ممن مررتُ بهم في السجن: "السجن بلي فيه" فكان أجود سجن بمن فيه في هذه المرحلة إنصافًا لنقل "ريمون".

كم كان من حسن حظي بعد رحلة البوسطة، ولعل إسقاط مفرد "رحلة" أمسى واجبًا فالرحلة فيها ملامسة لمعنى السياحة الذي ينتج الراحة النفسية في الغالب، أما هذه الرحلة لم تنتج لي سوى المتاعب.

ولعل تلك المتاعب أنتجت حظًا قادني إلى ما قادني من لقاءِ أناسٍ كان لي يومًا رؤيتهم ضربًا من الخيال، وها أنا أُلاقيهم رغم خجلي للحظة من محادثة بعضهم فهنا تتقلص الهامات أمام أصحاب الهمم: أحمد سعدات، عبد الحليم البلبيسي، زيد بسيسي، عبد الناصر عيسى، عباس السيد.

لذلك شكرًا للمتاعب وللمرة الأولى أشكر فيها المتاعب أو سببها "البوسطة"، ولكن لن يثنيني ذلك عن تكرار شتمي لها (يلعن أبو البوسطة وإلي اخترعها).

داخل قسم رقم (1) أذن القدر أن ألتقي حبيبي الصغير نور أبو حاشية، كبر ذلك الشبل بسرعة، خشيت عضته، أمسى صلبًا قوي البنية، يتحرك بعقل راجح رغم أنه ابن العشرين، ينتقل بين غرف القسم كأنه مولودٌ فيه، تأقلم على الحياة الاعتقالية بسرعة فائقة شككتني بأنه هو

عينه ذاك الصبي الذي كان يلعب في أزقة المخيم قبل أن يقرر بمفرده تنفيذ عملية طعن في "تل أبيب" أودت بحياة ضابط طيران صهيوني. كان ذلك في نهايات العام 2014م، يومٌ لم يمحَ من ذاكرتي حيث أحالت عمليته تلك زقاق المخيم إلى مشاهد التحضير لاجتياح كتلك التي عايشتها طفلًا في 2002م، وبالصدفة لم يكن أحد المشاركين في التصدي لاجتياح 2002م بالبعيد عني أيضًا! لم أتخيل للحظة أن على مرتبة أحد الأسرة في هذا القسم شخصٌ لطالما سمعت عنه من أقرانه خارج السجن. أشياءٌ تصدق وأخرى ينافيها العقل، ورغم أنني رأيتُ صورةً له خارج السجن إلا أنني لم أتوقع للحظة أن تكون الصورة التي بين يديّ الناس هناك أيضًا مخالفة للواقع. ولعل اللباس الذي كان يرتديه خلال الصورة ساهم نوعًا ما في زيادة حجمه حتى يتوقع من يرى الصورة خلاف ما هو على الواقع، حتى الصوت لا ينم عن سطوة أو تكبر ولا يزيد في الأذهان أن هذا الشخص يختلف عن الآخرين، ولكن كل المؤشرات تخالف حقيقة أن يكون هذا الشخص أحد مدبري العمليات الاستشهادية في أوج انتفاضة الأقصى. كان عجيبًا أن يكون هذا الشخص فعلًا هو (فهد صوالحي) الذي كانت سلطات الاحتلال تقيد ضده عدة قضايا قُوضي بها بعدما وقع بالمصيدة.

في البداية ظننت أنني قد أحتاج لسلوك مسلكيات كنا نضطر للقيام بها في سبيل لقاء أصحاب السعادة والفخامة والسمو، ولكن الأمر كان بمنتهى السهولة. هو من بادر بالتعارف عليَّ، وأظنه في وقت لاحق ندم على هذه المبادرة؛ لأنه فتح على نفسه أبوابًا ستتيح لي اقتحام مخزون ذاكرته أتفقد في زواياها كل شيءٍ قد سمعته عنه قبيل اعتقالي. سأنفض الغبار

الـذي تراكـم في هـذه الزوايـا، سـأنبش عـن كل شيءٍ وكل اسـم رضي أن يبقيـه كـما هـو أو سـتره عـن العلـن باسـم مسـتعار. فهـد بعدمـا كان الصيـد الثمـين لأجهـزة أمـن الاحتـلال هـا هـو الآن وبـكل هـدوءٍ وألفـة أسـيرٌ بـين أسـئلتي أطبـق عليـه، أولهـا بفكـي والثـاني بأسـئلتي، ولـن أبـرح منـه حتـى أعـصر منـه آخـر قطـرة مـن ذاك المخـزون الـذي ليـس بأقـل ثمـن مـن مـاء الذهـب. الآن سـأتحقق مـن كل روايـة مـرت عـلي قصهـا لي راوٍ بسـند غـير محقـق، ولأنني الآن في حـضرة بطـل تلـك القصـص سـأفند كل قصـة إلى حيـث يجـب أن تكـون في التاريـخ أو في المريـخ. كنـت أتمنـى لـو كانـت كاميرتي معـي لأحبـس كل كلمـةٍ تخـرج مـن هـذا الوحـي الثـوري في طبقـات الصـوت والصـورة لاستشـهد بهـا في كل حـين، ولأن هـذا السـجين وكـما يكـرر هـو ومـن معـه "مروحـين اليـوم ولا بكـرة مروحـين" فأظـن أن الشـاهد عـلى كل قصـة سـأستحوذ عليهـا سـيكون بيننـا يومًـا مـا ولـن أحتـاج إلى الكامـيرا التـي لا أزهـد بهـا الآن إلا لاسـتحالة حصـولي عليهـا، لذلـك سـأكون ممتنًـا للقلـم والورقـة إن بقيـا عـلى وفائهـما لي في حفـظ هـذا الصيـد حتـى يخـرج صاحـبُ القصـة للمـلأ ويعلـن دعوتـه التـي جـاء بهـا يومًـا نذيـرًا وبشـيرًا؟ حجمـك الضئيـل سـيدي يحتـم عـليّ الجـزم بـأن البطولـة لا يصنعهـا أصحـاب العضـلات المفتولـة وأن الواجـب قـد يتـم كامـلًا وإن قـلَّ الإمـكان. شـهادتك الإعداديـة كانـت كافيـة لأن تؤهلـك لهندسـة المـوت لأجمـل الحيـاة، لم أتوقـع أن تكـون هـذه الحنجـرة الناعمـة هـي نفسـها التـي صدحـت بالتكبـير قبيـل كل انفجـار، وأشـك أن هاتـين اليديـن الصغيرتـين جهزتـا وصممتـا وأتقنتـا تلـك الأحزمـة التـي نقلـت لابسـيها إلى الملكـوت الأعـلى. مـن أيـن ألـج إلى تلـك الذاكـرة وكيـف سـأنتقل في زقاقهـا؟

سأبدأ التعارف الكلاسيكي يومًا بعد يوم، حتى أصل إلى عين النبع الذي سأروي فيه فضولي عن هذا الفهد.

صباحًا ومساءً، سأذكره في البداية بنقاط تمكنني من أن أؤكد له أنني أعرف عنه أشياءً قد تكون بالنسبة له صندوقًا أسود لم يستطع محققو الاحتلال أن يفكوا شيفرته؛ لذلك سأرمي بعض الأسماء التي جئتهُ بنبئه منها، وعندها ستكون طرقاتي الأولى على باب الذاكرة التي أتشوق لاقتحامها. بعد التعارف السطحي الذي كان منه على عجالة، بدأت في سلاسة التعارف عليه وتخطي تلك القشور، ولا أجد في ذلك أي مطباتٍ نفسية عند هذا الفهد، ولذلك كان من دواعي سروري أن أجد الطريق معبدة بما أريد من تفهم وليونة تجعل الطريق إلى ذلك الباب أسهل من تخطيطي.

أتعرف فلانًا؟! كانت أسئلتي تحمل نفس الصيغة بأسماءٍ تتقلب، يصمت قليلًا ويجيبني عن كل اسم بأنه يعرفه، ويسألني عن أخباره وما حاله بعد أربع عشرة سنة هي عمر اعتقال هذا الفهد.

بعد أن قلبت معه الأسماء والمعلومات الاجتماعية العامة لأولئك الذين اشتركنا في معرفتهم؛ وفي اليوم التالي كان اللقاء مجددًا في ساحة القسم. كان قد سبقني في الخروج من غرفته رقم (4) لممارسة رياضة الصباح، وهي أحد الطقوس الخاصة به وبمن لف لفه من معتقلي المؤبد. شرعت بتهيئة نفسي أنا الآخر للخروج إليه، غرفة رقم (9) هي الغرفة التي احتوتني في هذا القسم، يسكنها سبعةٌ غيري كباقي الغرف الخمس عشرة التي تحيط

بساحة القسم. لم يرق لي عند خروجي للساحة أن أقطعه عن مناجاة جسده في ذلك الوقت فهو يجهد نفسه ساعة أو ساعتين يوميًا ليبقى على قوته وحيويته، أما أنا فممارسة الرياضة شيء ثانوي بالنسبة لي قد ترتفع أولويتها قبيل كل إفراج بما أضمن فيه إذابة الشحوم التي عادةٌ ما يعزُ عليها تركي طويلًا فما تفارقني حتى تعود إليّ. انتهت طقوسه بالسلام عليّ، وعليه السلام، استشعرت من طلاقة وجهه في هذه اللحظة أنه سعيدٌ جدًا بما كان بيننا في الأمس، وكأنني ذكرته أصلًا بأشياء لا يجب على الإطلاق نسيانها، ولكن كتمه لها أوحى له بأنها قد شطبت من ذاكرته!

كانت الكلمات تخرج من عينيه مفادُ كلّ خط أحمر ارتسم في بياضهما: متى سنبدأ الحفر في الذاكرة؟ ليس عجيبًا أن ينتظر مني المبادرة في السؤال عن حال مرّ به أو عنه أو منه، فهو وكثرٌ مثله لم يعتادوا سوى التخفي والخفاء، ولم يكن لهم من أحدٍ رجاء إلا السر والتستر، لذلك هم الآن مازالوا في أدراج المتسلقين جنودًا مجهولين كشف أسمائهم قد يكسر السُّلَّم الذي استخدمه أولئك حتى نالوا ما نالوا من علو مقام؛ لذلك يفضل البعض في عالم (المناصب) أن يبقى هؤلاء دون اسم يذكر، ألا بذكرهم تهتز القلوب.

منذ معرفتي بوجود هذا الشخص في القسم وأنا أدعو الله أن يقدّر لي البقاء بقربه حتى التاريخ الذي قدّر فيه الإفراج عني وهو غير بعيد مقارنة بمن لا يملكون حتى تاريخ إفراج عنهم، فحتى كتابة هذه السطور هاجس النقل التعسفي غير المبرر من قبل الإدارة ما زال يصر على مطاردتي في القيام والأحلام فلم أرتح حتى الآن من مشاق السفر بين السجون

وصدق رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ عندما قال: "السفر قطعة من العذاب"، لكن اعتادت ألسنتنا على الحمد لله بعد كل عذابٍ نتجرعه في بوسطةٍ أو بأخرى.

على أي حال سنتعامل مع الواقع حتى يتكشف لنا غيره، وسندخل بستان عقل ذلك الفهد ونقطف ما يمنحنا القدر بالتلذذ فيه من قصص لابد أن تُحفظ في كتاب مكنون، وكم اشتهي أن أكون صاحب هذا الكتاب، ولكن لم أطرح نفسي يومًا ككاتب لمثل هذا اللون من الدراما الواقعية التي عايشها مجتمعٌ كامل، فلا مجال فيها لاختلاق أي مشهد تركي ولا لتهيؤ أي مقطعٍ؛ لذلك فإن الدقة في كل دقيقة ستكون مطلبًا شرعيًا في كل ما سَيُسقَط على الأوراق، فالشهود ما زال غالبهم على قيد الحياة، والدلائل دماء إما كانت صاحبة قصاص وإما كان منها!

لذلك فلا شك فيما سيلفظ هذا الفهد الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا شاهد عايش اللحظة بجزيئاتها، ولا شقوق يمكن أن يتسرب منها التهويل لأي رواية قد يرويها الفهد.

فكل روايةٍ يرويها على مرأى من رأى الرؤية كفلق الصبح.

2

سـأبدأ معـه، سـأصارحه بأنني أريـد أن اسـتمع منـه كل الحكايـة مـن البدايـة أو حتـى مـن "الجلـدة للجلـدة". قـد يسـتغرب أن فضـولي يدعـوني لأن أسـألهُ كيـف تكونـت جنينًـا في رحـم والدتـك؟ صدقًـا هـؤلاء "الفضائيـون" يجعلوننـا نفكـر أكثـر ممـا يحتـاج الأمـر، هـل أسـاس التكويـن الـذي أتـوا منـه هـو نفسـه الـذي جئنـا منـه؟ كـم شـهرًا حملـت بـه والدتـه؟ أو كـم كانـت شـهور فصالـهِ وفطامـه؟ أحيانًـا يُدخِـل البسـطاء مثلي أسـئلة تقنعهـم أو يحاولـون مـن خلالهـا عـلى الأقـل إقناع أنفسـهم أن سـبب اختـلاف أولئك "الفضائيين" سـبب عائـد إلى الجينـات الوراثيـة أو العوامـل الفسـيولوجية التـي تختلـف مـن أولئـك لهـؤلاء. مـن المحتمـل أن أجعـل البدايـة إلى حيـث الطفولـة التـي ترعـرع فيهـا،

أو لعل البداية معه تكون من حيث بدأ بالصناعات العسكرية والتي من المؤكد أن يكون أولها "المقلاع"، أو لماذا لا أبدأ معه من أول اعتقال أو أول مشكلة عائلية واجهته بعد معرفة ذويه بمشاركته بالمواجهات ضد قوات الاحتلال؟ أيًا كانت البداية مع هذا الفهد فلم نبدأ إلا بنابٍ أو بمخلب.

سيدي المحترم: رغم أنك لست من أهل الطرب، هل لي من فضلك أن استمع إلى صوتك العذب وهو يشدو على إيقاع الرصاص والعبوات الناسفة كلمات أغنيتك؟ غنها من حيثما شئت، غنها كيفما شئت لا تستهويني القوافي والأوزان، المهم أن أشبع حاجتي بالتحقق من كل قصة وقصيدة قصها بطلٌ بدمائه ولقيها محتلٌ بعوائه!

ابدأ، رتل على مسامعي آيات من الجهاد العظيم، أظنك تجيد أحكام التصنيع تمامًا كتوأمك الشهيد (علي عجوري). لذلك رتل، رتل سورة (الحجر)، صوت (المولوتوف)، صوت (الكوع)، صوت (العبوة)، وصوت (الحزام الناسف) واختم على مسامعي دعاء ختم الجهاد الذي أحسبك كنت تتمنى أن تدرك شيئًا منه مع تذكرة كل سفير للشهادة أرسلته نيابةً عنك، ولكن الله اختارك لقدرٍ.

قال فيه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: 10] تمامًا كما وعد الذين جاهدوا فيه ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: 69]، ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: 48].

إلى ساحة القسم مجددًا حيث الملتقى والمرتقى، ارتقي به ومعه صار شُغلي ومُشغِلي في غرفتي وساحة قسمنا. دخلت عليه مستهلًا حديثه

وأسئلته الكشفية عن أخبار منطقتنا التي كانت يومًا ما مملكته التي كان حاكمها وحكيمها، فرسها وفارسها، سيدها والسائد فيها. خلال ردودي على أسئلته كنت أفكر في فعل الأمر الذي سأرمي به صيدي أو ذاكرته على الأقل فـ (خرفني) قد يرجع تفكيك هذا الأمر إلى الخرافة التي يستحيل على رجل كهذا إتيانها وإن خرجت من فمي ستجعلني ساذجًا جدًا بعينه، أما (ارو) فهي قد تخلق نوعًا من الجفاف لديه؛ لأنه قد يُعامل بساطتي بالري قدر العطش وهو لم يستشعر قدر عطشي لسماعي القصص منه!

(القصص) مصطلحٌ قرآني؟! إذن (قُص) رغم أنهما حرفان إلا أنه أفضل فعل أمر لهكذا حال، إذن السهم في القوس (اقصص) وصاحب القصاص لا يَملِكُ إلا القصص الحق!

فهد قص عليّ كل حكاياتك!

بين الابتسامة والضحك كان نصف الوجه لدى ذلك الفهد، لم يجب إلا بعد دقائق، كان رده وبهدوء ومع الحالة نفسها المرسومة على وجهة، "شو بدك أحكيلك لأحكيلك؟".

آه.. يا فهد لو علمت كم تجذرت ثورتك في صدري وصدر كل من سمع عنك لما غفلت لحظة قبل أن تنهي جمع كل صورة لك في مصحف، أما ترى أن (الردّة) حصدت عددًا كبيرًا من حفظة هذه السور، دعني أعد بعضًا منهم، علي، مراد، علاء، إبراهيم، أبو عطا الله، الأصفر، إياد، مصطفى، العجوري، مرشود، الناجي، حرب أو مسكاوي، حنني. رضوان الله عليهم أجمعين!

أما تخشى على هذا النهج أن يتلاشى، وجب عليك منذ لحظات اعتقالك الأولى أن تجمع هذه السور بين ذراعي كتاب؟! حتى يتسنى لمن اختار أو حار، اتخاذ هذا الكتاب الثوري مرجعًا لكيفية البداية وضمانًا لجودة النهاية.

احكيلي كل إشي، تحدث عن كل شيء، ألا يوجد في مجمل ما عايشت من مخاطر شيء يستحق أن تتحدث به؟ أن تقصه لجيل بعد ما كان من تقدم في الإمكان عاد إلى السكين والحجر؟ لماذا بدأت أنت ومن معك بالحجر وانتهيتم بالصاروخ في فترة وجيزة؟ هل يعقل أن ما توافر بين أيديكم في عهد "السوبر ماريو" غير متوافر الآن في عهد "الفيس بوك"، أم أن الأيدي التي اعتادت على النقر و"التتش" لا تقوى الحفر والبطش؟ سكين مهند الحلبي التي احتزت رأسين لمحتلين في القدس قبل عدة أشهر؛ أما ترى فيها مشكاةُ نور كتلك التي خرجت منها صواريخك، عبواتك، أحزمتك الناسفة؟

هي اللبنة الأولى في بناءٍ كالذي رفعت وعلا وبلغ الأسباب!

أما تعلم أن من تأثر بمهندٍ هذا كُثر، ولكن الله لم يكتب لهم النجاح فيما خرجوا إليه، فكان النصيب الأعظم من اتباع مهند رفاقًا لك في السجن دون أثرٍ يُذكر ولا تأثير يُبصر؟! أما تعلم أن هذا الجيل كبر وما زال الاحتلال على ما كان يومَ أنت كبرت؟ أما تعلم أن الغيرة الثورية تجتاح صدور هذا الجيل المتنقل بين حواجز الاحتلال في الضفة في نتاج ما يرونه من أقرانهم في قطاع غزة من إعدادٍ واستعداد؟ هم أيضًا ليسوا بأقل انتماء

لهذه القضية، ولكنهم عدموا الوسيلة فقرروا الرجعية الثورية التي قضت بالعودة إلى الوراء، حملوا سكاكينهم فُرادى، منهم من قَتَل وقُتل، ومنهم من خَرجَ وأُسر ومنهم من خشيَّ وعاد والكثر منهم من كان الرصاص إلى صدره أسرع، وقبل أن يرتد إليه طرفه كان نعيًا في مآذن المساجد! أما تريد أن تضع العربة على مسارها الصحيح أن تتقدم من الصفر حتى الوصول لنقطة الصفر؟!

تحدث يا سيدي! حدثني عن طفولتك فلعل متثاقلًا إلى الأرض يروج أن طفولتك كانت في مغارات عمر المختار في ليبيا أو في الغوطة يشرفُ على توزيعاتكم يوسف العظمة، أو أنكم اكتسبتم خبراتكم العسكرية من الجيوش العربية التي قدمت يومًا إلينا تحمل معها أمرًا ليس في جعبتهم إلا (ماكو أوامر)، أود أن أتأكد منك سيدي أن طفولتك كانت تمامًا هنا على أرض الضفة الغربية تمامًا كجيل كامل ممن يتوقع أنك وأمثالك أتيتم (جاهزين) تم إعدادكم وفق توصيات محلية أوعز للصين بتبني مشروع إتمام ذلك الإعداد، ستتعجب من حديثي؛ لأنك لا تعلم ما أعلم؛ لأن غيابكم وغياب كل من لف لفيفكم مُنذ العام 2008م إن لم يكن قبله قد طمس القدوة الحية عن الشارع حتى أمسى من يشب في مجتمعنا لا يجد إلا أصحاب النفوذ والسلطة هم عينهم دعاة الحل السلمي يملكون زمام كل شيء، والتخوين أسهل الطرق لإسقاط الخصم، أين الداعي لمثل دعوتك يا فهد؟ عذرًا قد استأسدت الفئران!

علمني كي أخرج بمعجزة تهدي من ضل إلى سواء السبيل، وترشد من مكث طويلًا يتأمل في الغار الكيفية التي تقوده لتحقيق هدفه الثوري

المتمثل في إبقاء جذوة الصراع موقدة! فالاحتلال ما زال قائمًا وإزالته مطلبٌ شرعي ثوري.

قد تكون قصتك سيدي نموذجًا يسهل إسقاطه على الواقع الحالي فكل الإحداثيات التي بين بدايتك وبدايات أولئك الباحثين عن البداية "المتأملون في الغار" كلها تمامًا تشبه بعضها بعضًا؛ فإن كنا في الماضي أقوى رغم أننا كنا نُكوى فاليوم نُقتل بكل خفة يد بصمتٍ وهدوء فلماذا لا نسعى لأن يتكرر الماضي نفسه؟!

كيف أبدأ معك؟!

ابدأ معي من حيث شئت! أهلكَ كأهلي لاجئون، نحن نشترك معًا في هذه الميزة (UN) كرت التموين. بيتكم يشترك في جدرانه عوائل أخرى.

لا أريد أن أتحدث عن التفاصيل التي أعرفها عن المخيم الذي حواك واحتواك طفولةً وشبابًا، أريد أن تحدثني من البداية كيف أنت وحالك مع هذا المخيم. انطلق بي أريد أن أسمعك وحسب، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، بإمكانك أن تبدل الأسماء بأخرى مستعارة، فلعلك تحفظ الخصوصية لأبطالٍ أو أنذال هم شخوص روايتك التي كتبتها واقعًا في عمرك. آخ، مش عارف، القصة طويلة جدًا، قد تضجر من استماع تفاصيلها، إنها تحوي عشرات الأجزاء ومئات المواقف، هل تستطيع معي صبرًا؟!

ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا، لن أتضجر، الملل شيءٌ هامشي وحتى إن وجد فمعكَ وفي حضرتك أعدك بتمزيق الهامش.

أصخت لك بسمعي، وأعرتك بصيرتي فامضِ بي، وأطلق عنان الذاكرة من بوابة فمكَ الذي لا ينطق إلا حقًا!

إذن معي إلى المخيم، وإلى منتصف الثمانينات حيث بداية الطفولة، مخيم بلاطة ثالث أكبر مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية، هناك بدأت القصة التي ألحت عليّ البدء في رفع الستار عنها، المشهد الذي أتذكره اقتحام جنود الاحتلال للمنازل ليل نهار، اعتقالات للشبان، فرض لمنع التجوال، خوف و رعب يتوزع بنسب متفاوتة، وأول من يجني ثمار هذا الزقوم أنا وجيلي (أطفال المخيم)، مدخل حارتنا "حارة الجامع" كان مغلقًا بشكل شبه دائم ببراميل حديدية معبأة بالرمل ومكعبات إسمنتية تعيق الحركة من وإلى الحارة التي أسكنها، كان هذا عاملًا كافيًا لأن تبدأ حالة التمرد على الواقع بأن تتقد في صدري، فالهم والمهمة الأهم لطفل في عمري إنها توفير مكان للعب، وهذا العزيز المفقود في ظل حصارٍ مضروبٍ على الدوام على حارتنا.

مواجهات، شبان الحجارة أو أطفالها زائرون دائمون لحارتنا التي تتخذ من مدخل المخيم موطنًا لها، هناك صورة تحضرني بتفاصيلها: إطارات السيارات المشتعلة، أكوام الحجارة التي أعدت مسبقًا قبيل بدء المواجهة مع قوات الاحتلال، رغم صغر سني آنذاك كنت أساهم في جلب الحجارة لميدان المواجهة المقبل، إنها لعبة الموت التي استبدلها الاحتلال مني وممن هم بعمري حينها بعدما فرض علينا أن لا لعب ولا مكان للعب. هنا كان اللعب بالموت خيارًا متاحًا لنا، رصاصة مطاطية واحدة لمن هم بذاك العمر تكفي بأن تضعه في طرد بريدي يقع في مقبرة المخيم، أو لعل قنبلة

غـازٍ تسقط بجانـب طفـلٍ تجني عليـه مختنقًـا لـن تزيـد في عمـره كل صرخـات أهلـه ثانيـةً واحـدة.

بـين مهمـة جلـب الحجـارة ومهمـة المراقبـة كان تنقـلي بـين المهمتـين عـلى جوانـب الميـدان "الحـارة"، ولأن حارتنـا بمدخلـين ومدخـل واحـد هـو الـذي تكـون فيـه المواجهـة غالبًـا، أمـا الثـاني فيتـولى مـن هـم بكفـاءتي "نوعًـا مـا" مراقبـة قـوات الاحتـلال إن عمـدت لإطبـاق كمـين مـن المدخلـين عـلى الشـبان المتواجديـن في الحـارة، وغالبًـا مـا كان إطلاقـي لإشـارات بـأن قـوات الاحتـلال قـد قدمـت مـن المدخـل الثـاني كفيلـة بـأن يفـر الشـبان مـن تلـك الكمائـن. ذات مـرة وأنـا أتـولى مهمـة المراقبـة وبعـد أن قمـت بتنبيـه الشـبان بـأن قـوات الاحتـلال قـد قدمـت مـن المدخـل الثـاني، وخـلال تمويهـي للمهمـة بأنني أقـوم باللعـب مـع بعـض الأطفـال مـن عمـري لعبـة شـعبية "السـبع حفـر"، وصلـت القـوات إليَّ، انتابتهـم شـكوك بأنـني أحـد أطـراف النـزاع "المراقـب"، قامـوا بإلقـاء القبـض عـلي واحتجـازي وتعنيفـي وكأنـني نظـيرٌ لهـم بالعـدة والعتـاد، خـلال صراخـي خرجـت إحـدى النسـوة مـن بيـت قريـب مـن مـكان الحادثـة، أذكـر أنهـا والـدة الشـهيد إبراهيـم المسـيمي الـذي استشـهد فيـما بعـد، مـن جهتهـا قامـت بمحاولـة نجحـت خلالهـا في تخليـصي مـن قبضـة جنـود الاحتـلال بعـد مناوشـات جهـدت بهـا مـن أجـلي، أخذتنـي إلى بيتهـا القريـب وبـدأت تهـدئ مـن روعـي، كلماتهـا سـاعدتني كثـيرًا في طـرد المخـاوف التـي سـكنتني ممـا رأيـت "إتخافـش، فـش إشي، كـمان إشـوي بـتروح، اهـدا يـا خالتـي". أحضرت لي مـاء شرب، ارتويـت منـه، هـدأت نفـسي بعدمـا أخـذت تقـوم بطقـوس تمهـر بهـا أمهاتنـا بالعـادة "لقطـع الخوفـة" وفعـلًا أزاحتهـا، وبعـد أن انقشـع غبـار

المواجهة في الخارج خرجت بصحبتها إلى باب بيتنا، منعتها من مصاحبتي للداخل حتى لا تكشف ما كنت أتمنى أن يستر دائمًا عن والدي فعقابي إن علم بالحدث لن يكون أقل سوءًا من الحادثة، وأظن حكمه عليّ سيكون اعتقالًا بيتيًا إلى ما شاء الله.

أشهر قلائل أذنت لي بأن ألتحق بكتائب رماة الحجارة، عشرُ سنوات كانت قناعتي بأن هذا العمر هو عمر البلوغ الثوري الذي قد يؤهل لاجئًا فلسطينيًا للعمل ضمن صفوف الثورة ولو كان في الابتدائية منها من خلال إلقاء الحجارة، إن صح التعبير فأنا قبلها كنت في رياض الأطفال الثوريين في مهمتي جمع الحجارة والمراقبة.

سريعًا يكبر الثائرون، يتنقلون بين مراحل كلها تقربهم أكثر لشهادة قد ينالونها منذ أول يوم للالتحاق بهذا النهج، الحضانة، الرياض، الابتدائية، الإعدادية إلى ما شاء الله كلها مراحل تتيح لمنتسبيها أن ينالوا الشهادة العليا فيها، ولكنْ لكل أجل كتاب! في المخيم، وبالتحديد حارة آل "أبو ليل" التي لا تبعد عن حارتنا كثيرًا هناك كانت تتقد مواجهة جديدة مع قوات الاحتلال بعدما استفززناهم بإلقاء حجارة عليهم في منطقة شارع القدس القريب من المخيم، واستدرجناهم إلى المخيم وإلى هذه الحارة بالتحديد، كنا بأعدادٍ لا تتجاوز المائة، ومع كل دقيقة تمر تلتهب المواجهة أكثر حتى زاد عدد الشبان من طرفنا وزادت حدة الرد من قوات الاحتلال فلم تكتفِ بإطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع بل تجاوزتها لإطلاق الرصاص المغلف بالمطاط وكان لي نصيبٌ منها، كانت هذه المواجهة نهار يوم من أيام شهر رمضان المبارك، وكنت صائمًا النهار وهو أول رمضان أقوى فيه على

الصيام، وبعد أذان العصر والمواجهة ما زالت على حالها؛ فجأة إذا بالوجع يخترق أعضائي، وضعت يدي على ما كنت أحسه جرحًا لكن لا دماء إنها الرصاصة المغلفة بالمطاط قد نالت مني، فررت بوجعي تجاه أحد الأزقة التي تبعد ولو قليلًا عن ميدان المواجهة. كدت أشعر بأن كل عذابات أهل جهنم اجتمعن عليّ، وجع لا يوصف، عمري الذي كنت أظن أنه يستطيع مقاومة هذا الوجع لم يسعف جسدي الذي يعاني منه! اجتمع على أناتي بعض المارة، أدركوا أنني أحد المصابين، كشفوا عن مكان الإصابة، وأحضروا من أحد بيوت الزقاق الثلج ليبردوا موضع الإصابة، خلال العلاج الأولي الذي تلقيته من أولئك الأشخاص أطلق جنود الاحتلال وابلًا من قنابل الغاز المسيل للدموع وصلت كثبانه إلى مكاننا، قاموا بحملي وإبعادي إلى زقاقٍ آخر لا يتأثر بكمية الغاز الذي قد يتسرب إلينا، هناك ومع كمية الثلج الذي أطفأ حرارة الإصابة بدأت أشعر بالمعافاة نوعًا ما، وحتى الوقت الذي انسحبت فيه قوات الاحتلال من ساحة المعركة؛ كنت قد استعدتُ وعيي كاملًا، حاولوا خلال إسعافهم الأولي لي أن يسقوني الماء، لكنني أصررتُ على متابعة صيامي لهذا اليوم. إنها رهبة الموقف الذي كان يحتم عليَّ أن أبقى صلبًا حتى إنني لم أذكر أن عيني دمعتا حينها، وقفت على ساقي وهدفي بيت الأهل. كنت أضع خلال طريقي إلى البيت الثلج تحت اللباس وعلى الإصابة مباشرة، دخلت البيت وخشيتي من معرفة والديّ أكبر من خوفي من تجدد الوجع! وحتى يومي هذا لربما لا يعلم أحد بقصتي هذه! لم تكن تلك الإصابة عاملًا نوعيًا في اعتزالي لفنون المواجهة ولا حتى الإصابات التي كانت بعدها!

نقطة تماس أخرى كان يتخذ منها جنود الاحتلال مركزًا للسيطرة على كل شيء يخرج أو يدخل من وإلى المخيم، بناية عالية مقارنة ببيوت المخيم على الجهة المقابلة له، تتخذ قوات الاحتلال من جزئها العلوي نقطة مراقبة. كنا نهاجمها بحجارتنا أفواجًا وفرادى، نلقي بحجارتنا الصغيرة من مدخل المخيم تجاه أولئك المتمترسين في جحورهم العلوية، ويبادلوننا تارة بالغاز وأخرى بالرصاص المغلف بالمطاط، ومن عجائب ما استخدموا ضدنا إلقاء الحجارة وأيضًا لم يكن ببعيد عني أحدها. اجتمعنا في ساحة واحدة من رياض الأطفال بمدخل المخيم وخططنا لإلقاء الحجارة من تلك الساحة التي لها مدخل ومخرج، المدخل يطل على البناية المشؤومة والمخرج يطل على إحدى حارات المخيم، بدأت المواجهة: ألقينا حجارتنا وما إن وصلت إلى الجنود حتى أعادوها لنا، رموها علينا وكونهم هم من يتمركز أعلى ميدان الاشتباك كان حظهم في إصابة الهدف أكبر، وسرعان ما ارتد إليّ أحد الحجارة وأصاب رأسي مفجرًا منه بئر دم ارتوازية، شعرت بكمية هائلة من الدم المتدفق من رأسي. إنها كمية لا تتناسب مع ما يحوي جسدي من دماء، خرجت من مخرج ساحة الروضة تجاه أحد محال البقالة الذي من سوء حظي أو من حسنه لا أعرف أن تكون تلك البقالة لأحد أقارب والدتي "بقالة أبو حازم خرمة". قام بإسعافي بوضع ما توافر بين يديه من أقمشة على مكان الجرح، رش عليه قليلًا من القهوة علّه يوقف تدفق الدماء من ذاك الجرح، وفعلًا توقف أو حصر تدفقه، وقدم لي العصير البارد ظنًا منه أنه سيعوض بعض الدماء التي خرجت مني وفعلًا شربت، انتهت عملية العلاج التي امتهنها العم أبو حازم وما إن

استشعر معافاتي حتى خرج بي إلى بيتنا، وهناك امتهن عليّ أبي حازم مهنة الإعلامي الذي من أساسات عمله نقل الحقيقة كاملة، وأحيانًا بقليل من الاختلافات المهولة التي أتقنها أبو حازم وهو يفجّر مواهبه الإعلامية أمام والدي والشرر يقدح في أعينهما، وبدأت مرحلة التوجع النفسي تقتحمني فالمواجهة التي كانت مع الاحتلال انتهت والآن مواجهة من نوع آخر، مع أمي وأبي هذه المرة، ومسلسل القلق المتكرر في كل أسرة أعلمه ولم أعشه وها أنا أضطر لأكون بطلًا فيه، والحمد لله على أن شفيعي كانت إصابتي ولم يكن أبو حازم، اكتفيا بالتوبيخ الشفوي لي، مع قليلٍ من حدٍ لحرية الحركة والتنقل من وإلى البيت.

كانت المدرسة مقر الاستعداد والتخطيط للانطلاق للمواجهة القادمة، منها نحدد من أين سنخرج إلى شارع القدس القريب من المخيم والذي يواجه عددًا من مداخل زقاق المخيم. يومها كان هذا الشارع ممرًا مرعبًا للسيارات العسكرية الصهيونية وحتى سيارات مدنية للمستوطنين المتنقلين بين مستوطنات الضفة الغربية، خططنا أن نخرج أنا ورفيق الطفولة مراد مرشود من المدرسة إلى زقاق آل حرب والواقع في مؤخرة المخيم ويواجه مدخلها الشارع المستهدف، وكان قد سبقنا إلى الهدف عدد آخر من الفتية منهم على ما أذكر حسين أبو ليل _الذي اعتقل بعد سنوات طوال وتم الحكم عليه بالمؤبد_، بدأنا نرصد الأهداف ونمايز بين مستقلي السيارات عربًا أم مستوطنين، وهنا كان الصيد الذي ننتظر، انقضت حجارتنا على سيارة من نوع سوبارو قد مُلئت مقاعدها بركابٍ خمسة ممن أكدوا لنا بلباسهم أنهم مستوطنون متدينون، وكانت حجارتنا

كافية لأن تمزق ألواح الزجاج الأمامية والجانبية والخلفية للسيارة، أوقفوا السيارة جانبًا وترجل منها مستوطنان من الخمسة، وأخرجا سلاحيهما وقاما بإطلاق نارٍ عشوائي تجاه مصادر الحجارة التي ألقيت على سيارتهم، ولحسن الحظ لم يكن لأيٍ منا نصيب من مكائدهم، لكن خلال هذه المواجهة خرج من بيننا أحد الفتية يحمل زجاجة حارقة في نيته أن يلقيها تجاه السيارة التي أهدرنا زجاجها، ولكن ما حوته الزجاجة من وقود شربته سريعًا يده وكتفه نتيجة حمله الخاطئ لها، وارتباكه فور إطلاق النار من المستوطنين. وهنا بدأ حسن الاستطلاع يراود نفسي لامتلاك زجاجة حارقة وإلقائها في المواجهة القادمة.

في هذه الفترة كانت الاستعدادات قائمة من قبل الاحتلال الصهيوني على قدم وساق لتسليم بعض المناطق التي حسب اتفاق أوسلو ستكون ضمن حدود الدولة الفلسطينية العتيدة بعيد سنين لا تتجاوز العشر، سُلمت وكبداية غزة وأريحا وكان نصيب نابلس آخر المناطق التي سلمت لسلطة الحكم الذاتي في مرحلتها الأولى، تلك السلطة التي ولدت من رحم الاتفاقية البائدة والتي أطلق عليها (السلطة الفلسطينية).

لم يكن عندي حدٌ للمغامرة التي دائمًا ما كنت لا أحسب النتائج المترتبة عليها، ويومًا وبرفقتي مراد مرشود سمعنا عن إمكانية التسلل إلى ساحة التدريب في معسكر حوارة الذي لا يبعد إلا كيلو مترات عن مكان سكننا في المخيم، عزمنا الأمر، وعقدنا النية وتبنينا المشروع، وعليه حددنا يومًا لاقتحام المعسكر أو لعل اقتحام مصطلح تهويلي لمهمتنا، فنحن لم نهدف في تسللنا ذاك إلا إلى التنقيب عن أي مخلفات عسكرية، وفعلًا وخلال عصر

ذاك اليوم تم دخولنا على غفلة من الحراس وبتوافر إحدى الفتحات التي كانت في السياج المحيط لتلك الساحة. وفقنا إلى مأربنا ووصلنا إلى ساحة المعسكر، كانت الساحة هناك إن حرك بعض رمالها أخرجت لك رصاصًا لم يستخدم بعد، سُعدنا بما غنمنا، عشرات، بل أكثر من مائة رصاصة، كان الأمر غاية في الجمال، لقد ملأنا جيوبنا وكيسًا جلبناه معنا وخرجنا من حيث دخلنا، عدنا إلى المخيم والجنود الصهاينة ما زالوا في غفلتهم، وزعنا الغنائم على من كنا نعتقد جازمين أنهم من نشطاء المقاومة، وأبقينا ما أفاء الله علينا منها للهو به، كنا نستخرج البارود من جوف الرصاصة ونرسم به ما يخطر ببالنا ونقوم بإشعاله، منظر كان رائعًا في نظرنا، شيء جديد، إنها مرحلة الاكتشاف التي سبقت مرحلة المراهقة عندنا.

لم نكتفِ أنا ومراد بأن تمضي عملية التسلل هذه بأمان، فقررنا تكرارها، وفعلًا بعيد أيام خرجنا لعملية تسلل أخرى، شجّعنا على ذلك معرفتنا ممن يكبرنا سنًا أن الرصاص الذي عثرنا عليه مطمور في رمال ساحة التدريب كان نتيجة تهرب أحد الجنود من عقابٍ بحقه يقضي بأن يطلق من بندقيته عددًا مبالغًا فيه من الطلقات قد يتجاوز الألف طلقة، فيغافل مدربه أو من أُحيل إليه مراقبته ويطمر ما يستطيع طمره في التراب حتى يتهرب من مشقة إطلاقها كلها.

إذا فلابد أن جنديًا آخر تم معاقبته وعمد كسابقه إلى طمر الرصاص أو تغطيته بالرمل إن جاز التعبير، حددنا يومًا للتسلل وتم بحمد من الله وتوفيقه وصولنا إلى الساحة وفعلًا وكما كانت حساباتنا وجدنا الطلقات

وهذه المرة تم تغطيتها بطلقات مستعملة فارغة، لم يكن لدينا الوقت الكافي لفرز الممتلئ عن الفارغ فأخذنا بغرفها جميعًا إلى الأكياس التي أحضرناها، وبعدما انتهينا من هذه، حملنا الأكياس واتجهنا إلى السياج المثقوب حتى بلغنا هدفنا، وهناك بدأت عملية الفرز، الممتلئ سيكون مصيره كمصير قرائنه في التسلل الأول، والفارغ سيكون باب رزق كافٍ لمن هم في أعمارنا وسنجمع إليه بعض ما نستطيع جمعه من المهملات النحاسية التي تتوزع بين زاوية وأخرى في المخيم وعلى أطرافه وسنحملها إلى أقرب تاجر للمعادن الخسيسة الذي سيشتري منا كل هذه الكمية الهائلة "بنظرنا" ببعض البعض من الشواقل!

انتهينا من الفرز وأودعنا كل قسم حيثما كان الاتفاق، قسم إلى نشطاء المقاومة، وقسمٌ للهو، والفارغ مع ما حوينا من حاويات القمامة وأطراف المخيم إلى تاجر الخردة والمخلفات النحاسية، وعدنا منه بخمسة شواقل ما يعادل دولارًا واحدًا تقريبًا حينها، كانت كافية لأن تدخل على قلبينا السرور ولو لأجل مسمى.

لم نكن ببعيدين عن المواجهات بين أي عملية تسلل وأخرى كنا نقدم عليها، مراد كان يرافقني في أغلب "مشاكسات الطفولة"، وكذلك كان يستقل أحيانًا بمشاكساتٍ خاصة به كنت بعيدًا عنها، وكذلك أنا.

3

ذات يوم خرجت من المخيم برفقة فتيان لا تربطني بهم علاقة وثيقة. كنا نبغي أرضًا تكدس بها السيارات التي انتهى أجلها، تلك السيارات قد تحتوي في أحضانها الصدئة قليلًا مما تركه لنا القدر من الأسلاك النحاسية التي قد تعود علينا بمردودٍ مادي يكفي من هم بأعمارنا لسد بعض رغباتهم من شراء شيء جديد. إلى هناك كان المسير ظهرًا، وهناك بدأنا ثلاثتنا التنقيب عن النحاس، كانت الأرض تقع بالجهة المقابلة لمطعم الغاوي، وهو مطعم شعبي يستقر على جانب مفرق طرق تتوزع شقوقه

إلى عسكر القديم وسوق الخضار المركزي (الحسبة) وشارع عمان الذي يقود لاتجاه مركز مدينة نابلس، والشق الأخير يتجه مستقلوه إلى مخيمي "مخيم بلاطة"، وبعد جهدٍ من الثلاثي المرح خرجت من بينهم واتجهت إلى خارج أكوام السيارات، وعلى أحد أطراف الشارع، وقفت لأستريح ولو قليلًا من مشقة جمع النحاس، ولكن لا أبرح موطنًا أبغي فيه ارتياحًا أو كفاحًا إلا ويستوجب عليّ حمل الحجارة وإبقاءها قريبة مني.

جلست أنتظر أيًا من السيارات التي قد تكون أهلًا لحجارتي هذه، وخلفي ما خلفي من السيارات التي كان من بينها ضحايا لحجارة الجيل الأول من رماة الحجارة، وأتت تلك السيارة ولكن لم تكن لوحدها، وهذه المرة كان مسيرٌ كامل أكثرُ من واحدة يستقلها مستوطنون بعضها يحمل أعلامًا صغيرة لكيان الاحتلال وكأنها موكبٌ رسمي، لم أبالِ بالنتائج كالعادة ورميت ما أمكنني رميه من الحجارة فأصاب أكبرها زجاج أولى السيارات، لم يكسره لكنه أحدث فيه شقوقًا كافية لحجب رؤية السائق. تفرق جمعهم، السيارات بدأت تتوزع على تفرعات المفرق الأربعة، حجارتي كانت كافية بتنغيص رحلتهم تلك، إحدى السيارات التفت إلى حيث وجودي، خرج منها أحد المستوطنين وبيده مسدس أطلق طلقةً في الهواء كانت إشارةً لي بالهروب تجاه المخيم، وتبعها طلقة ثانية تجاهي كانت كفيلة بزيادة السرعة في قدمي. وبعد أن ابتعدت مسافة مناسبة التفت إليه وقمت بالتهريج عليه حتى استفززته لإطلاق رصاصته الثالثة. كنت قد وصلت معها إلى أول زقاق المخيم، أما الفتيان الآخران فبقيا على حالهما في جمع الأسلاك النحاسية لم يشاهدا أيًا من فصول ما جرى خارج مملكتهما

تلك، وأستشعر أنهما تناجيا في أمري أنني لست أهلًا للمشقة والتعب وأن أحدهما قال للآخر: "وين راح هاد، والله ما هو تاع شغل".

لم تغب عن عيني صورة الزجاجة الحارقة (المولوتوف) التي كادت أن تحرق الفتى الذي همَّ بإلقائها بإحدى المواجهات. كان شيئًا جديدًا بالنسبة لي وله، كنت أسعى، والآن حان دوري في أن أطور قدراتي العسكرية _الطفولية_ فالمولوتوف هذا سلاحٌ له ردعه الخاص ونكهته الجهنمية حسب المشهد الذي رأيت. إن الأمر لم يكن بالغ التعقيد. قارورة زجاجية، قطعة قماش، ومادة سائلة مشتعلة، وعلبة أعواد ثقاب، وهذه الرباعية متوافرة نوعًا ما إن أحسنت تلصصها من مرافق البيت. القارورة الزجاجية علبة عصير فارغة ملقاه في سلة المهملات الموجودة بالقرب من أي محل بقالة، قطعة القماش يجب أن تكون من النوع الذي يبقى رطبًا إن ابتل. لذلك لن يكون هناك أنسب من تلك التي توضع في مصابيح الزيت، ثمنها نفيس نصف شيقل من نفس البقالة التي سأحضر من سلة مهملاتها قارورة الزجاج، المادة المشتعلة ستكون أيضًا متوافرة في وابور الكاز، وكذلك علبة أعواد الثقاب ستكون على مقربة من الوابور، تم جمع العناصر الأربعة على طاولة المخترع الصغير، وتم إنجاز أولى الزجاجات الحارقة على يدي، والآن جاءت رحلة البحث عن فأر التجارب، حملت الزجاجة وأعواد الثقاب بعلبتها وموهت ما أحمل في كيس كرتوني، واتجهت إلى أحد الأماكن المشجرة على طرفٍ من أطراف شارع عمان، وانتظرت فأر التجارب ذاك، كنت أتمنى أن يكون من غنائمي هذه المرة جيب عسكري وليس سيارة للمستوطنين، وفعلًا أتى وتوقف ليس ببعيد

عن المكان الذي اتخذته ثغرًا للرباط. أشعلت قطعة القماش التي كانت بمثابة خيط الديناميت، وألقيت القارورة تجاه الجيب العسكري الصهيوني، ولكن للأسف أصابته ولم تشتعل مادة الكاز التي كانت في القارورة، بعد أن كسرت وفرغت من محتواها على سقف الجيب رغم أن قطعة القماش بقيت مشتعلة لدقائق طوال.

رغم خيبة الأمل حينها أنني فشلت في الإعداد إلا أنني لم أستسلم لهذا الفشل، وسألت أهل التجربة، فتبين لي أن الخطأ كان باختياري للمادة المشتعلة وهي الكاز، وهنا قررتُ أن أستبدل المادة بتلك أخرى في المرة القادمة.

معسكر حوارة لم يكن إلا ملاذًا لنا بعد هدوء نقاط الاشتباك في محيط المخيم، ومرت أيام دون مواجهات جديدة. توجه إليّ مراد. ألح عليّ بأنه أشتاق لمغامرة جديدة في أحضان ساحة التدريب في معسكر حوارة، وكنت لا أقل عنه اشتياقًا لتلك المغامرة، ولكن هذه المرة رأى بأنه يجب علينا أن نكون بضعف عددنا السابق حتى يتسنى لنا أن لا نجلب معنا من هناك إلا الطلقات الممتلئة وأن لا نعود إلا بأعدادٍ مضاعفة، فالطمع الثوري شغل مراد الشاغل، وأخبرني بأنه قد تعارف على فتيين في إحدى المواجهات من سكان المدينة وأخبرته أنه لا مانع لدي في تسللٍ جديد، وتوافقت أنا وإياه على يوم لإتمام المهمة على أن يحضر معه وقت التنفيذ الفتيين.

في يوم الميقات المعلوم جلست أنتظر مرادًا ورفيقيه في نقطة الانطلاق، وفعلًا أتوا ومعهم أكياس صغيرة بانت من جيوبهم. ألقوا التحية عليّ ورددتها عليهم وخرجنا إلى حيث نريد، وصلنا ساحة التدريب في المعسكر

ومن خلال نفس الفتحة المحدثة في السياج التي سبق واستخدمناها لنفس الغرض. كنا نظن كالمرات السابقة أننا غير مرئيين من قبل جنود الحراسة للمعسكر، نتنقل في زوايا الساحة كيفما نشاء ونعبئ الطلقات في جيوبنا قبل أن تنقل للأكياس، فجأة وإذا بجيب عسكري وسيارة مستوطنين يقتحمان الساحة علينا، كان عنصر المفاجأة كافيًا لأن يثبت أقدامنا في الأرض، خرج من خرج من السيارتين، ومعهم ما معهم من الأسلحة، ورفعوها تجاهنا ونادونا بعربية مثقلة: "وقف، وقف""تعال، تعال". تقدموا نحونا، طالبونا قبل وصولهم إلينا بإخراج كل شيء من جيوبنا، وفعلًا أخرجنا كل ما كنا نعتقد أنه أصبح من أملاكنا الخاصة، بعد إفراغنا للجيوب بدأوا بضرب خدودنا بكفوفهم وأقدامهم ترفس أجسادنا كحمرٌ مستنفرة. كان ضربهم لنا بهذه الهمجية دافعًا لنا للركض تجاه السياج المثقوب دون نظر للوراء، وركضنا بأسرع ما منحنا الله من عافية، وبدأوا بإطلاق النار في الهواء ليلقوا في صدورنا الرعب، ولكن ذلك الرصاص كان كدعسة الوقود التي تزيد في سرعة أقدامنا تجاه السياج، وما إن خرجنا من السياج حتى استقلوا سياراتهم والتفوا بها إلينا، وبدأت مطاردتهم لنا تتخذ منحى جديدًا، كان ركننا الآمن في الأماكن المشجرة في سهل قرية روجيب الذي يقع بين معسكر حوارة ومخيم بلاطة.

وهناك أضعناهم بعد أن منعت تلك الأشجار سياراتهم من الولوج إلينا. ارتحنا قليلًا تحت واحدة من الأشجار، يضحك كلٌ منا على الآخر على تلك الواقعة، وما إن أرحنا أقدامنا حتى عزمنا الخروج إلى المخيم، ومن ثم يذهب الأخوان لبيتيهما في مركز المدينة، وأنا ومراد إلى بيتينا أيضًا!

بعد تلك المغامرة بصحبة مراد كان لزامًا عليّ أن أتقي مخططاته ولو قليلًا، فخرجت لوحدي هذه المرة أقصد في مهمتي معسكر حوارة، ولكن في نصف الطريق قطع مسيري مهمة جديدة، إنها أفضل من التسلل لجلب الرصاص. أظن أنه صار واجبًا عليّ أن أمتلك سلاحًا خاصًا بي، "المقلاع" الذي كان الحصول عليه نادرة تستحق الجهد. تفقدت بعض الأشجار التي مررت بها في سهل روجيب. كان بمجملها شجرتان دققت في أغصانهما حتى عثرت على غصن متشعب يصلح لما أريد، يشبه بشكل حرفي حرف y (واي بالإنجليزية)، وبعد أن قطعته حملته معي، وأخذت خلال مسيري للبيت أسوي أطراف ذلك الحرف، وفصلت القشرة عن العود، وما إن وصلت إلى البيت حتى أخفيت ذاك الغصن المسوى تحت وسادتي لأكمل إعداده في اليوم التالي، وما إن جاء ذاك اليوم حتى تنفست صبحه في أحضان مستشفى الوطني ليس لمرضٍ والحمد لله، لكن بحثًا عن حبل مطاطي ما يستخدم في فحص ضغط الدم، وعثرتُ على ما ذهبت لأجله، ثم عدت إلى سطح بيتنا، وهناك بدأت التفتيش بين الخردة الملقاة في إحدى زواياه على لسان حذاء يصلح لأن أنجز فيه مقلاعي، ووفقتُ في العثور على فردة حذاء، قطعت بسكيني لسانها، أتممت تجميع القطع الثلاث الغصن المشعب والحبل المطاطي ولسان الحذاء، وبعدها أضفت لمقلاعي الخاص شيئًا من الكماليات التي تُحسِن من منظره، لففت غصن المقلاع بلاصق أسود وزينت كعبهُ بخيوطٍ خفيفة كثيفة، كانت تسرُ الناظرين.

كنت أنتظر أولى المواجهات التي سأستعرض بها سلاحي النوعي على مرأى من الصديق والعدو. بدأت التدرب عليها يومًا بعد يوم إلى أن

جاءت المواجهة الأولى التي أكشف بها عن ممتلكاتي الحربية، كنت أحسن استخدامها، وعند انزوائي في منطقة ما يطالبني رفاق المواجهة ممن أعلم ولا أعلم باستخدام مقلاعي، ورغم غيرتي عليه إلا أنني لم أبخل عليهم باستخدامه، كررت استخدام مقلاعي هذا في عدة مواجهات، وكنت قلقًا على مصيره إذا علم والدي بشأنه؛ لذلك عادة ما كنت أخبئه خارج البيت، وذات يوم وخلال إحدى المواجهات انتهى عمر مقلاعي وكسر أحد أطرافه، حينها خرجت من المواجهة تلك أحمله مكسورًا حزينًا عليه، كنت أحملُ حزنًا في صدري يكاد أن يخرج من عيني، لقد فقدتُ حبيبي الذي ربيته بين يدي وخرجت به وقد لا أعود، ومن شدة حزني عليه كدت أن أقوم تجاهه بمراسم عزاءٍ ووفاء.

لم تثنني تلك المصيبة في فقد الحبيب أو الحبيبة عن التبصر لغيرها، وهنا لا خيانة، فقد أجيز لي أربعة في آن واحد فكيف إن توفيت واحدة، ذهبت إلى أرضٍ تنتصب فيها أشجار الزيتون، وبدأت أتفقد الأغصان في كل واحدة منها حتى استحسنت غصنًا مشعبًا يصلح بامتياز لمقلاعي الجديد. خشب شجر الزيتون أمتن وأقوى من خشب شجر التين، قطعت ذاك الغصن وسقته لمصير سالفه من التين، وتم الإعداد من نفس حبل المطاط ولسان الحذاء الذي سبق لي واستخدمته في مقلاعي المكسور، وتم إنجاز المقلاع الجديد بكفاءة أعلى من سابقه.

في سوق الخضار المركزي (الحسبة) الذي لا يبعد الكثير؛ ارتديت حذائي وخرجت تجاهه مع مقلاعي أخبئه تحت شريط بنطالي المطاطي وأخفي طرفه المتبقي بقميصي، لم يكن ذهابي إلى (الحسبة) بهدف التبضع مما

حوته من ثمار، ولا لأن هناك نقطة اشتباك فيه، إنها محاولة لاكتشاف جديد بمفردي، ساحات السوق تعج بالباعة والمحال وعربات العتالة، وقبل أن تشتري بإمكانك أن تجرب ما لذ وطاب من ثمار الفاكهة الطازجة، الحبة والحبتان لا تنقص في ملك التاجر أو الآخر شيئًا، لذلك كنت أحيانًا إن وقع في نفسي شيء من تلك الثمار لا أصرف طرفي عنه إلا إذا وقع في بطني، رغم جمال تلك الرحلة إلا أنها تخلو من الأكشن الذي يستهويني على الدوام، رحلة البحث عن الأكشن دائمًا ما ترد إلى ذهني بعد تدفق الملل لصدري نتيجة رحلةٍ لم ترقَ لمستوى الفعالية التي أرغب، وأحيانًا اختلاف الأكشن يكون أمرًا غاية في المتعة التي تشبع غراس الثورة في ذلك الصدر، وتطرد تلك المتعة كل ملل أو كلل أو جبن أو خوف. توجهت إلى سور السوق المواجهه لشارع تتنقل فيه سيارات لا تخلو من تلك التي يستقلها صهاينة، مستوطنون وعسكريون، جلست على السور، لمحت سيارة مستوطنين يرافقها جيب عسكري، تتقدم في الشارع الذي أقابله، أخرجت مقلاعي ووضعت الحجر في بيت النار واستعددت لاستهداف زجاج تلك السيارة بعين ثاقبة، وما إن وصل الهدف مبتغاي حتى رميته بمقلاعي، الحجر أحدث ثقبًا صغيرًا في زجاج السيارة الأمامي وتشقق جزءٌ منه، توقفت السيارة قليلًا خرج الجنود من الجيب العسكري وأخذوا يتفقدون سيارة المستوطنين، وبعد ما اطمأنوا على سائقها وبعد أن أكد أحدهم _على ما أعتقد_ أنه لمحني على السور؛ اقتحم الجيب العسكري الصهيوني ساحة (الحسبة)، وترجل منه بعض الجنود وأخذوا يفتشون عن صاحب "الجرم" الذي ما وجدوه؛ لأنه كان قد انخرط في العامة يأكل المشمش.

حتى الساعة التي عادَ الجنود فيها إلى جيبهم الذي حملهم إلى ما كانوا يبتغون كنت أحس بنشوة الانتصار وأنا أراهم يركبون جيبهم العسكري دوني وأرى علامات الانكسار في وجوههم. وما إن فرغت أنا الآخر من حبات المشمش حتى بدأت مسير عودتي للبيت.

4

سنة 1994م تصاعدت حدة الاعتداءات التي تشن يومًا بعد يوم من قبل المتطرفين الصهاينة، وكان أكبر تلك الاعتداءات وأشدها مجزرة الحرم الإبراهيمي التي نفذها المتعصب الصهيوني باروخ غولد شتاين في 25 فبراير (شباط) من نفس العام، كانت الروايات التي بلغتنا من مدينة الخليل تؤكد أن المصلين في الحرم الإبراهيمي كانوا خلال سجداتهم الرمضانية الطويلة أثناء صلاة الفجر حيث اقتحم عليهم ذاك المتعصّب اعتكافهم الروحاني، وقام بإطلاق النار بشكل عشوائي حتى خرج من بين السجود من قطع ذعره صلاته، وهاجم ذلك المتطرف بأنبوبة إطفاءٍ

للحريق خلال تبديله مخزن الذخيرة في سلاحه، لقد أُغمي على المجرم ومات مباشرة، أما المهاجم له فقد نالت منه رصاصات أحد جنود الاحتلال!

بدأ الاحتلال بإجراء تدابير أمنية قد تجنب مستوطنيه ردات الفعل التي من المؤكد حدوثها نتيجة تلك المجزرة الدموية، وكان أولى تلك التدابير فرض حظر التجوال الذي أعلن فيه الاحتلال أنه بفرضه لهذا الحظر يحمي الفلسطينيين من أي احتكاك لهم مع "جيش الدفاع الإسرائيلي".

قوبلت تلك التدابير من القوى الوطنية والمبادرات الشعبية بدعوات للمظاهرات ضد الاحتلال ونداءات للاشتباك في كل نقاط التماس مع مستوطنيه وقواته.

لقد بات من الضروري الآن اللحاق بكل دائرة مواجهة حيث ما تكون، فالاكتفاء بنقاط الاشتباك على أطراف المخيم لم يعد كافيًا بالنسبة لي، النفس تواقة للحاق بكل دائرة مواجهة ونقطة اشتباك، كنت أسمع أن هناك مواجهات يُشعل أوارها أسبوعيًا في حارة الشيخ مسلم بالبلدة القديمة في نابلس، إضافة لمواجهات تتقد بنفس حدة الوهج على دوار الشهداء حيث يبدأ المسير إليه كل يوم جمعة بمسيرات تدعو إليها القوى الوطنية بعيد صلاة الجمعة تخرج من كل المساجد المحيطة بمركز المدينة، تخرج آلافًا مؤلفة وما أن تبدأ المواجهات حتى تتفرق الجموع ويعود السواد الأعظم إلى بيوتهم، ويمكث في الأرض من ظنوا بأنفسهم أنهم سيقومون على رد الكيد إلى نحره. بدأت قنابل الغاز تنهمر على رؤوس

المشاركين كالمطر، ونحن نرد حجارتنا عليهم وقليلٌ من حملة الزجاجات الحارقة. بدأت حرب العصابات بيننا وبين العسكر المدرب، فإذا قنابلهم الغازية ورصاصهم المطاطي يُخيّلُ لنا أنه لا فرار منها وحجارتنا تلقف ما يأفكون، إن تلك الحجارة رغم قلة تأثيرها على الجانب الآخر كادت أن توقف الجنود عن إطلاقهم للغاز والمطاط ولو لدقائق معدودة، وفي ذات المواجهة كان جيب عسكري صهيوني يتخذ من الشارع الخلفي للمستشفى الوطني نقطة مراقبة لساحة المواجهة، ويمتهن بعض جنود ذاك الجيب مهنة التصوير للمشاركين في المواجهة، بدأت المواجهة تتقلص حدَتُها، هرعت إلينا جيبات عسكرية بعددٍ كبير ومن كل اتجاه، كانت فرصة الفرار ضئيلة بالنسبة لي كوني لم أعتد على ساحة المواجهة هذه؛ لذلك كان الخيار الأسرع والأسهل بالنسبة لي غسل الأيدي ومرافقة أحد الباعة المتجولين المنتشرين في المنطقة، وكان من نصيبي ملازمة بائع بندورة، وخرج الجنود من جيباتهم وبدأوا اعتقال كل من انتابهم شك بأنه قد شارك في إلقاء الحجارة، كان لساني يلهج بالدعاء العفوي بنفحات إيمانية في فمي فأرغمته على القنوت "يا رب، يا رب، يا رب"، يد الجندي على كتفي شدني وكأنني أحد صناديق البندورة، دافع عنيّ البائع قليلًا، ولكن خشيته أن يفسدوا بضاعته أرغمته على أن يلتفت مجبرًا لرزق عياله، أخذني الجندي ورماني في الجيب بعد تقييده ليدي من الخلف بوساطة رباطٍ بلاستيكي متين يحتز جلد يدي كلما حاولت فك الوثاق.

خرجت بي الجيبات وقد امتلأت بمن هم كحالي وحتى منهم مارة لا يعلمون أن اليوم يوم جمعة أصلًا، توقفت الجيبات في ساحة مركز

الشرطة الصهيونية في المدينة، وأخذوا يصفون كل من ألقوا القبض عليه في طابورٍ طويل، هنا جاء صاحب الصور يقارن بين ما التقطته كاميرته وبين ما التقطه أيادي رفاقه!

كل صاحب صورة منا ستكون طامته كبرى خلال الدقائق القادمة، بدأ صاحب الصور بإطلاق العنان لسبابته تؤشر على كل من له صورة، وكل من تُوجه له تلك السبابة يتم تعصيب عينيه واقتياده إلى شاحنة تقف في نفس الساحة، لم أنتظر طويلًا حتى أشارت تلك الأصبع عليَّ، انقض أحد الجنود على جسدي الهزيل وتم تعصيب عيني بقطعة قماشٍ نتنة ورميت إلى تلك الشاحنة، لم تكن إلا غرفة حديدية لا يوجد بها إلا مقاعد تخلو أحضانها من أي قطعة إسفنج، واحدٌ ممن سبقني إليها أخبرني والمرافقين لنا بأننا في "البوسطة"، وكانت رحلتي الأولى فيها، رحلة لم تكن طويلة بمسارها، ولكنها شاقة جدًا بقيودها وعصاب الأعين فيها. انتهى الفرز في الخارج وبدأت الشاحنة بالتحرك، وصلنا سجن نابلس المركزي، وهناك تم فصل من أعمارهم تزيد عن الثامنة عشرة ممن هم دونها، وكنت أنا ممن هم دونها، إضافة إلى اثنين آخرين من مجمل المحمولين في "البوسطة"، تم اقتياد ثلاثتنا إلى غرفة بمدخل السجن لا تبعد كثيرًا عن بوابته كان يطلق على تلك الغرفة "التخشيبة"، وكانت تلك الغرفة بسقف وجدرٍ حديدية لا تختلف بوحشيتها عن تلك الشاحنة، ولكن الحسن فيها أن قيودنا وعصب الأعين قد تم خلعها عنا، كان يتناوب على حراستنا عدة جنود بين كل ساعة وأخرى، وحتى الساعة الثالثة التي مرت علينا في ذاك الوقت قدم إلينا أحد الضباط وقام بأخذ أسمائنا وأماكن سكننا

ومعلومات اجتماعية عامة عن عوائلنا وغادر، قبيل انحسار الشفق الأحمر عصر ذلك اليوم البغيض حضرت أولى العوائل لاستعادة ابنهم الذي كان ثالث ثلاثة في التخشيبة، ونجحت في ذلك. مر الوقت كسيف مصلت على رقابنا، وكان شعور ينتابني بأنني مقطوع من شجرة، حضرت عائلة الفتى الآخر واستعادوا ابنهم، وما إن خرج ابنهم من "التخشيبة" ومع زيادة الظلمة بدأ يتسلل إلى صدري التعب غير المبرر وإلى أطرافي الرجفة التي زادت من دقيقة لأخرى بفعل انخفاض درجات الحرارة وخفة ما أرتدي من هندام، والوحدة أقسى من كل عذابٍ وعقاب، قرابة الحادية عشرة ليلًا فُتِح باب "التخشيبة" وإذا في ظهرة جدي وأبي وأحد الجنود، فزعت إلى صدر أبي كأني غبت عنه دهرًا، ذهبت برفقة ثلاثتهم إلى مكتب أحد الضباط الصهاينة الذي يجيد العربية، طلب الضابط من والدي أن يوقع على عدة أوراق ورغم استياء والدي مما في تلك الأوراق إلا أنه اضطر مكرهًا للتوقيع عليها، وإن لم يوقع فسيتم إرسالي لمحكمة عسكرية، وتم التوقيع على الورقة التي كانت بمثابة تعهد يقضي بأن يمنعني والدي من المشاركة في أي إخلال بالنظام العام! وفي حال تم إلقاء القبض عليَّ مرة قادمة بظروف مشابهة سيتم تغريم والدي بغرامة مالية مقدارها ألف شيقل وهي تعادل ما يتقاضاه والدي شهريًا نتاج عمله.

لقد أطفأ حضني ذاك شرر نارٍ كاد سياطها أن يصليني، والدي كان مشتعلًا ككرة لهب وغضب، إنني أصب عليه المتاعب يومًا بعد يوم، ولكن اكتفى بعد ذاك الحضن البريء العفوي مني بالعتاب الذي لم ينسلخ منه الود بتة!

رغم أنني أحسست بمدى المتاعب التي أُصدِرها إلى ذاك الرجل الكبير إلا أنني لم أقدر الى فترة طويلة ذلك التحمل منه، سرعان ما نسيت وما أنساني إلا الشيطان أن أذكره، مرت جمعتان متتاليتان لم أشارك في مواجهاتها على دوار الشهداء في مركز المدينة تضامنًا مني مع أبي! ولكن لم يطل هذا التضامن! في الجمعة الثالثة بعد جمعة الاحتجاز الأولى لي خرجت للمشاركة في المواجهة الملتهبة على دوار الشهداء ومقلاعي يختبئ في جيبي، حجارتي في يدي، وهذه المرة وقايةً من أي مصورٍ جديد استخدمت قطعة قماش كلثام أخفي به تفاصيل وجهي من أي وشاةٍ أو عدسة كاميرا. بدأت المواجهة تحتد من ساعة لساعة، لم يهدأ بي نفس التحدي، منتهى لذتي يقضي بأن أعوض ما فاتني في استراحة المقاتل التي أجبرت عليها، قنابل الغاز المسيل للدموع تتكاثف لتغطي بسحبها البيضاء مناطق المواجهة، أحد الفتية بدأ بتوزيع رؤوس من البصل على راشقي الحجارة، كانت تلك وسيلة ناجحة لتخفيف أعراض الاختناق الذي أصاب كثر نتيجة الغاز الكثيف. استمرار رشقنا للحجارة تجاه جنود الاحتلال استفز بنادقهم لإطلاق الرصاص المغلف بالمطاط وبشكل عشوائي، كان لي نصيبٌ في إحدى الطلقات وهذه المرة في الرأس، لم تحدث تلك الطلقة جرحًا عميقًا بي، ولكن بفعلها جرح رأسي وأخرج ذلك الجرح ما أخرج من دمٍ ووجع، تم اقتيادي إلى المستشفى الإنجيلي بواسطة سيارة خاصة، وهناك تم تعقيم الجرح وتقطيبه، وبعد خروجي من المستشفى توجهت إلى المخيم، وقبل الوصول إلى بيتنا ذهبت لمنزل رفيقي مراد وطلبت منه أن يعيرني لباسًا من ألبسته فملابسي قد امتلأت بالدم. صعد بي مراد إلى سطح منزله وجاء لي

باللباس الذي طلبت، وخلال استبدالي له ذهب وتفقد مقتنيات أشقائه عن قبعة أغطي بها لفاف الجرح حتى يندمل ورجع لي بواحدة، وكنت حريصًا أكثر من أي مرة بأن يبقى الأمر سرًا عن والدي. ذلك كان شأن اللباس المستعار، خرجت من منزل مراد إلى منزلنا وقد أزلت كل أثرٍ قد يوحي بمشاركتي في المواجهة، وتوجهت إلى غرفتي بهدوءٍ وسلاسة وهناك استبدلت ملابس مراد بملابس لي والقبعة على حالها، رميتُ نفسي على الفراش، وغبت بنومي عن كل شيء قد يدور حولي.

لم يبت الأمر طويلًا دون علم والدي بالحادثة، فهناك من وشى بي له ممن رآني في المستشفى، ولكن كان الجرح على وشك أن يتشافى، فأيامٌ ثلاثة كفلت له أن ينقبض، أتى أبي هذه المرة، وبدا أنه سيصب جام غضبه عليَّ، بصراخ يسبق قدميه إلى حيثما أنا: "وينه ابن العرص؟ بدو يخرب بيتي، بدو يهد الدار، إمفكر فش عندي غيره، وينه؟" أمي تحاول السيطرة عليه بكلماتها العفوية: "شو في يا ابن الحلال وحد الله، إشي وصار، إشي وصار" رغم أنها لا تعرف شيئًا عن الواقعة إلا أنها لهجت بجملة "إشي وصار"، محاولة رد والدي عن ضربي ما إن وصلني والدي حتى كانت أمي الفاصل بيننا، لكن حزام بنطاله كان أسرع إلى جسدي من يديه، ولكن رغم غضبه الشديد حينها إلا أنه كان يخشى أن يصل طرف حزامه إلى موضع الإصابة فكل اللسعات كانت تقتض من يدي وقدمي، ذاك العقاب لم يكن لينتهي لولا تمثيلي بأن إحدى اللسعات قد مست إصابتي عندها قال لأمي: "روحي شوفيه، يمكن ضربته ع الإصابة"، هرعت إليّ أمي وبدأت تقبل جرحي، خرج والدي بآهاته وحزنه مني لم يكن بأقل من حزنه علي، ما

إن هدأت زوايا البيت إلا أن طلبني لمقابلته، أعاد علي معاتبة كانت بلهجة أشد من سابقتها، في مضمونها أنك ما زلت صغيرًا على خوض هذه التجارب وأن ضريبة ما تفعل لن تدفعها وحدك وأنني أعاتبك وأضربك حبًا لك لا كرهًا!

اعتذرت منه على ما كان مني وعلى عدم التزامي بتعليماته وعدت مجددًا إلى غرفتي إلى الفراش!

أيامٌ قلائل واصطحبني والدي إلى مستوصف قريب لحل العقد التي خاطها الأطباء في رأسي، وقام باصطحابي إلى أحد محال الحلوى واشترى لي بعضًا منها، ومن ثم أعادني إلى البيت. كنت أخشى دائمًا على والدي ومنه، ولكن خشيتي تلك كانت أقل بكثير من حبي لمواصلة الاشتباك، لم أشارك البتة في المواجهات التي تندلع عادة في حارة الشيخ مسلم في البلدة القديمة بنابلس، ولذلك كنت أترصد بعد معافاتي الأيام التي تشب فيها المواجهات هناك، حددت يومًا للخروج إليها وإليها وصلت، كانت المواجهة قد بدأت مبكرًا ومع ذلك سرعان ما تقدمت الصفوف الأولى في إلقاء الحجارة، بعد ساعات من استمرار المواجهات مرَّ من قربنا شبانٌ يلبسون ثيابًا متسخة بالطلاء وكأنهم بعض المارة من العمال، وما إن وصلوا لمحاذاتنا حتى انقضوا علينا كالكلاب تتداعى إلى قصعتها، أخرجوا مسدساتهم وأطلقوا النار في الهواء لإبعاد من فكر في إمكانية نزعنا من مخالبهم، كان عددهم ضعف عدد من وقعوا في الكمين منا، هم ستة ونحن ثلاثة، ما إن فرّ الفتية حتى أسرع الجنود لمساندة أصحابهم، فعمال الطلاء أولئك لم يكونوا إلا جنودًا صهاينة من وحدات المستعربين، لقد صبغت

أجسادنا بمقاسات أحذيتهم العسكرية، حملونا إلى جيباتهم بعدما قيدونا وعصبوا أعيننا وانطلقوا بنا إلى سجن نابلس المركزي، خلال الطريق كانت الأحذية العسكرية على معاملتهم مع أجسادنا تمنعنا عن الصراخ، كان يزيد من الوجع الذي نتجرعه بدعسات أقدامهم، وصلنا السجن المنشود، وهناك تم تفريقنا كلٌ إلى جهة مستقلة، تم وضعي مقيدًا ومعصوبًا في أحد المكاتب إلى أن أتى إليَّ أحد الضباط، وبدأ التحقيق معي بعد أن فك عصاب عيني، ترهيب لفظي بأقسى أنواعه، لطماتٌ على الخدين ليست بأقل أثرًا من أحذية الجنود، كان على طاولته منشار خشب يدوي حمله بيده ووضعه على يدي، وقال لي بعجرفة وصراخ: "أقص إيدك؟". أزاح ذاك المنشار عن يدي، انتهى من أسئلته الساذجة واكتفى بإجاباتي النموذجية، خرج من المكتب بعد أن رد على عيني عصابها، دقائق قليلة دخل ضابط آخر أوقفني وقام بإجباري لخلع ملابسي بعد فكه لوثاقي والعصاب، بدأ يتفقد جسدي وكم الكدمات فيه، ثم أخذ نسخة من بصمات يدي، وأمرني باللباس واقتادني إلى ممر يحتوي بابين لغرفتين متقابلتين بناؤهما غير مؤهل لأن تكونا غرفتي سجن، ولكن على ما يبدو أنهما غرفتان للموقوفين الذين لا تطول إقامتهم ويتم ترحيلهم إلى السجن الفعلي أو الإفراج عنهم.

دخلت أجر أوجاعي معي لإحدى الغرفتين، وكان في الغرفة المجاورة أناس يكبرونني سنًا وكنت أنا في هذه الغرفة لوحدي، ولكن أنسي في وحشة هذه الغرفة ندائي المتكرر على القابعين في الغرفة التوأم قربي، مكثت في هذه الغرفة ستة أيام متواصلة. كانت رداءة الطعام المقدم لي لا تساعدني على أن أختم بها جوعي، ومع ذلك استحسن بعض البعض

منها، مرت الأيام الستة وبدأت أولى ركعاتي في الصلاة، وكان مشايخي في هذه الرحلة في الغرفة الأخرى أجهلهم ولا أعلم أيًا منهم، كنت أسأل والمفتي يجيب، ستة أيام كانت أولى خطواتي نحو الالتزام الذي لم يكن كما يجب أن يكون. عصرًا في اليوم السابع فتح باب الغرفة التي احتضنتني، طلب مني أحد الجنود للحاق به، وبعدما قيد يدي أدخلني سيارة شرطة اتجهت مع سائقها ومرافقيه إلى مركز الشرطة الصهيونية في مركز المدينة، وهناك كان بانتظاري أبي، دخلت بصحبته وأحد رجال الشرطة الصهيونية إلى مكتب أحد الضباط، بدأ والدي بالتوقيع على عدة أوراق بعد أن كان قد سلمهم مبلغ ألف شيقل هي غرامة مالية قضى الآمر أن يدفعها والدي مقابل حريتي!

قبل أن يعطي الضابط الأمر للشرطي بحل وثاقي وتسليمي لوالدي قال بلهجة فوقية وبعربية متكسرة: "لولا أننا سوف نسحب قريبًا من المدينة لكنا قد أطلنا مدة اعتقال ولدك لدينا".

خرجت مع والدي من مركز الشرطة بعد أن استلمني رسميًا وجردوني من كل ما منحوني اياه من عصاب عينين ووثاق كفين، لم يتكلم والدي معي ولم يعاتب ولم يصرح بشيء سوى كلمتين خفيفتين خرجتا ولم يتكررا: "عاجبك هيك؟".

وصلنا البيت وإذا بالحضن الدافئ الحنون يغمرني كأنني أرض تشققت بفعل الجفاف وفتحت السماء بمائها لديّ، في حضن أمي!

مرة أخرى أحاول فيها إقناع نفسي بالاكتفاء تقديرًا لمعاناة أهلي،

ولكن كل المحاولات تبوء بالفشل، الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما وما بينهما كان أيامًا معدودة حتى أتت أول الجمع بعيد ارتياحي من ذاك الاعتقال البغيض. انطلقت إلى موقع المواجهة في حارة الشيخ مسلم، وعاهدت نفسي أن أشارك في تلك المواجهة فقط بعيني ولساني، ولم أصطحب معي هذه المرة مقلاعي، وخلال تجمع الفتية بعيد انتهاء صلاة الجمعة لاقيت أحد الشبان الذين كنت قد قدمت له ذات يوم بعض ما غنمت أنا ومراد من رصاص المعسكر الذي اقتحمنا يومًا ما. إنه شابٌّ بمقتبل عمره يدعى "نشأت هيرون"، يزيد عن عمري سنين قلائل، كان قد علم بخبر اعتقالي. هرول إليَّ مهنئًا بسلامتي، وتندر عليّ بقوله: "شو إلي جابك، ما تربيت؟!".

اتخذ الفتية والشبان مسيرهم تجاه نقطة الاشتباك في الحارة وبدأت المواجهات، كانت كلمات نشأت تلك كافية لاستفزازي ونقض عهدي بنفسي، غطيت وجهي أو نصفه بقطعة قماشٍ نزعتها من ملابسي تحت القميص، وحملت كنظرائي الحجارة وخطوت ككبيرهم وصغيرهم لإلقائها تجاه جنود الاحتلال، مرت الدقائق الأولى كما أريد وحسبنا ما تجرعنا من الغاز المسيل للدموع، ولكن سرعان ما بدأ إطلاق الرصاص المطاطي علينا، وبعد ساعة تقريبًا أوقف إطلاق أي شيء من العدو الصهيوني. لم نتوقف عن رشق الحجارة من جانبنا رغم التوقف في الجهة المقابلة، كنا نجهل سبب كتم غيظهم هذا، تفاجأنا بأن وحدة من المستعربين كانت قد اخترقت صفوفنا وبدؤوا إطلاق النار في الهواء وبالعشواء، فررت من المكان بسرعة ليست بأقل من تلك الطلقات، واتخذت مقرًا لي أراقب به

أرض المعركـة دون أن يلمحني أحـد، ولكنـي لمحـت شـيئا ليتنـي لم ألمحـه! شـاب ملقـى على بطنـه يزحـف ببطء وخيـوط الـدم ترتسـم خلفـة، انتبـه إليـه أحـد الجنـود المسـتعربين، ومـا إن رفـع ذلـك الشـاب يـده مشيرًا للجنـدي المستعرب بإشـارات يفهمهـا الجاهـل قبـل العاقـل مفادهـا: "لا تطلـق النـار"، ذاك المسـتعرب الحاقـد لم يأبـه لتلـك الإشـارات، وأرسـل رصاصـات حقـده لجسـد الشـاب، وبتلـك الرصاصـات أنهـى وجعـه وأوقـف زحفـه.

بعـد أن انفـض طرفـا المواجهـة، واعتقـل مـن اعتقـل، وسـيق مـن أصيب إلى المستشـفيات، تبـين لي بعيـد عودتي للمخيم أن ذاك الشـاب الذي استشـهد ما هو إلا "نشـأت هيرون". صعقني ذاك النبأ، شـاركت في مسيرة التشـييع الخاصة بالشـهيد الأول الـذي شـاركني أولى مراحـل ثـورتي الخاصـة وانضممـت إلى مراسـم الدفـن خاصتـه، علمـت مكان القبر وعاهدت صاحبـه بتكـرار الزيارة!

أمـواج القصـاص تـضرب شـاطئي، كنـت مـا أبـرح المشـاركة في مظاهـرة مـا حتـى أبـدأ انخراطـي في مواجهـة جديـدة، أتفقـد أفـواه النـاس إن تحدثـت عـن نقـاط اشـتباكٍ جديـدة. ذات مـرة خرجـت لشـارع حطـين وهـو أحـد الشـوارع المؤديـة إلى البلـدة القديمـة مـن مركـز المدينـة، هنـاك كان تجمـع الشـبان، اصطحبـت هـذه المرة مقلاعـي معـي وغطيـت وجهـي باللثـام! كانـت المواجهـة عـلى حـال سـابقاتها مذبذبـة في حدتهـا، لجـأ إليّ أحـد الفتيـة المألـوف وجهـه لـدي، انزوينـا إلى نقطـة لا يصلنـا فيهـا توتـر المواجهـة، أشـار بإصبعه على شـخصين أخـبرني بأنـه يشـك باحتماليـة أن يكونـا جنـود احتـلال مسـتعربين، وطلـب مني أن أسـتخدم مقلاعـي لكشـف أمرهمـا، وكذلـك فعلنـا، صوبـت مقلاعـي تجـاه واحـد مـن أولئـك المشـكوك بأمرهـم والهـدف قدمـه ونبـلي هـذه

المرة كرة زجاجٍ بلورية صغيرة، في ظني أنه إن كان من راشقي الحجارة فسيسامحنا وسيعتبر الإصابة ناتجة عن نيران صديقة، أما إذا كان من المستعربين فالإصابة التي ستكون من مقلاعي ستكشف أمره ومن معه، وبذلك نتجنب ونجنب رماة الحجارة مصيبة الاعتقال، أطلقت نبلي تجاه الهدف وبلغ مبلغ ما أريد، ما إن وضع يده موضع الإصابة حتى أخرج بيده الأخرى مسدسًا أخفاه تحت قميصه، وكذلك فعل الآخر وبمجرد أن أطلقا من مسدسيهما الرصاصات الأولى خرج من بين الفتية والشبان خمسة من حاملي المسدسات وحذوا حذوَّ الأولين، لقد قُطِعَ الشك باليقين، جزم ما كان بخاطر ذاك الفتى "صاحب الشك".

أحدثت تلك الطلقات وأصحابها فوضى عارمة في ميداننا، فالحجارة التي كانت تتوجه للجهة المقابلة لنا صارت تستقر بيننا وعلينا، قام المستعربون السبعة باختطاف أحد الفتية واستخدموه كدرع بشري واصطحبوه إلى أحد المحال التجارية المنتشرة على رصيف الشارع (حلويات العكر)، هناك بدأت الاتصال _على ما بدا لنا_ بين المستعربين وقوات الاحتلال، فقد حاصرنا تواجدهم داخل المحل وحجارتنا تنهمر كالمطر فوق رؤوسهم والحلويات، خلال وقت لاحق اقتحمت جيبات عسكرية صهيونية تجمع المُحاصِرين لحلويات العكر، وأخرجت المستعربين المحاصرين فيها، ولم تشفع للدرع البشري حجارتنا التي كان له نصيب الأسد منها فاقتادوه معهم معتقلًا.

بين هذه المواجهات؛ وفي ظل هذه الأحداث كان يدخل تطور نوعي في أداء المقاومة الفلسطينية المسلحة التي وإن انقسم أصحابها بين مؤيدٍ

ومعارض لاتفاق أوسلو، كان ذاك التطور يعود إلى إدخال الحزام الناسف ضمن الأسلحة التي تمتلكها المقاومة والذي كان في صفوفها الأولى في ذاك الوقت حركتا الجهاد الإسلامي وحماس، وما كان تقدمهما لهذه الصفوف وفي السرعة لولا ركون حركة فتح وأحزاب اليسار لفرضيات الحل السلمي الذي جاءت بها منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت الأخبار تأتينا من الكيان الصهيوني من خلال إذاعة "صوت إسرائيل" الناطقة بالعربية والقناة الأولى "الإسرائيلية" التي تخصص سويعات قليلة للمشاهد العربي. كنا نتلقف أخبار عمليات المقاومة "الانتحارية" حسبما كان يصفها إعلام الاحتلال، وكان عامة الناس ينظرون لهذه العمليات باعتبارها مبعث فخر واعتزاز لنا كفلسطينيين، الآن نحس بأننا حققنا رغم قلة الإمكان شيئًا من توازن الرعب مع ذاك الخصم الذي سخر كل إمكانيات الدولة لخدمة أمنه وتحقيق استقرار كيانه الذي يزعم.

كانت العمليات التفجيرية التي يقوم بها لابسو الأحزمة الناسفة تتوالى من دون إنذار مسبق، وكان الآذن بتكثيفها مجزرة الحرم الإبراهيمي، وما زال عالقًا في ذهني العمليات الانتقامية التي ثأرت بها المقاومة لشهداء المرحلة تلك، وخصوصًا من ارتقوا برصاص المجرم الصهيوني غولد شتاين. عملية رائد زكارنة في الخضيرة بالداخل المحتل، فجّر رائد حزامه الناسف في تجمع لجنود الاحتلال، تبعها عملية صالح صوي الذي فجّر نفسه في شارع "ديزنكوف" في "تل أبيب" العاصمة السياسية لكيان الاحتلال، وكلا العمليتين تبنتهما حركة حماس، وبدأ على إثرهما يتردد على الأسماع اسم المدبر لهاتين العمليتين (يحيى عياش) وباسم مستعار أطلقه عليه الشاباك

الصهيوني (المهندس). تبع تلكما العمليتان عملية بيت ليد المزدوجة نفذها استشهاديان من حركة الجهاد الإسلامي (أنور سكر وصلاح شاكر)، كان حصيلة انفجارهما عدد لا يقل عن عشرين مجندًا ومجندة من صفوف ما يسمى بـ"جيش الدفاع الإسرائيلي".

تلك العملية التي كانت فاتحة للعام 1995م مزلزلة للكيان الصهيوني، كانت بمثابة انتصارٍ لدماء الشهداء الذين ارتقوا على امتداد فلسطين التاريخية.

كانت تلك العمليات منغصًا لكل داعٍ للحل السلمي؛ لذلك لم يألُ جهدًا أصحاب هذا الحل في ملاحقة كل من يُشَك في علاقته بالضلوع بمثل هكذا عمليات، لكن سطوة دعاة السِلم لم تكن قد وصلت لمحافظة نابلس بعد؛ لذلك استمر الحال في نابلس على ما هو عليه: مظاهرات ومواجهات تتوزع في كل زمانٍ ومكان في مخيماتها وقراها وأحيائها، وما زلتُ أنا أيضًا على حالي أتنقل بين كل مظاهرة إن لم يشغلني عنها مواجهة، وبين كل مواجهة إن لم يشغلني عنها مظاهرة.

مرت أشهر وأهل نابلس ينتظرون في كل يوم انسحاب الاحتلال من مدينتهم، فحتى المتابعون عن قرب للعملية السياسية في المنطقة يجهلون تاريخًا فعليًا للانسحاب من المدينة وتسليمها للقوات الفلسطينية التي دخل عددٌ منها لمدن انسحب الاحتلال منها من قبل.

5

أحد أيام السبت في نهاية شهر أكتوبر (تشرين أول) من العام 1995م ورد في النشرات الإخبارية صباحًا نبأ مفاده اغتيال مؤسس حركة الجهاد الإسلامي خلال تواجده في جزيرة مالطا، كان الخبر متأخرًا عن عملية الإعدام بدم بارد بحق الدكتور فتحي الشقاقي، فعملية الاغتيال كانت قد تمت مساء يوم الخميس والخبر وصل الصحف والإعلام يوم السبت!

تصاعدت الأحداث على امتداد الأرض المحتلة بعيد انتشار نبأ اغتيال الدكتور فتحي الشقاقي وما كان قبله وبعده من عمليات قتل واعتقال ودهم وهدم نفذها جنود الاحتلال ومستوطنيه.

في العاشر من ديسمبر (كانون أول) من العام نفسه وعبر مكبرات الصوت المثبتة أعلى مآذن المساجد كانت تتعالى شعارات مفادها أن المدينة أمست حرة، وأن الاحتلال اندحر من دون رجعة، انطلق الأهالي رجالًا ونساءً شيبًا وشبانًا للتأكد من حقيقة ما يسمعون، الجميع يتوجه إلى المقرات المخلاة ومقصد الغالبية إلى مبنى "المقاطعة" حيث كان سجن نابلس المركزي، وبدأت تتوافد إلى تلك المقرات القوات الفلسطينية أو قوات السلطة الوطنية الفلسطينية التي مجمل ضباطها وأصحاب الرتب كلهم من الذين قاتلوا قبل "اجتياح بيروت".

بات الناس تلك الليلة مطمئنين إلى أن قوات الاحتلال لن تهتك أستارهم بغية قتلٍ أو اعتقالٍ أو تعذيب، باتوا ولم يتصوروا أن المرحلة القادمة ستشهد خصمًا جديدًا لحلمٍ بتحقيق الحرية التي يتمنون، وأن الذي بينهم وبين القادم الجديد (السلطة الفلسطينية) لم يكن إلا شهر عسلٍ سرعان ما تنقضي أيامه!

بدأت الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية حملات اعتقالات لكل معارضٍ يروج معارضته للحل السلمي الذي جاءت بموجبة السلطة الفلسطينية وقواتها، وكان غالبية المعتقلين ممن ينتمون لحركتي الجهاد الإسلامي وحماس ومستقلين أو منتمين لفصائل منظمة التحرير، ولكنهم معارضون في تلك المرحلة لمشروع السلطة التي ولدت من اتفاقيتها!

كان شيء من التذمر ينتابني كوني لم أحظَ بمحاولة ناجحة لتصنيع المولوتوف بعد، ففئران التجارب فرت لجحورها وهي الآن في نقاطٍ بعيدة

لا تستطيع قدماي الوصول إليها. لم يطل هذا التذمر، فسريعًا تكشف للعيان أن نابلس ما زالت معرضة لاقتحامات من قبل قوات الاحتلال ومستوطنيه، وأن الاتفاقيات المبرمة بين شركاء السلم تقضي بأن تقوم قوات مشتركة لحراسة أماكن العبادة اليهودية في المناطق التي سلّمت للجانب الفلسطيني والذي يمثله "السلطة الفلسطينية".

كان من حُصة نابلس من هذه الأماكن ما يعتقد عند اليهود بأنه قبرٌ للنبي يوسف _عليه السلام_، ورغم نفي روايتهم تاريخيًا إلا أن تعاملهم مع هذا المكان بكل هذه القدسية أدخل إلى أنفس الكثيرين شكًا بأن يكون هذا المكان هو فعلًا قبر يوسف الصديق _عليه السلام_، ما إن انقضت أيام على الانسحاب من نابلس حتى تم تطبيق الاتفاق القاضي بأن يقوم بحراسة القبر قوات صهيونية وقوة من السلطة الفلسطينية، ولم يرق لكثيرين ممن هم في عمري وحماسي هذا المنظر، وكنا نحاول قدر المستطاع غض بصرنا عن تلك المنطقة ولو قليلًا، خشيتنا دائمًا اتقاء أن نلقي حجارتنا تجاه أبناء جلدتنا، وإن بدل بعضهم جلودهم!

في ذاك الوقت كان نجم المهندس يحيى عياش يزداد بريقًا يومًا بعد يوم، كان يصفهُ الإعلام الصهيوني بأنه "رجلٌ يُحسن التخفي، ويستطيع تسيير عزرائيل لقبض من يشاء من جنود الاحتلال وضباطه"، كاد صيته أن يصل إلى الحد الذي قد يرسخ في عقول عامة الصهاينة أن عياشًا هذا رجلٌ خارق لا تقل قواه عن سوبر مان وبات مان!

بـدأت تدخـل في نفـسي القـدوة الحيـة التـي أبصرتهـا في ذاك الخـارق، يحيى عياش، إنـه مثلي الأعلى، أما سوبر مـان وبـات مـان أولئك لم أعرهم أي اهتمام. بـدأت قوافـل المستوطنين تدخـل شرق نابلس بشكل يومـي متجهة إلى قـبر النبي يوسـف، والحجة تأدية طقـوس دينيـة للمستوطنين الذيـن غالبًـا مـا يكونـون مـن أصحـاب التطرف الشـديد.

كل قافلـة تدخـل المدينـة تكـون عـلى ترتيـبٍ ثابـت، جيـب عسـكري لقـواتٍ فلسـطينية في المقدمـة ومـن ثـم حافلـة يسـتقلها المسـتوطنون وفي مؤخرة القافلـة يكـون الجيـب العسـكري الصهيـوني، وبذلـك يكـون التأمـين عـلى الحافلـة شأنٌ يتقاسـمه الجانبـان! أمـا المكان المقدس فعلى الـدوام يتواجـد فيـه جنـود صهاينـة يمنعـون أي شـخص عـربي مـن الدخـول إليـه!

"إجـت والله جابهـا"، فـأر التجـارب هـذه المـرة لم يكـن لوحـده إنـما جـاء يسـبقه "عِرْسـة كبـيرة"، ذهبـت إلى البيـت أخرجـت مـا كنـت قـد ادخـرت مـن نقـود مـن مكـانٍ قمـت بجمعهـا فيـه، حملـت معـي قـارورة بلاسـتيكية واتجهـت سـيرًا عـلى الأقـدام أقطـع أكثـر مـن عـدة كيلومـترات إلى أن وصلـت محطـةً لبيـع الوقـود، وطلبـت مـن أحـد العاملـين فيهـا مـلء القـارورة بالبنزيـن إلى الحـد الـذي يعـادل مـا أعطيتـه مـن نقـود، وكان سـخيًا معـي فقـد عبأهـا كلهـا، عـدت أحمـلُ تلـك القـارورة ووجهتـي مباشرة إلى السـطح، وبعـد أن خبـأت قـارورة البنزيـن في إحـدى زوايـا السـطح خرجـت لجلـب قواريـر زجاجيـة مـن مهمـلات أحـد محـال البقالـة القريبـة مـن مـكان سـكناي، وفقـت إلى مـا ذهبـت إليـه، وعـدت إلى البيـت وقبـل صعـودي إلى السـطح فتشـت في سـلة الغسـيل عـن قماشـة يمكـن أن تسـتخدم كفتيـل ووجـدت مـا أريـد، وإلى السـطح صعـدت وبـدأت عمليـة

الدمج بين العناصر التي أخرجت منها ثلاث زجاجات حارقة بجودة جهنمية، كنت قد اخترت يوم السبت الذي ينشط دخولهم فيه إلى قبر يوسف. توجهت إلى منطقة لأعاين مكانًا يصلح لأن أتخذه مكمنًا لي، هناك كانت إحدى البنايات التي لا تبعد عن مفرق الطرق الذي يقع على أحد طرفيه "مطعم الغاوي"، وكانت تلك البناية على رصيف أحد شقوق ذاك المفترق والذي يمتد لشارع عمان الذي يتفرع منه شارع آخر يوصل راكبه إلى قبر يوسف، اعتليت سطح تلك البناية ومرت الساعة تلو الساعة أنتظر صيدي، غفت عيني تحت واحدٍ من خزانات المياه هناك، استيقظت بعد غفوة لم تدم طويلًا عاودت رصدي للهدف، بدأ الملل يتسلل لصدري وما إن بلغ مبلغه مني حتى لمحت الجيب الأول من بعيد، دَب فيَّ النشاط سريعًا، بدأت أجهز نفسي، هذه المرة لم أحمل معي أعواد ثقاب، بل إنني سرقت "ولاعة" المطبخ، جهزت الزجاجات الثلاث للإلقاء، أشعلت فتيلاتها وما إن اجتازني الجيب العسكري التابع للسلطة حتى رميت "المولوتوف" الأولى والثانية من نصيب الحافلة والثالثة قرت على إحدى الإطارات للجيب العسكري الصهيوني.

كانت تلك الزجاجات مصدرًا أذاع الرعب في أوساط الركاب حتى خرج سائقا الحافلة والجيب الصهيوني عن السيطرة، وتوجها بمقوديهما إلى شوارع غير تلك التي كانا قد سلكاها، توقفت الحافلة والجيب الصهيوني، واطمأن ركابها إلى أن النيران لم تؤثر على سلامة مركبتيهما.

تولى الجيب العسكري الفلسطيني مهمة البحث عن مصدر رمي تلك الزجاجات، كنت قد فررتُ عن السطح الذي كنت عليه، وانسجمت

مع جمع من الناس كانوا يراقبون الحادث، أجبر ذاك الكمين طرفي "الحل السلمي" بزيادة عدد الجيبات التي ترافق أي حافلة يهدف ركابها للتعبد في قبر يوسف، وكان نجاحي في إنتاج المولوتوف هذه المرة دافعًا لي للبحث عن جديد.

بعيد أيام كنت قد أصخت السمع بين اثنين من نشطاء المقاومة وهما يتحدثان في ما بينهما وأنا ثالثهم لم يعيرا صغر سني أي اهتمام لذلك أبقيا على حديثهما كما هو كان يتحدثان عن المقاومة والواقع واعتقالات السلطة لرفاقٍ لهم، إلى أن جاء لذتي في ذاك الحديث. تحدثا عن كيفية صناعة قنبلة صوتية، سجلت كل حرفٍ من هذا الجزء في عقلي وفررت قبل نسيانه إلى التطبيق، انزويت في مقبرة المخيم التي كانت تخلو عادة إلا من أصحاب القبور، أحضرت معي ما يلزم لإتمام التجربة: رصاصة استخرجت ما بها من بارود ومن ثم وضعته في قارورة بلاستيكية وأشعلت عقب سيجارة، أدخلت عقب السيجارة المشعل في القارورة وبسرعة غطيت القارورة ورميتها بأقوى ما لدي، دوى صوتٌ عالٍ جدًا في السماء سعدت جدًا بالنتيجة، صرت أرقص فرحًا بين الأموات، خرجت من المقبرة إلى البيت، وهناك بدأت التخطيطات لاستخدام هذا السلاح في الكمين القادم.

خلال تجوالي في المناطق المحيطة بالمخيم وبالقرب من مصنع البلاط استوقفني كيس مدسوس بين ألواح البلاط، سحبته بشيء من الصعوبة وإذا داخله سلاح شعبي كان يدعى حينها "ماسورة" أو "دفاش" وإلى جانب ذلك "الدفاش" هناك خمس رصاصات، كنت أعي أنه قد يكون لشخص عابث مثلي، ولكنني طمعت فيه وأخذته إلى زاوية أخرى لأخبئه

فيها، ثلاثة أيام على مغادرتي "للدفاش" الذي أصبح خاصتي ذهبت إليه ووجدته على حاله، حملت الكيس وما حوى وخرجت إلى السهل القريب من المخيم، تدربت على إطلاق النار فيه، أطلقت بالهواء وتجاه الصخور أربع طلقات وتبقى رصاصة واحدة ستكون ذخيرتي الحية للكمين القادم، مساء اليوم التالي وبعد غياب الشمس ذهبت إلى تل يقابل قبر يوسف، صوبت سلاحي تجاه الجنود الذين بانت تحركاتهم من مكان رباطي، وما أن أذن القدر حتى أطلقت رصاصتي اليتيمة.

عدت إلى قاعدتي بسلام ورغم ما أحدثته تلك الرصاصة من ذعرٍ وهلع حينها إلا أن السلاح الذي استخدم في إطلاقها لم يكن ذا كفاءة ولو مقبولة، وعادة ما كانت تصويباته تحيد عن الصواب!

تلة مخيم عسكر، منطقة ليست بعيدة عن مخيم بلاطة الذي أسكن، يشرفُ طرفٌ منها على شارع تستخدمه سيارات الاحتلال في تنقلاتها بين المستوطنات والمعسكرات المقامة على أطراف المدن في الضفة الغربية والأراضي المحتلة عام 1948م، هناك كانت فرصة جيدة لتثبيت ما تعلمت في الفترة السابقة كلما سمحت الفرصة بذلك، إلقاء الحجارة، استخدام المقلاع، المولوتوف، وأخيرًا قنبلة الصوت، أما الدفاش فقد أقلعت عن استخدامه، كنت إذا ذهبت إلى تلة عسكر يتداعى إليّ بعض من هم في عمري يطلبون إما تعليمهم أو إقراضهم مما أعطاني الله، وعادة ما أردهم خائبين؛ لأنني لا أستطيع تلبية كل أمرٍ كهذا وليس في ذات يدي على الدوام.

هناك خطرت ببالي فكرة لم أنتظر طويلًا حتى نفذتها. كنت أضع صخرة صغيرة في صندوق كرتوني ومن ثم في كيس أسود وألصقه بإحكام بطريقة تجعله مثيرًا للشك، أحمل ما أنتجت وأضعه وسط الشارع وما إن يلمحه أحد سائقي السيارات الصهيونية إلا وينتابه القلق والذعر جراء ما رأى، تتوقف سيارته ويبدأ اتصالاته وتأتي الجيبات العسكرية ويخرج خبراء المتفجرات لتفكيك الجسم المشبوه الذي ما هو إلا صندوق كرتوني فارغ إلا من صخرة صغيرة تمنع الريح من تحريكه، كان ذاك المشهد يجعلني أعي تماما أننا أمام خصم رغم كل إمكانياته إلا أن الجُبن يفقده هيبة الإمكان!

كررت تلك المسرحية الهزيلة كثيرًا، كانت تهدر وقت المستوطنين وتكلف قواتهم مبالغ ليست بقليلة، وكان من هم في جهتي ينظرون هازئين بما يجري على الشارع.

افتتح العام 1996م وما أن بدأ بعد أيامه حتى جاء الخبر كالصاعقة على رؤوس عامة الشعب الفلسطيني، تم اغتيال المهندس، يحيى عياش (ملك الموت) كما وصفه أحد الإعلاميين الصهاينة، الآن ميت! ولكن ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: 154]. صدمني ذاك الخبر الذي كنت لا أطيق من أحد أن يكرره على مسمعي، ولكن الله قدّر ما كان، سنة تطيرتُ بأن تحوي شيئًا جميلًا في أيامها المقبلة، وكما يقال" المكتوب إمبين من عنوانه".

خلال دراستي الإعدادية في مدرسة الغوث في المخيم، لم أكن طالبًا ذا تحصيل علمي متدنٍ، بل على العكس كانت أقل درجاتي تقابل بتقدير جيد

جدًا، رغم كل ما كان مني من مشاكسات داخل الفصول الدراسية وخارجها!

كانت المناهج الدراسية التي بين أيدينا مناهج أردنية في غالبها، في آخر مرحلة دراسية يتلقاها المتعلم في مدارس الغوث في المخيم بإمكانه تحديد وجهته المستقبلية إما إلى سوق العمل أو إلى إكمال الدراسة، سوق العمل إما يخرج الطالب إلى عمل ما أو أن يتم نقل أوراقه إلى معهد تدريب مهني تابع أيضًا لوكالة الغوث، وهو مقام في قلنديا القريبة من رام الله، أما إكمال الدراسة فهناك ثلاث مراحل تعليمية يجب اجتيازها في المدارس التابعة للسلطة الفلسطينية، وبعدها يتمكن الطالب من الالتحاق بجامعة تتقبل النتيجة التي خرج بها!

في مدرسة الغوث كانت الأشهر القادمة موعدًا لابد منه لانفصال ما بيننا، والآن أمسى عليَّ تحديد الوجهة التي أرغب، كان توجهي دائمًا إلى الاستقلالية التي لن أجدها في بقائي بين أحضان المخيم، فحكم والدي لا فرار منه إلا الخروج خارج حدود حكمه، وهنا تعزز قرار اختيار المسار المهني على حساب المسار الأكاديمي الذي ينتهي بسالكه نحو الجامعة.

كان يتعزز ذاك الخيار بشكل تصاعدي يومًا بعد يوم، وما أن أعلنت قراري في اختياري حتى بدأت المطالبات لي بالعدول عنه، الأستاذ علي الصيرفي كان يقضي معي فترة الاستراحة كاملة لإقناعي بأن إكمالي للدراسة أمرٌ ليس بالصعب وأن المسير تجاه الجامعة هو الخيار السليم وأن التدريب المهني لا يجلب إلا المتاعب، جهد الأستاذ علي على مر الأيام بمحاولة إقناعي بما يرى وبإيعاز من والدي، لكن قراري ظل على ما هو

عليه حتى استسلم الأستاذ علي لذلك القرار. قامت إدارة المدرسة بإرسال أوراقي لجهة مسئولة في وكالة الغوث تعنى بنقل الطلبة الراغبين بالالتحاق بصفوف التدريب المهني إلى معهد قلنديا. في ذلك الوقت كانت العمليات الاستشهادية على حالها رغم استشهاد الشقاقي وعياش، وكانت من أكبر العمليات التي جاءت ثأرًا لهما عملية "ديزنكوف" التي كانت في الرابع من مارس (آذار) من العام 1996م والتي نفذها الاستشهادي رامز عبيد، وتبنت المسؤولية عنها حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، سبقها عمليتان تبنتهما حركة حماس نفذهما الشهيدان مجدي أبو وردة وإبراهيم السراحنة.

ما إن انتهت السنة الدراسية الأخيرة لي في مدرسة المخيم ومع بدء العطلة الصيفية أصبح واجبًا عليَّ الاستعداد لمشاق العمل الذي سأكون فيه قريبًا، وفي التدريب عليه قريبًا جدًا! بدأت العطلة الصيفية، وخرجت مع والدي أتعلم شيئًا من مهنته التي كانت شاقة إلى حد ما، مهنة السباكة (موسرجي)، تعرفت على العدد المستخدمة فيها، وبدأت أحسن استخدامها إلى الحد الذي يقل عن الإتقان بقليل، ومع انتهاء العطلة ودخول الدوام المدرسي أيامه الأولى وخلو الحارات في ساعات الصباح الأولى ممن هم في عمري. كان لزامًا عليّ أن أرافق زملاء الدراسة مدارسهم التي زهدت في الذهاب إليها، ففي تلك الأيام كنت متفرغًا أنتظر بدء افتتاح عامي التدريبي الأول في معهد قلنديا والذي عادة ما يتأخر عن بدء العام الدراسي أيامًا معدودة.

معظم خريجي مدرستنا في المخيم التحقوا بمدرسة قريبة من يشرف على إدارتها وزارة التربية والتعليم التابعة للسلطة الفلسطينية، كانت تلك

المدرسة تقع في بلدة بلاطة القريبة من المخيم والتي على أراضيها أقيم مخيمنا من قبل وكالة الغوث الدولية، كنت أقطع مع زملائي الطلبة قرابة الكيلو متر سيرًا للوصول إلى تلك المدرسة، وكضيف كان المعلمون يعاملونني في حصصهم الدراسية، وما إن قطعت مع أولئك الزملاء أيامهم الأولى في المدرسة حتى أعلن الإعلام الصهيوني افتتاح نفق يمتد تحت المسجد الأقصى المبارك وما إن انتشر ذاك الخبر بين عامة الشعب الفلسطيني حتى اندلعت المواجهات في كل نقاط الاحتكاك مع الاحتلال عسكريين ومستوطنين فيما يعرف بـ"هبة النفق" في العام 1996م. شاركت في عدة مواجهات جرت في الدائرة التي أنتقل فيها، ولكن المواجهات الأكبر كانت قد اندلعت في محيط قبر يوسف، وككرة ثلج صغيرة تنحدر من أعلى جبل بدأت المواجهات تكبر وتكبر إلى أن خرج من بين القوات التابعة للسلطة الفلسطينية من كان ولاؤهم لغيرها، فبدأت بأيديهم أولى الاشتباكات المسلحة مع جنود الاحتلال الصهاينة في محيط القبر، وما أن رأى أصحاب الحراسة المشتركة ممن انتدبتهم السلطة لمساندة الصهاينة في حراسة "المكان المقدس" حتى انسحبوا من أماكنهم، وبانسحابهم أوحي للجميع أن السلطة الفلسطينية رفعت الغطاء عن ذاك المكان بمن فيه من جنود عدو.

رغم الأحداث المتصاعدة في كل دقيقة إلا أن وكالة الغوث على ما هي عليه، وما زال العام الدراسي مستمرًا دون أي إضرابات، وخلال اليوم التالي على أولى أيام محاصرة الجنود الصهاينة في محيط قبر يوسف. بدأ العام التدريبي في معهد قلنديا، وبذلك كان لزامًا عليّ وعلى والدي الخروج معي لكي يسلمني لإدارة المعهد. أعددتُ حوائجي للسفر وخرجت مع والدي

إلى معهد قلنديا مستقلين إحدى السيارات الخاصة التي يستخدمها سائقها كسيارة أجرة، وكانت الحواجز على المداخل الرئيسية للمدن مغلقة بشكل شبه كلي؛ فلذلك اضطررنا لسلك طرق التفافية تزيد من طول الطريق، ورغم أننا خرجنا بعد الفجر مباشرة إلا أننا وصلنا أرض المعهد في قلنديا قبيل أذان المغرب، وهناك قام والدي بتسليمي للمشرف، وودعني وأوصاني بنفسي خيرًا، وعاد مع سائق السيارة إلى نابلس.

بدأت بصحبة ذاك المشرف الطيب بالتعرف على المكان حتى أنهى بي تلك الجولة الاستكشافية إلى غرفة كان قد سبقني إليها عدد ممن جاؤوا لنفس حاجتي، إنها غرفة المبيت المخصصة لعدد ليس بالقليل من الطلبة، وكان هناك مذياع في غرفتنا، وكنا نقلب بين إذاعاته التي لم تكد تتجاوز الثلاث _حسبما أذكر_ كانت الأنباء ترد تباعًا عبر تلك الإذاعات كلها تفيد بأن الاشتباكات المسلحة ما زالت مستمرة في محيط قبر يوسف والجنود الصهاينة على حالهم داخله، وهناك أنباء تفيد بمقتل عددٍ منهم، وأخبارٌ أخرى تفيدنا بأن عددًا من الشهداء زاد عن المائة والخمسين ارتقوا خلال المواجهات المشتعلة في أنحاء فلسطين، ورغم مسيرة التعب التي سلكتها في مشوار الوصول إلى قلنديا، لكن لهفتي لسماع أخبار المواجهات "طيّرت" من عيني النوم، وبقيت مع عدد من الشبان نتسامر ونتعارف والمذياع على حاله في إشعارنا بكل جديد، كانت كل حادثة تزيد من لهيب المواجهات وفي زيادة التزامي الديني الذي ما إن تبرد هي حتى يقل ذاك الالتزام، ومع دخول موعد صلاة الفجر حيز التنفيذ فإذا بي أدعو السُمّار للصلاة في جماعة، منهم من لبى الدعوى ومنهم من ذهب للنوم.

صباح ذاك اليوم تم توزيعنا حسب التخصصات التي نرغب، وقتها اخترت "التبريد والتكييف" تخصصًا أتدرب عليه. لم يكن دوام اليوم الأول طويلًا فقد كان بمجمله تعرفًا على قاعات التدريب وزملاء الاختصاص وعلومه.

بدأ النعاس زيارته لعيني، ومع انتهاء اليوم الأول في قاعات التدريب عدت إلى غرفة المبيت وألقيت جسدي على السرير خاصتي. ولم تمض إلا ثوانٍ قليلة حتى غرقت في نوم عميق! استيقظت الساعة العاشرة مساءً، كان هناك عدد من الزملاء سهارى على أنغام إحدى الأغاني الصادرة من المذياع، ذهبت إليهم بعد غسلٍ سريعٍ لأطرافي ووجهي وتجفيفي لهما، سألتهم عن آخر الأخبار فأجابني أحدهم: "الوضع على ما هو عليه"، هناك اتصالات تجري بخصوص الجنود الصهاينة المحاصرين في قبر يوسف، وأنباء عن ضغوط دولية لإنهاء التوتر في الأرض المحتلة!

رددت عليه بكلماتٍ عفوية: "يعني علشان في يهود محاصرين صار في ضغوط دولية، وإحنا كل يوم بنموت ما حدا حكيلنا وينكم!"

حوقل أحد الحاضرين بيننا، وأخبرني الأول أن الأمر جد لا يطاق، كان من منطقة جنين، وأخبرني أنه لو كان بمكان سكنه لشارك في كل مواجهة تندلع هناك.

في اليوم التالي وداخل قاعات التدريب تعرفت على واحد من المتدربين يسكن في مخيم قلنديا ويعود يوميًا إلى بيت أهله في المخيم؛ لأن مكان سكنه قريبٌ من المعهد. خلال أيام قليلة بدأت علاقتي مع

"المخيمجي" ابن قلنديا تزداد حتى طلبت منه أن يصحبني معه بعيد الدوام في نزهة تعريفية لمحيط المنطقة التي نحن فيها، وفعلًا فعل، ولم يكتفِ بتلك النزهة بل زادني في أن عرفني على كل المناطق التي يعرف منها نقاط المواجهات القريبة، وكان هناك نقطة قريبة جدًا من معهد قلنديا حيث تدريبنا المهني، إنه مطار وحاجز قلنديا الممر المباشر بين مدينتي القدس ورام الله، هناك كانت المواجهات بشكل يومي، وهنا كانت بوابة الرزق الذي أحب، إلى المواجهة إذن! ففي أحد الأيام شاركت مع عددٍ من متدربي المعهد بمسيرة انتهت بمواجهة مع الجنود المتمركزين على ذاك الحاجز، وفي دقائقها الأخيرة حظيت بإصابة برصاصةٍ مطاطية في قدمي، والحمد لله أنها كانت طفيفة، لكنها صبغت جلدي بدمغة زرقاء دامت طويلًا! بعيد أيام علمنا أن الأمور في نابلس عادت إلى ما كانت عليه وأن التوتر انخفض إلى الدرجة التي كانت عليها مناطق الاحتكاك قبل الإعلان عن النفق، تمت عدة لقاءات بين" السلطة الفلسطينية" وسلطة الاحتلال الصهيونية بوساطاتٍ دولية اتفق فيها الجانبان على ضرورة تطويق الأحداث، وبدأت الأمور تتجه نحو الهدوء العام في شتى المناطق، مع وجود بعض المواجهات التي كانت تطرأ من حين لآخر نتيجة أحداث آنية عادة ما يكون السبب فيها اعتداءات المستوطنين المتطرفين!

لم يكن الهدوء السياسي في ذاك الوقت شيئًا سيئًا بالنسبة لي، بعد قضاء الوقت المخصص للتدريب المهني في كل يوم _عدا الجمعة_ كنت أتوجه إلى الأسواق القريبة وأستفسر عن وجود أي عمل بأجر يومي في محالها، وعادة ما يتوافر مثل هكذا طلب، وبعد كل عمل أقوم بقبض أجره

أوفر منه ما أوفر وأصرف قدر حاجتي، كنت أدخر قرشي الأبيض ليومي الأسود، ولكن ما ادخرته من مال لم يكن ليوم أسود بل كان اليوم الذي صرفت نقودي لأجله يومًا شديد البياض! حاليًا أنا أملك ما يمكنني من السفر إلى مدينة القدس، عزمت أن أزور القدس التي حُدِثتُ عنها الكثير الكثير، ولكن لم أدخلها بعد، قرأت عن المسجد الأقصى، لكنني لم أصلِ به، رأيت صورًا لقبة الصخرة، لكني لم ألمس صخرها. اخترت يوم الجمعة لبدء المسير إلى الهدف، وشددت رحالي في سيارة أجرة تنقل مستقليها من قلنديا إلى منطقة باب العامود، ومن هناك بدأت أتنقل في البلدة القديمة، في القدس العتيقة إلى أن وصلت باب الأسباط لأدخل المسجد الأقصى الشريف الذي كان يتوزع على مداخلة عساكر من قوات الاحتلال الصهيوني، لكنهم لم يعترضوا طريقي، دخلت المسجد وما إن انزويت في إحدى زواياه حتى صليت ركعتين تحية له، بدأت أستكشف الموقع، يا له من منظر خلاب قادني لقمة الروحانية! شعور لم أعشه من قبل، مصلى قبة الصخرة الذي هو بمثابة مصلى للنساء، حجمي الضئيل سمح لي بدخوله على من فيه من مصليات، يا له من مشهد عظيم! تنقلت في زواياه ونزلت تحت صخرته، ثم عاودت الصعود، صليت بين النساء، لكنني كنت مغشى العينين لم أر إلا نفسي كأن المسجد الأقصى أُخلِي من النُساك عندما عُلِمَ بزيارتي، خرجت من مصلى قبة الصخرة وتوجهت إلى ظل قبة صغيرة شيدت قربه، كنت أمعن النظر طويلًا في تلك الزخارف التي زينت جدران قبة الصخرة، انتقلت إلى المصلى القبلي، تفقدت كل زاوية فيه ومنه إلى المتحف الإسلامي، ومنه إلى مصلى البراق، ومنه خرجت، كنت أريد أن

أسجل في كل ركن من الأقصى المبارك سجداتي التي أشعر معية الله فيها، توجهت إلى متوضأ الكأس، شربت من مياه المتوضأ هناك، وتوجهت إلى المصلى المرواني، لم تشبع عيناي بعد من تفاصيل ما رأيت داخل المسجد. كان الوقت يسابق بي، ما إن شارفت الشمس على المغيب حتى استبقت الباب، كنت أهدف أن أشتري أيَّ شيءٍ من سوق العطارين في القدس كتذكار من المدينة التي أحببت، وحقًا اشتريت خبزًا اشتهرت القدس بخبزه، واشتريت كأسًا يحمل صورة مصلى قبة الصخرة، ومن ثم ودّعت القدس مقبلًا جدران باب العامود فيها، وركبت سيارة للعودة إلى مبيتي في المعهد. التفتت عيناي لآخر صورة تراها هي للمسجد الأقصى الذي عانق كنيسة القيامة وصورتهما من بعيد تختفي رويدًا رويدًا!

وصلت المعهد، كان المشرف الطيب ينتظر باب المبيت، يبدو أنه كان قلقًا عليَّ، ما إن وصلته حتى سألني عن سبب تأخري فالساعة تجاوزت العاشرة ليلًا، صارحته عما كان فعذرني وأخبرني أنه لا يقل عني محبة للقدس ويتمنى أن لو كان بإمكانه زيارتها يوميًا! قدمت له بعضًا مما جلبت من الخبز المقدس، اكتفى بقليل منه، وطلب مني أن أطعم رفاقي في غرفة المبيت، كذلك فعلت، فقد كان غالبهم في انتظاري!

صدقًا كانت غبطتي بالزيارة حد السماء أو أبعد، زيارتي للمدينة المقدسة كغيثٍ سقى ما بذرت في روحي من قناعات ليس آخرها الموت فداءً لمن تُحب!

6

لم تتوقف أجهزة أمن السلطة الفلسطينية للحظة في ذلك الوقت عن العمل بكل قوة لتحقيق ما جاءت لأجله "دولة فلسطينية" أشبه بجزيرة تحيط مدنها المستوطنات وتحدها من كل الجهات دولة أخرى هي "إسرائيل"، ورغم أن هذا المشروع لاقى تأييدًا من جزءٍ ليس بالقليل من الشعب الفلسطيني الذي أحسن النوايا، بما فيهم أولئك الذين كانوا يقولون إن هذا المشروع أرضية انطلاق لتحرير كامل التراب الفلسطيني.

وفي ظل مشروع تسوية كهذا لا بد من حسمٍ قد يطول الرقاب ويحتم الغياب؛ لأن الرافضين للحل السلمي أضعاف أولئك الراضين به،

وغالبية هؤلاء يهتفون على الدوام لتصعيد المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الصهيوني. كانت الاعتقالات السياسية التي تنفذها أجهزة أمن السلطة تطال يوميًا العشرات من معارضي مشروعها السلمي، وتسرّب إلى الأذهان حينها مصطلح التنسيق الأمني الذي ليس بأقل بطشًا بنشطاء المقاومة المسلحة من اعتقالهم على خلفية توجهاتهم السياسية التي عادة ما تكون الضلوع في نشاطٍ عسكري ضد قوات الاحتلال ومستوطنيه.

في 29/ 03/ 1998م دوى في محيط رام الله صوت انفجار وصلنا في معهد قلنديا بعض منه، تضاربت الأخبار حول ذاك الانفجار الذي تبين أنه كان في سيارة بالمنطقة الصناعية في بيتونيا القريبة من رام الله، كان هناك حديث أولي أن السيارة تلك قد أعدها عناصر من المقاومة لتفجيرها داخل كيان الاحتلال وأن خللًا فنيًا استعجل الانفجار فيها، وأودى بحياة سائقها!

صباح الأول من أبريل (نيسان) من العام نفسه، أُعلن في وسائل الإعلام أن السيارة التي انفجرت قبل يومين كانت تعود لخليفة الشهيد المهندس يحيى عياش، إنه الشهيد محيي الدين الشريف، وأن الانفجار الذي مزّق جسده وسيارته لم يكن إلا عملية اغتيال مدبرة من قبل قوات الاحتلال وأعوانه!

في اليوم التالي ذهبت مع بعض زملائي في المعهد للمشاركة في تشييع جثمان الشهيد المجاهد محيي الدين الشريف إلى مثواه الأخير في مقبرة البيرة، كان عدد المشاركين يتجاوز الثلاثين ألف مشارك، وما أن انفضت تلك الجموع حتى بدأت تندلع المواجهات التي لم تخلُ منها أي مدينة.

وما إن عدت لمنطقة قلنديا إلا وقد سبقني إليها جموعُ الغاضبين الذين استفزت حجارتهم جنود الاحتلال المتواجدين على مطار وحاجز قلنديا، وانفجرت بذلك مواجهات استمرت لعدة ساعات تجرأت فيها لحمل قنابل الغاز المسيل للدموع بعد قذفها من بنادق الجنود وإعادتها إليهم، ولم اكتفِ بإعادة واحدةٍ فقط، بل إنني كررتُ العملية خمس مرات، وكان هناك من اقتدوا بي حتى رأينا جنود الاحتلال يضطر بعضهم إلى التراجع لتكميم وجهه بقناعٍ يقيه من الغاز.

استمرت المواجهات عدة أيام وبدأت تنحدر في حدتها حتى عادت لما قبل اغتيال الشريف، كانت الاعتقالات من قبل أجهزة السلطة وقوات الاحتلال تزداد تصاعديًا لقطع الطريق أمام كل محاولة لإنهاء عملية التسوية السياسية رغم أن الأيام أثبتت أن الطرف الصهيوني هو الذي يبدأ في كل مرة في استفزاز عناصر المقاومة الفلسطينية، وأن كل عملية أو كمين تقدم عليه المقاومة ليس إلا ردة فعل لفعلٍ لعين قامت به قوات الاحتلال ومستوطنوها.

لم يغب الاستشهاديون طويلًا عن الأراضي المحتلة أو ما يدعى حاليًا "إسرائيل"، وكان الرد على كل اغتيال ينفذه الاحتلال مسألة وقت لا أكثر.

انتهى العامان التدريبيان لي في معهد قلنديا، وتخرجت من هناك بشهادة تقديري فيها جيد جدًا، وعدت إلى المخيم والتزمت مع شركة الرفاعي للتبريد والتكييف لتدريبي ميدانيًا على تخصصي، وخلال أسابيعي الأولى مع الشركة بدأت أتقاضى راتبًا مقطوعًا حسب الأداء الذي أقدمهُ خلال كل مهمة تركيب أو صيانة!

لم يمنعني التزامي ذاك من ممارسة نشاطي البدائي في صفوف المقاومة، فقد أُعلن خلال تلك الأيام عن إقامة مستوطنة على أراضي جبل أبو غنيم الذي يفصل بين مدينتي القدس وبيت لحم، وكان هذا الجبل قد بيع بواسطة سماسرة أرضٍ فلسطينيين لرجل أعمالٍ أمريكي مقابل ملايين الدولارات، ولكن ذلك الأمريكي وهب ملكه لصالح العدو الصهيوني الذي أعلن نيته بناء مستوطنة "هارحوماه" على قمته!

وبدأت على إثر هذا الإعلان مواجهات جديدة كانت لا تقل حدة عن تلك التي شهدتها (هبة النفق) في العام 1996م، توزعت المواجهات في جلّ مناطق التماس في مدينة نابلس، وفي المنطقة الشرقية منها كانت تتقد المواجهات في ثلاث نقاط هي شارع القدس، وقبر يوسف وتلة عسكر، أما شارع القدس وقبر يوسف فعادة ما تقوم أجهزة أمن السلطة بالوقوف فاصلًا بين جهتي النزاع، أنا ومن معي في جهة وقوات الاحتلال الصهيوني في الجهة المقابلة، وكأن سلطتنا هي لجنة دولية لحفظ السلام، وعادة ما تكون عصيهم أسرع إلينا من الرصاص المطاطي المطلق من الجهة الثانية!

أما النقطة الثالثة (تلة عسكر) فهي خارجة عن حدود تدخل السلطة وأمنها، لذلك كانت ملاذنا الأخير إن انقطعت بنا السُبل بإشباع جوعنا الانتقامي من ذلك العدو الذي يزيد دومًا في بطشه!

في أحد أيام المواجهات تلك طورت قوارير الزجاج الحارقة بإضافة مادة لزجة لمكونات "المولوتوف"، إنها مادة "الآغو"، واستخدمت قارورة أكبر هذه المرة، واستهدفت بها من تلة عسكر إحدى الشاحنات العسكرية

التي مرت من تحت التلة، اشتعل سقف غرفة القيادة فيها، وعلى أثر ما كان زيدت سرعة الشاحنة تحسبًا لمتابعة قذفي قوارير "المولوتوف"، وما أن تأكدت من أن الإضافة التي كانت مني زادت من كفاءة زجاجتي النارية حتى اعتمدت هذه الإضافة في كل ما قدم على شاكلتها، وانتهت الهبة، لكن نبض الثورة في الضفة بقي حيًّا، وما أن يمر من تحت تلة عسكر أي جيب عسكري صهيوني أو سيارة مستوطنين ويراه أحد الشبان الفلسطينيين حتى يرميه بما حوت يداه من حجارة! وإن خلت التلة إلا منه! والوصف لمن شذ عن هذه القاعدة لن يكون بأقل من "جبان"! ومن العار أن تعيش جبانًا!

مرت عليّ أيام كنت أعمد فيها إلى عدم ذهابي لميدان العمل مع الشركة، فكنت أقدم على التغيب دون مساءلة من الشركة، فأنا وإن كان لي راتب مقطوع إلا أنني أتقاضاه حسب الأداء الذي يكون مني خلال كل مهمة، وتَغَيُّبي ليوم أو يومين ينقص من مستوى أدائي ليس إلا، ذات يوم تغيبت لزيارة أحد الزملاء الذين عرفتهم خلال دراستي في معهد قلنديا، كان ذاك الشاب من مدينة قلقيلية، وخلال قطعي للمسافة التي تربط نابلس بقلقيلية تعرفت على مستوطنة كفار سابا وجعلتها في مخزون ذاكرتي، وما إن وصلت الشاب وتعرّفت على أهله وتناولت طعام الغداء حتى انتهت زيارتي له، وقبل خروجي من مركز المدينة عندهم اشتريت جالون بنزين من إحدى محطات الوقود، وتسللت به إلى حقل في المستوطنة التي لم أنسَ، وبدأت أوزع على هشيم القمح البنزين الذي جلبت ومددت البنزين إلى الأشجار المحيطة بحقل القمح، وقبل المغادرة رميت عود الثقاب من يدي وفررت، لم تكد تمر دقائق حتى حدث حريق هائل، وبدأت تهرع إلى المكان

قوات الدفاع المدني الصهيونية، منها من يطفئ، ومنها من يتحقق، ومنها من يخلي من اختناق بسحب الدخان التي تشكلت فوق المكان، كنت أراقب ميدان الحدث من بعيد، وما إن أُخمد الحريق حتى عدت إلى موقف سيارات الأجرة في قلقيلية وركبت إحدى السيارات متجهًا بها إلى نابلس، ومنها إلى المخيم.

خلال تدريبي الميداني مع شركة الرفاعي للتبريد كنت قد تقدمت بطلب توظيفي في بلدية نابلس، وبعد أن أتممت قرابة ثمانية أشهر في التدريب الميداني أتتني الموافقة لاستلام وظيفتي الجديدة التي كانت في إحدى المرافق التابعة للبلدية، وهي الإشراف على أداء غرف التبريد الأربع الموجودة في مذبح المواشي أو كما اعتاد النابلسيون تسميته (المسلخ البلدي)، كانت هذه الوظيفة حسب رغبتي تمامًا، فالدوام غير المنتظم هو أجمل ما في الأمر، فأنا لا أحب كل إلزامي، وبذلك يكون لديّ من أوقات الفراغ ما يضمن حرية تنقلي وتحقيق غاياتي، وبهذه الوظيفة سيزداد دخلي المادي الذي قد أحقق فيه يومًا غايتي الأسمى، وهي امتلاك سلاحي الناري!

كنت سعيدًا جدًا بالوظيفة الجديدة التي أداوم فيها يومًا بعد يوم تسع ساعات مسائية، هناك كنت أقضي وقتي أفكر في جديد قد يكون عنوانًا لمرحلة جديدة تقودني لإنجاز الانفجار الأول! ما إن تقاضيت أول مرتب لي حتى اشتريت بجزء منه عددًا كبيرًا من طلقات الرصاص المعطوبة التي لا تصلح للاستخدام بواسطة بندقية رغم أنها ممتلئة، كانت هذه الطلقات أرخص من تلك الصالحة مائة بالمائة، ولكن حاجتي لها لم تتعد إخراج ما في بطنها من بارود، وهي خطوة أولى لإنشاء القنبلة الأولى على يدي!

لقد امتلأت جرة بلاستيكية بالبارود المستخرج من بطن كل طلقة في جعبتي، بدأ التفكير يراودني كيف السبيل إلى التفجير، فالخطوة الأولى هي تكديس البارود في أنبوبة حديدية محكمة الإغلاق، لكن طريقة إشعال هذا البارود كيف ستكون؟

بدأت أفكر مليا حتى خطر في بالي استخدام جهاز الصعق الكهربائي الذي شاهدت أحد الجزارين في المسلخ يستخدمه للإطاحة أرضًا بكل ماشيةٍ يريد نحرها، إنه جهاز ينتج تماسًا كهربائيًا رهيبًا وكثيف الشرر، لكن لم أوفق للحصول على جهاز مثله إلى أن بدأ البارود المخزن في الجرة البلاستيكية بالتلف بعدما تعرض لعوامل الرطوبة والحرارة!

تلف البارود، قررتُ السفر إلى الضفة الشرقية إلى عمان، وما إن قررت حتى أخذت إجازة عمل، وبدأت حزم أمتعتي، وانطلقت إلى مأربي على جسر "الملك حسين" أو "جسر الكرامة"، تنقلت في أقسامه الثلاثة (الفلسطيني، الصهيوني، الأردني)، لم يعترضني أحد من عمال الأقسام الثلاثة فما زلت حتى اللحظة رغم كل الذي كان مني مجرد فتى طائش لست أهلًا بتقارير عملاء أو جواسيس أو مناديب! استأجرت غرفة في أحد الفنادق، صرت أتنقل في أحياء عمان وأسواقها، ولكني لم أحب شيئًا منها، مساء اليوم الثالث لزيارتي قررت العودة، فإحساسي بالغربة بات يقرحُ نفسيتي، دفعت إيجار الغرفة لعامل الفندق وانطلقت تجاه جسر الكرامة ومنه إلى المخيم. مرت أيام بعد زيارتي لعمان أثبت حضوري في الوظيفة، وشاركت في عدة مواجهات منها ما كانت بمشاركة مطلقة مني!

قررت معاودة السفر إلى الأردن، وهذه المرة أعددت برنامجًا سياحيًا للأماكن التي تستهوي العالم لزيارتها، قطعت ما قطعت، ونزلت في الفندق عينه الذي كنت نزيله في المرة الأولى!

توجهت في اليوم التالي إلى جرش، وفي اليوم الذي يليه إلى البتراء، وفي اليوم الثالث توجهت في الحافلة إلى العقبة، وكنت قد احتفظت بتذكرةٍ قطعت من مشرف الحافلة لي، فيها توقيت دخولي للحافلة وبالساعة والتاريخ، وما إن وصلت العقبة حتى خرجت منها ولم أقض فيها إلا ليلة واحدة، وعاودت ركوب حافلة أخرى وكان فيها نفس نظام الأولى، وانطلقت بنا الحافلة إلى عمان، وفي صباح اليوم التالي اكتفيت من سياحتي في الأردن، فقد بدأ يخيم عليّ شبح الغربة.

أثناء مروري بالقسم الصهيوني من الجسر استوقفني العامل هناك فقد وضعت تذكرتي الدخول لحافلتي "رحلة العقبة" بين دفتي بطاقتي الشخصية، وهنا ذهب العامل الصهيوني لتفحص تلك التذاكر فعاد ومعه أمر احتجاز لي، احتجزني في غرفة صغيرة ذكرتني "بالتخشيبة" التي أُدخلتها قبل سنين، لبثت فيها بضع ساعات، ومن ثم اقتادوني إلى مكتب لأحد الضباط، وبدأ التحقيق معي عن سبب دخولي وخروجي السريع لمنطقة العقبة، وبدأ يقنعني بأنه أرسل ورائي طوال رحلتي في عمان "أصدقاء" له للمتابعة، كان يحقق معي وكأنني ذهبت لإنجاز صفقة أسلحة نووية سأجلبها للأراضي المحتلة، كنت أرد تهويلاته بسذاجتي في الإجابة حتى فرغ مني وعاود إرسالي إلى "التخشيبة"، وما إن دخل الليل وشارف انتهاء العمل على الجسر دقائقه الأخيرة حتى تم الإفراج عني وانتقالي للقسم الأخير من الجسر ومنه إلى سيارة أجرة تقلني للمخيم.

الهبّات وما أدراك ما الهبّات، هبة جديدة بدأت على إثر إضراب عن الطعام خاضه الأسرى الفلسطينيون بعد انتصاف العام 2000م، كان الإضراب نتيجة لضغط الظروف القاسية التي يجبر الأسرى على العيش فيها ومطالبة منهم لتحسين تلك الظروف!

في تلك الهبّة كان الاستياء ظاهرًا للجميع من أداء السلطة الفلسطينية وأجهزتها الأمنية، وذاع صيت جهاز الأمن الوقائي في ذلك الحين الذي كان على الدوام هدفًا مشروعًا لإعلام حركة حماس!

لم تكن تخلو تلك الأجهزة الأمنية ممن لا يحملون ولاءً لسلطتهم أو ممن حاولوا العمل في ذلك الوقت ضد أي تشكيك بوطنية العاملين في صفوفها، فكان يتقدم صفوف الشبان في مواجهاتهم مع قوات الاحتلال عددًا من أولئك المنتمين للأجهزة الأمنية، وبعضٌ منهم قد فرّ بسلاح السلطة الذي كان على عهدته فقاتل به حتى استشهد! ومنهم من اضطرت قيادة السلطة لفصله عن رأس عمله بعد ضغوطٍ صهيونية عليها، حسبما قال أحدهم.

في هذه الأحيان كانت المواجهات تهدأُ في منطقة وتتقدُ في أخرى، وكنت أتتبع ميادينها عن قرب، وكعادتي أنسجم في صفوف من صعقوا أسرًا فنبضوا حرية!

خلال إحدى المواجهات على شارع القدس الممتد حتى حاجز حوارة العسكري الصهيوني كانت المواجهات تزيد في حدتها في كل دقيقة، إصابات الاختناق بالغاز تعالج ميدانيًا، ومن أصيب في أسفل أطرافه

بعيار مطاطي يكتفِ المسعفون بتقديم الثلج له، فسيارات الإسعاف لم تعد قادرة على نقل كل مصاب إلى المستشفيات، لذلك اكتفى عاملوا سيارات الإسعاف بنقل المصابين بالرصاص الحي فقط إلى المشافي!

أصيب أحد الشبان خلال محاولته إلقاء زجاجة حارقة تجاه جنود الاحتلال المتمركزين في الجهة المقابلة لنا، طلقة من الرصاص الحي أصابت بطنه، ساعدت في حمله ونقله إلى سيارة الإسعاف، خلال حملي له تبين لي أنه (محمد القطاوي)، وهو أحد المشاركين الدائمين في مواجهات شارع القدس، بعد انتهاء المواجهة هناك توجهت لزيارته في مستشفى رفيديا للاطمئنان عليه، وهناك تعرفت على مصاب آخر كان مقابله في الغرفة المجاورة له، كان يدعى (حمزة الطقطوق) من سكان مدينة نابلس، وصرت أتنقل بين أسَرَتهم وإخوان لهم كانوا قد أصيبوا في مواجهات سبقت تلك المواجهة، عدتهم مرات ومرات في مشفاهم، وكنت أسهر عدة ليال على راحتهم، وعادة ما أطعم بعضهم بيدي وخصوصًا محمد، رغم أنني لم أكن على علاقة مميزة به قبل تلك الحادثة! بعيد أيام بلغني نبأ إصابة إبراهيم ياسر الناجي في مواجهات كانت أيضًا على نفس الشارع وأنه تم نقله لمستشفى الاتحاد النسائي، كنت حينها أجهز نفسي للخروج لدوامي في المسلخ البلدي، ركبت في سيارة أجرة وتوجهت مع سائقها إلى المسلخ البلدي وطلبت من نائبي هناك بأن يمكث مكاني بضع ساعات إلى حين عودتي من عيادة المصاب إبراهيم، لم يبخل عليّ بما طلبت، ومن ثم عدت لنفس سيارة الأجرة التي حملتني إلى المستشفى الذي نقل إليه إبراهيم، اطمأننت عليه، فقد كانت إصابته

في أسفل قدمه، وكان هو بعافية تمكّنه من إتمام حاجته، كنت من أول القادمين للاطمئنان عليه وتهنئته بالسلامة التي كانت تخلو منها قدمه في ذلك الحين، كانت معرفتي به قبل إصابته معرفةً سطحية لا تكاد تذكر، ولكن هذه الزيارة عقدت صداقة أبديةً بيننا.

رافقته أيام علاجه التي كان بعضها على حساب مشاركتي في المواجهات وعيادتي لمحمد وحمزة، وعلى حساب نائبي في المسلخ البلدي!

أُنهي الإضراب عن الطعام في سجون الاحتلال، ومعه هدأ غبار سوح المواجهات على امتداد الأرض الفلسطينية!

خلال ذلك الهدوء الذي كان يخبئ بعده عاصفة هوجاء، قام (فارس) وهو أحد أصدقائي بافتتاح مشغل ألومنيوم في مخيم عسكر، وكنت أقضي أوقات فراغي عنده خصوصًا الأيام التي يكون فيها دوامي المسائي للمسلخ البلدي، فمن مشغله يكون نقطة انطلاقي للمسلخ البلدي، وخلال تواجدي عنده كنت أساعده حسب طاقتي وأتعلم منه العمل على بعض العدد والأدوات المستخدمة في مشغله، وأحيانًا أخرج معه لتركيب مشغولاته في البيوت.

أثناء تواجدي في مشغل فارس تعرفت على متدربه (أبو رامي) وجيرانه في المحلات القريبة، كان بالقرب من المشغل مطعم شعبي يقدم وجبتي الحمص والفول ولا يقدم غيرهما، كان طعام فطورنا على الدوام من عند (خميس ومعزوز)، أصحاب ذاك المطعم!

(جمال)، تعرفنا على ذاك الشاب الذي كان جارًا لنا في المحل المجاور والذي سبقت معرفته بصديقي فارس قبيل افتتاح الأخير مشغله.

كان جمال سريعًا في تكوين الصداقات وخفة ظله تمكنه من توثيقها في أقل الأوقات، خلال أيامٍ علمت منه أنه اشترى مسدسًا، ولكنه كان يرهب استخدامه ضد أهداف صهيونية، كان يجلب مسدسه إلى مشغل فارس، وأحيانًا يطلب من فارس تخبئته له، تجرأت ذات مرة في طلبي المسدس من جمال بعدما وعدته بأنني أحتاجه ليومين فقط لاستخدامه في أحد الأفراح، لم يبخل عليّ وأعطاني إياه وأضاف منه يومًا ثالثًا، حملت المسدس فرحًا به، هي المرة الأولى التي أحمل فيها مسدسًا أو سلاحًا حقيقيًا، كان مسدس عيار 14 ملم صناعة بلجيكية بلون فضي يسر كل من رآه، ذهبت بصحبته إلى السطح الذي كان حاله مختبر تجارب، وبدأت أتعرف على أجزاء المسدس، كررت العبث به، وكان خاليًا تمامًا من الطلقات، وما إن أشبعت جهلي به بمعرفتي الآنية تلك بأجزائه حتى نفخت صدري مؤكدًا له أنني جاهزٌ لاستخدامه! ذهبت إلى رجل أعلم مسبقًا بأنه يبيع الذخيرة سرًا لكل حامل سلاح، واشتريت منه علبة طلقات رصاص تناسب مسدس جمال أو مسدسي فقد أمسى الآن في يدي وتحت أمري، ذهبت وأنا أحمل الطلقات وعبأت مخزن الذخيرة في المسدس بعددٍ منها وشددت رحلي إلى سهل فارغ، وبدأت التدريب العملي على المسدس، من أول ثلاث رصاصات ادعيت أنني أجيد القنص، ليلًا توجهت إلى شارع تطل عليه قرية روجيب، وكمنتُ في أحد جوانبه بغية اصطياد واحدة من سيارات اللوحات الصفراء التي يستقلها المستوطنون المارون من ذاك

الشارع، لكن الضوء الأصفر الذي ينير في محيط اللوحات تلك جعل كل السيارات تبدو بلوحات صفراء، وكانت السيارات الفلسطينية تحمل لوحات أرقامها بيضاء، خشيتي أن أخطئ صيدي، قررت تأجيل العملية.

صباح اليوم التالي ذهبت لمقابلة مدير بلدية نابلس الذي أرسل في طلب مقابلتي، يبدو أنه قد أُبلِغَ بشيءٍ ما عني، هناك جلست لعدة ساعات أنتظر دوري في المقابلة، كان حارس باب المكتب بعضلاتٍ مفتولة يحمل بندقية حديثة، يحملق في الجالسين بكراسي الانتظار، لم تعجبني نظراته البتة فرددت بعضًا منها عليه، حتى استثار غضبًا مني فأسرع إليّ قائلًا: "ليش بتطلع هيك ولا؟"، وكرر مقولته النتنة تلك عدة مرات، تجاهلي للإجابة زاده استفزازًا حتى علا صوته الذي أخرج المدير من مكتبه، صرخ المدير هاتفًا بالحاضرين: "شو في"؟ "شو هالصوت؟"، رد عليه الحارس ذاك: "واحد أزعر جاي يتزعرن هوني". طلب مني مدير البلدية الدخول لمكتبه برفقة الحارس، وسألني عن اسمي، وما إن رددت عليه حتى أخرج ورقة من أدراج مكتبه ووضع يديه عليها، وقال بلهجة متعجرفة: "شوف يا ابني، إحنا زعران بلاطة بنحاول نستوعبهم، بس إنتا خارج دائرة الاستيعاب، وكل زعرناتك وصلتنا، لذلك بتطلع من هذا الباب_ وأشار بإصبعه لباب المكتب_ وبتعتبر حالك مفصول من العمل".

أدرت له ظهري وقابلت الباب ومررت خلاله رادًا أحد مصراعيه بأقوى ما لديّ، حتى تبعني ذاك الحارس يبغي إمساكي، لكن مديره صرخ به "فلته فلته يا ابني!".

عدت إلى البيت أحمل حرقةً في بدني بعد الذي حصل، ومن ثم خرجت بصحبة المسدس إلى تلة تقابل سهل المخيم، بدأت أطلق بعض الرصاصات منه تجاه السماء، كانت محاولة مني لإفراغ الغل الذي كبتُ في صدري من مدير البلدية وحارس مكتبه.

رجعت إلى البيت، ورحت في سباتٍ عميق حتى عصر اليوم التالي، كان الإحباط يخيم قبل هذا اليوم على الشعب الفلسطيني نتيجة كل تنازل تقدمه السلطة الفلسطينية للجانب الصهيوني دون مقابل يعطيه الأخير، حتى جاء هذا اليوم ودخل المجرم الصهيوني "أرئيل شارون" باحات المسجد الأقصى المبارك محاطًا بعدد كبير من السياسيين والجند الصهاينة، تفجّر غضب الناس في القدس، وانتقلت شظايا انفجارهم لتعم أرجاء الضفة الغربية وقطاع غزة ومناطق من الداخل المحتل خلال أيام قليلة.

كان دخول المجرم شارون الاستفزازي للأقصى مؤسسًا لبداية مرحلة جديدة من مراحل النضال الفلسطيني، ومعه أيضًا عاود شارع القدس ثورته! وتوجهت جموع الغاضبين تجاه قبر يوسف لتذكير محتليه بالأمس القريب! كنت أنا من تلك الجموع واصطحبت مسدسي معي رغم أن موعد تسليمة لجمال قد استحق من يومين، كنت أخبئه داخل ملابسي وأشارك في إلقاء الحجارة والمولوتوف تجاه الجنود الصهاينة المتمرسين داخل محيط القبر المسور، لم تأل جهدًا قوات الأمن التابعة للسلطة بإبعادنا عن دائرة الاحتكاك التي أحاطت بمحيط القبر، كانت تزداد المواجهات في حدتها ساعة بعد ساعة حتى شاركت بالمواجهات نقطة مراقبة "صهيونية في أعلى قمة جبل جرزيم تطل على المنطقة الشرقية من نابلس، وظللت سماء دائرة

المواجهة هناك طائرة هيلوكوبتر عسكرية صهيونية، إطلاق النار كان يخرج من جميع الاتجاهات صوب صدور المنتفضين على أهل القبور، السلطة ما زالت على حالها في تفريق المنتفضين الذين كنت أنا ما أزال بينهم، وكانت المواجهات تخمد عشية كل يوم ويعاد وقدُها صبيحة اليوم التالي وأنا على حالي ما زال مسدس جمال مخبأ بلباسي في كل مواجهة أنصهر أنا في صفوف المقدمين عليها، زاد قمع أجهزة أمن السلطة لنا حتى خرج من بيننا مسلحون أطلقوا النار تجاه الجنود الصهاينة المتمركزين داخل الأسوار المحيطة بالقبر، كانوا جُلّهم ممن ألف الناسُ وجوههم بعيد هبتي النفق وجبل أبو غنيم، وعلى رأس المسلحين كان كلٌ من ناصر عويص وماجد المصري وياسر البدوي وكايد أبو مصطفى المشهور بلقب "المكيري".

احتارت الأجهزة الأمنية للسلطة في كيفية تصديها لأولئك المسلحين، فبعد دقائق أُجبرت أجهزة أمن السلطة على إخلاء مواقعها الفاصلة بين المنتفضين وبين الصهاينة، فعلى ما بدا أن هناك سلطة أقوى من سلطة السلطة ستحل حاكمة ومسيطرة على الموقع، حوصر محيط القبر برصاص عويص ورفاقه من جهة وحجارة ومولوتوف المنتفضين من جهة أخرى، لكن إطلاق النار من نقطة المراقبة في جرزيم والطيران الصهيوني لم يكن يتوقف.

أخرجت مسدسي من مخدعه وتوجهت إلى جهة مسلحي المقاومة الذين لم يكف رصاصهم عن صفع متاريس اختبأ خلفها جنود الاحتلال، كان غالبية أولئك المسلحين مكشوفي الوجوه وكذلك أنا، حتى مساء هذا اليوم كانت الاتصالات تجرى بين السلطة الفلسطينية والجانب الصهيوني

من جهة والسلطة الفلسطينية وعويص ورفاقه من جهة أخرى، كانت السلطة وسيطًا في إعطاء هدنة إنسانية بين مسلحي المقاومة وبين الجانب الصهيوني وذلك حتى يتسنى إجلاء الجرحى الصهاينة من الموقع وإدخال الطعام والماء إليه، ونجحت وساطة السلطة بين الجانبيين، وفي آخر الليل انسحب مسلحو المقاومة والمنتفضون من دائرة الحصار للقبر، وأدخل الطعام والماء وما بينهما من ذخيرة للجنود الصهاينة المتمترسين خلف أسوار المكان المقدس.

صباح اليوم التالي خرجت من البيت قبيل الظهر متوجهًا صوب نقطة الاحتكاك في محيط قبر يوسف، بعد أن كنت قد اشتريت علبة رصاصٍ جديدة لمسدسي، انضممت في صفوف المسلحين الذين تعرفت عليهم في اليوم السابق تحت النار، وبدأت المواجهات والاشتباكات بيننا وبين الجنود الصهاينة ورماة الحجارة والمولوتوف على حالهم والمسلحين الذين أنا بمسدسي واحدٌ منهم، استمرت الاشتباكات، انتهت ذخيرتي، بدأ إطلاق أعيرة نارية ثقيلة من طيران الاحتلال ونقطة المراقبة في جبل جرزيم، اضطررت إلى تغيير مكان تواجدي الذي كان في البداية أعلى إحدى البنايات المطلة على القبر، نزلت منه بعد تكثيف إطلاق النيران تجاهنا، التصقت بجدار بيت قادني إلى أسفل درج في إحدى البنايات التي لا تبعد إلا أمتارًا معدودة عن السور الذي يلف محيط قبر يوسف، هناك كان شاب يحمل حقيبة على ما يبدو أنه لجأ إلى هذا المكان ليستتر من أمطار النار في الخارج!

كان بعض فتات الحجارة التي أصيبت بنيران الاحتلال تصلنا حيث كنا تحت الدرج، إنها الحرب التي لم أعش مثيلًا لها من قبل، ذاك الشاب سبق ورأيت وجهه كان يتردد إلى فارسًا في مشغله بمخيم عسكر، في هذه الظروف لا مجال للتعارف، لكنني بادرت إليه وأعلمته أنني من مخيم بلاطة، وبدوره بدد شكي وأعلمني أنه من مخيم عسكر، سألني حاجته (ولاعة سجائر)، فأعطيته ما سأل، خلع حقيبته عن ظهره وأخرج منها ما أثار فضولي؛ أنابيب حديدية كالتي يستخدمها والدي في عمله، لكن يخرج منها فتيل خيطي، إذن هي قنابل يدوية الصنع سألته بلهجة الحذر المتعجب: "شو هاد؟" فأجابني بكل هدوء: "هاي كواع، قنابل أنا من يصنعها"، ما إن أفرغ الحقيبة مما فيها حتى طلب مني مساعدته في إلقائها داخل الأسوار المحيطة بالقبر، فرحبت بطلبه وخططت معه لآلية إلقائنا لتلك "الكواع"، حملنا ثلاثةً منها والتصقنا بسور يلف القبر بعد أن ركضنا كالبرق نحوه، هناك وضعنا "الكواع" الثلاثة على الأرض، وبدأت أشعل فتائلها وذاك الشاب يرمي بأقوى ما لديه بها داخل السور، وقبل أن يلقي ثالثها بدأت تدوي انفجارات في محيط القبر، فرغنا من إلقاء الثلاثة وعدنا إلى مخبئنا، واستعددنا لكرة ثانية استبدلنا فيها الأدوار، وكررنا تلك الجولات إلى أن انتهت كل "الكواع" التي كانت بحوزة ذاك الشاب!

تدخلت السلطة الفلسطينية وكعادتها لإنجاز هدنة إنسانية بين طرفي النزاع التي كانت ترى أنها ليست طرفًا فيه، ونجحت في إتمام تلك الهدنة، انسحب مسلحو المقاومة الذين كان يحذو حذوهم منتفضو ورماة الحجارة، وتم إدخال احتياجات الجنود الصهاينة إلى محيط القبر.

سادس أيام الاشتباكات المسلحة، بدأنا نتخذ مواقع مستجدة لإحكام سيطرتنا على محيط القبر، كنت أنا قد جلبت معي هذه المرة عددًا من زجاجات المولوتوف وعلبة رصاصٍ جديدة إضافة لمقلاعي الذي طالت فترة هجرته، نزلت بين صفوف المُحتَجِزين، ألقيت زجاجتي الحارقة تجاه الموقع، لم أجد حاجة لي في استخدام المقلاع، أبصرت واحدًا من الشبان الذين رأيتهم يتجرؤون في تقدمهم لنقاط متقدمة تجاه سور القبر، وتحت النيران انزويت معه دون تعارف ووهبته المقلاع كهدية، وتوجهت بمسدسي إلى مرابض مسلحي المقاومة، كان جمال وفارس في هذه الأثناء يبحثون عن ناقض الوعد وحرامي المسدس، الذي طال اختفاؤه عن الأنظار، على حين غفلة خرج إلينا حامل حقيبة الأمس، يلبس نفس الحقيبة، كان يعرف بعض مسلحي المقاومة الذين أتواجد معهم، سلم عليَّ بحرارة ورغم النيران الكثيفة، تعارفت علية وأخبرته باسمي وأخبرني باسمه ولقبه، كان يدعى علي العجوري ولُقب بـ "الضباي"، طلب مني أن أوزع معه محتوى حقيبته على أهل السلاح ففعلت، وما إن انتهينا من توزيع "الأكواع" حتى انزويت معه لدقائق وأخبرني بأنه مسرورٌ جدًا للقائي مرة ثانية، وتمنى لي السلامة وولى إلى أمره.

عدت لأنخرط في صفوف المسلحين، كانت الأمور تزداد عنفًا، وقد ألقى الجميعُ "الأكواع" التي جلبها علي لنا، وأعمدة الدخان بدأت تتصاعد خلف السور، خطط أحد الشبان لإلقاء أنبوبة من غاز الطهي داخل سور القبر ونحن بدورنا نطلق النار على الأنبوبة فتنفجر، وتم ما خطط له، وكررت الخطة مرة ثانية، لكن أحدًا منا لم يفلح في إصابة الأنبوبة الثانية.

شابٌ آخر أشعل واحدًا من إطارات السيارات وألقاه داخل السور، رغم كل الدعم الذي قدمته الطائرات ونقطة المراقبة في جرزيم إلا أن الحصار على الصهاينة المتواجدين في محيط القبر كان في قبضتنا نحن ورماة الحجارة!

ستة أيام والإصابات في صفوفنا تتزايد، وعددٌ من الشهداء يتعانق في ملكوت الله مع شهداء يرتقون في نفس الظروف على امتداد نقاط التماس في الضفة الغربية!

حكم أبو عيشة الملقب بـ"السنونو" كان واحدًا من المسلحين الذين شاركوا في الاشتباكات التي كانت في هبتي النفق وجبل أبو غنيم، وهو الآن في صفوف مسلحي المقاومة المشاركين في حصار القوات الصهيونية المتواجدة في محيط قبر يوسف، قرر حكم أن يأتي بجرافة ليهدم بواسطتها السور المحيط بالقبر وذلك سيكشف للمقاومة المسلحة أماكن تواجد الجنود الصهاينة، وبذلك سينتهي سبب الحصار الذي نمارسه عليهم من جذوره! ركب "السنونو" الجرافة التي كانت في أمره فور ما طلبها، وعندما ظن أنه مكشوف لطيران الاحتلال وجه مقود الجرافة تجاه السور المحيط بالقبر، واستبدل قدمه بصخرة وضعها على مكابح الوقود وقفز من الجرافة التي توقفت بعد بلوغها الهدف الذي سارت لأجله، ولكنها لم تهدم إلا جزءًا بسيطًا من السور.

كان هدم ذاك الجزء البسيط من السور بداية النهاية لخلع مسمار جحا من قلب المنطقة الشرقية بنابلس، فما مرّ على جنود الاحتلال خلال هذا اليوم بالتحديد قاد المُحاصَرينَ لإجراء اتصالات مكثفة مع قيادتهم

في "تـل أبيـب"، بـدأت السـلطة الفلسـطينية بإرسـال وسـاطتها إلى المسـلحين الذيـن قـادوا الحصـار عـلى المـكان المقـدس بـما فيـه مـن مدنـس! وكانـت هـذه الاتصـالات عـلى أعـلى مستوياتها الرسـمية، فهنـاك حديـث عـن مقتـل أحـد الجنـود الصهاينـة داخـل حـدود سـور الإحاطـة بالقـبر!

اسـتجاب مسـلحو المقاومـة لوسـاطة السـلطة الفلسـطينية والتـي كان رضوخهـم لهـا هـذه المـرة تحسـبًا أيضًـا لـردٍ إجرامـي بعـد مقتـل ذلـك الجنـدي الصهيـوني. فاحتماليـة ارتـكاب مجـزرة بحـق رمـاة الحجـارة _خصوصًـا_ كان واردًا منـذ اليـوم الأول وزيـادة هـذا الاحتـمال بلـغ تأكـده بعـد الحديـث عـن مقتـل أحـد الجنـود الصهاينـة، وطـيران الاحتـلال لم يغـب للحظـة عـن الأجـواء والصواريـخ برأسـها المدبـب في أسـفل الطائـرة!

انسـحب مسـلحو المقاومـة مـن محيـط الاشـتباك، وطلبـوا مـن جمـوع المنتفضـين إخـلاء المـكان، ولبـوا عـلى مـا طلبـوا.

عـدت أنـا إلى المنـزل، كان أبي يعلـم بتواجـدي طيلـة الأيـام السـابقة في ميادين المواجهـة، تجاربـه السـابقة معـي كفلـت لي حريـة التـصرف فقـد فرضـت عليـه الواقـع الـذي أنـا عـادةً مـا أصنعـه، سـلمت عليـه وعـلى والـدتي وقـال بعـد أن تبسـم لي بسـخرية: "شـو إن شـاء الله حررتوهـا؟"، لم أجبـه، وقبـل دخـولي لغرفـة معيشـتي، اسـتدرك قائـلًا: "فـارس صرلـوا خمـس أيـام مجننـي بسـؤاله عنـك، ليكـون بـدو منـك دينـة". التفـت إلى أبي وأخبرتـه أننـي سـأرى فارسًـا قريبًـا!

بدلت ثيابي وخبأت المسدس الذي صرت أحسن جيدًا استخدامه بعد كل هذه الاشتباكات، غصت في النوم الذي وصلت فيه من التعبِ حد العمق!

صباح اليوم التالي ذهبنا لمعاودة الحصار ولكننا لم نجد هناك إلا أجهزة أمن السلطة الفلسطينية، فالصهاينة كانوا قد فروا فجرًا من المكان وبغطاءٍ من الوسيط في هدنتهم الإنسانية التي منحناه إياها!

دخل الأهالي إلى محيط القبر، وبدأوا باغتنام كل شيء خلفة الجنود الصهاينة خلفهم، ومنهم من هم بهدم القبر الذي سجي فيه "يوسف الصديق" حسب الرواية الصهيونية التي نفاها التاريخ، لكن عددًا من مشايخ المنطقة تدخلوا في منعهم من الهدم.

كانت أحداث قبر يوسف قدوة حسنة يمكن الاقتداء بها لاقتلاع باقي مسامير جحا داخل مناطق "أ" التي تقع تحت سيطرة السلطة الفلسطينية، ولم تكن تلك المسامير في معزلٍ عن محاولات الخلع، بل إنها كانت تعيش أحداثًا بنفس الوتيرة التي عايشتها منطقة قبر يوسف وبنفس التزامن.

عدت إلى البيت مغتبطًا بالتحرير الذي كان لمحيط قبر يوسف، ربما كانت هي الخطوة الأولى في مشوار الألف ميل، فعلى قصيري النفس التنحي جانبًا!

بات من المؤكد للجميع بعد أحداث قبر يوسف أن الحكم الفعلي في مناطق "أ" هو حكم رجال المقاومة المسلحة الذين قاومت بنادقهم

الوجود الصهيوني فيها! وأصبح ظاهرًا للعيان أن الأحداث التي بدأت على خلفية زيارة المجرم شارون للمسجد الأقصى المبارك ليست هبّة كالتي عاشها الشعب الفلسطيني قبل أشهر، إنها انتفاضة شعبية تمرد فيها الفلسطينيون لتقرير مصيرهم، ومع مرور أولى شهورها أطلق على هذه الانتفاضة "انتفاضة الأقصى"، مؤرخة بدايتها بزيارة المجرم شارون لساحة الأقصى المبارك.

ما زال جمال وفارس على حالهما في البحث عن حرامي المسدس، لم ينتهِ دوره معي فالمواجهات وإن توقفت في محيط قبر يوسف بعد انجلاء الاحتلال منه إلا أنها ما زالت مشتعلة في شارع القدس وتلة عسكر، لكن شارع القدس كان ميداني الأقرب، وكان من المشاركين الدائمين هناك (مراد مرشود) صديق الطفولة وتوأم التسلل لمعسكر حوارة!

ذهبت مع المسدس بعد يوم التحرير لقبر يوسف إلى ميدان المواجهة الجديد شارع القدس، وشارع القدس هذا شارع عريض جدًا لا يستطيع راشقو الحجارة فيه التمترس في زاوية ما حال أطلقت عليهم صليات كثيفة من رصاص الاحتلال، وخلال الأيام الأولى من الانتفاضة اكتسب هذا الشارع اسم "شارع الموت". ذهبت إلى شارع الموت طلبًا للحياة، فكما قال سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: "اطلب الموت توهب لك الحياة".

بدأت أنافس المتنافسين في إلقاء الحجارة والمولوتوف والذي كنا نصنعه ميدانيًا في تلك المواجهة، وأعدت ما أعدت من قنابل الغاز المسيل

للدموع، إلى اللحظة التي أذنت بانزوائي إلى ركن متقدم في المواجهات، أخرجت مسدسي وقد رافقني إلى ذلك الركن توأمي مراد، بدأت بإطلاق طلقات فردية تجاه الجنود الصهاينة المحصنين خلف ساتر أُعد من أكياس مُلئت بالرمل. بعد أن أطلقت أعيرتي النارية تجاه الجنود الصهاينة طلب مني مراد استخدام المسدس لنفس الغرض، لبيتُ طلبه وتبادلنا الأدوار متنقلين بين الركن الذي يطلق منه أحدنا النار والآخر ينخرط في صفوف رماة الحجارة والمولوتوف!

كانت تنتهي المواجهات على شارع القدس مع حلول الظلام من كل يوم، لا مجال في ذلك الشارع لحصارٍ كالذي كان منا في قبر يوسف، فالتضاريس والظروف تختلفان تمامًا إذ إن الجنود يتقدمون إلينا من معسكر حوارة للجيش الصهيوني الذي لا يبعد إلا أمتارًا عن مكان تمترسهم، وكذلك نحن نأتي إليهم من كل فج عميق من قرى ومخيمات وأحياء نابلس، ولا مكان ننزوي إليه حال تدخلت طائرات حربية صهيونية أو نقطة المراقبة في قمة جبل جرزيم!

لذلك كانت المواجهة خاسرة في نظر مسلحي المقاومة فالظهر والصدر مكشوفان لقناصي الاحتلال، وأي تدخل منهم قد يكون حجة لأي مجزرة انتقامية ينفذها جنود الاحتلال بحق رماة الحجارة ومنتفضي المولوتوف!

لم أترك أي مواجهة في شارع الموت دون حجارتي، وخلال يوم بلغ جمال أن لص المسدس يتواجد في شارع القدس وفي كل مواجهة فيه،

وخلال رشقي للحجارة وإذا بيد جمال على كتفي، ذكرتني تلك الحركة لحظتها أن تلك اليد لمستعرب من قوات الاحتلال، أدرت وجهي إليه بهدوء وخرج من فيَّ ريح أرضاني إخراجها، ركن بي إلى جانب الطريق، طالبني بالمسدس وأنبني على نقضي لعهده في ميقات ردي لمسدسه، أعطيته المسدس، وحاولت أن أرضيه بمخزن الذخيرة الممتلئ وبعض الطلقات التي كانت في حوزتي، واعتذرت له وطلبت منه أن يسامحني على ما كان مني تجاهه!

انسحب جمال من ميدان المواجهة بعد أن استعاد مسدسه، وعدت أنا إلى عهدي أعزل إلا من الحجارة وقوارير النار!

7

رغم أن فراقي عن المسدس كان صعبًا على نفسي، لكنني في غمار الاشتباك كنت أخشى أن أموت ولم أؤدِ أمانته، وما إن أخذه صاحبه حتى سقطت من البال هذه المخاوف! انتهت مواجهات هذا اليوم، ومضى كلُ منتفضٍ إلى أهله، بيد أن عددًا من المنتفضين سبقوني إلى مبيتهم مصابين بالرصاص على سرائر المشافي!

في السادس عشر من أكتوبر (تشرين أول) تقدمت صفوف راشقي الحجارة كعادتي، سقط أحد الشبان أرضًا، أدركت أنه ما سقط إلا بعدما أصابته إحدى رصاصات الجنود الصهاينة، توجهت إليه بغية حمله لسيارة

إسعاف ومعي توجه اثنان ألقيا حجارتهما وهرعا ورائي لنفس الغرض، ما إن وصلنا الشاب المصاب حتى بدأ جنود الاحتلال بإطلاق النار تجاهنا، أصيب أحد الشبان الذين كانوا أمامي برأسه، وارتشت دماؤه على وجهي، وبعد ثوانٍ من ذاك المشهد أصبت أنا في قدمي، أخذت أتصبب عرقًا ودمًا، عيناي تبصران المصابين حولي ولا أستطيع حتى الحراك، دقائق وأتت أولى سيارات الإسعاف وتبعتها الثانية، حُملت أنا والشاب المصاب في رأسه في السيارة الأولى، وأُجلِيَ الآخرون في الثانية!

انهمرت من عيني دموع لم آذن لها بالخروج، لم تكن تلك الدموع على وجعٍ أصابني، كنت أرافق جسدًا لا أشعر حتى بحركة منه، ذلك الشاب الذي أصيب في رأسه هب لهدفٍ نبيل يبتغي إجلاء المصابين، ها هو الآن جثة لا حركة فيها ولا أعلم ما ميز هذا الشاب الذي كانت طلعته كأنه البدر ليلة التمام، وصلنا مستشفى رفيديا وقلقي على صاحب الرأس المصاب أكثر من قلقي على قدمي الجريحة، هناك أُدخل الشاب إلى غرفة العمليات وتبعته أنا، أُجريت للمصابين عدة عمليات جراحية، علمت أن الذي أصيب في رأسه هو من مخيم عسكر ويدعى أشرف حبايب، وأنه أدخل غرفة العناية المركزة في المشفى، أما أنا فقد نقلت إلى أقسام المبيت في المستشفى بعد العملية الجراحية التي أجريت لي، بعد عدة أيام انتقل الشاب أشرف حبايب لجوار ربه.

لم أكن قد غادرت المستشفى بعد، علم علي العجوري "صاحب الحقيبة " بخبر إصابتي فعادني في المشفى، وهمس في أذني بشيء من المدعمات النفسية: "شد حيلك بسرعة، بدي إياك في موضوع مهم"،

تبسمت له وأخبرته أنني تحت تصرفه حتى قبل تماثلي للشفاء!

بعد أيام خرجت من المستشفى على مسؤوليتي الخاصة، فقد اكتظت المستشفى بأعداد كبيرة من المصابين خلال المواجهات. توجه بي ذوي إلى البيت وجهزوا لي سريرًا في غرفة الاستضافة، فأنا الآن صرت عنوانًا للزائرين الذين عادة ما يأتون لتقديم المواساة أو قارورة عصير البرتقال لمن هم في حالتي! عادني علي في البيت وخلا بي في حديثه وأخبرني أنه يراقبني من بعيد، وأنه معجبٌ بجرأتي ويريدني معه في إعداد خلية عسكرية، وأنه يود تعليمي صناعة المتفجرات.

كنت سعيدًا جدًا لما سمعت، كادت الفرحة أن تعيد لقدمي عافيتها فأسرع مع علي لبدء العمل، لقد بدأ شقي فعليًا لطريق ستوصلني لتحقيق توازن للرعب مع هذا الخصم السادي!

لقد انتهى كل ما ادخرت من مال، استنزفت كل ما أملك مناصفة بين شراء رصاص لمسدس جمال الذي عاد إليه بلا رجعةَ وشراء بنزين لإنتاج المولوتوف قبيل الإصابة، ولكن الإصابة أذنت بأن يكون لي رزقٌ تحتها، فقد بدأت بعض المؤسسات في إسناد متضرري الانتفاضة، وكان الدعم متواضعًا في مجمله حيث كانت تلك المؤسسات تقدم مبالغ مالية لكل جريح ولذوي أي شهيد وأي أسير، وكان لي نصيب من تلك المبالغ التي كانت ست مرات على مدى سنيّ الانتفاضة إلا أنها سدت لي حاجات وحاجات.

ما إن شعرتُ بتحسن في موضع إصابتي وبدأت المشي عليها دون عكاز حتى خرجت للقاء الحبيب متوجهًا إلى موطنه في مخيم عسكر.

دخلت زقاق بيته وكان قد أخبرني خلال زيارته لي بموعد وجوده في بيت ذويه، وما إن طرقت بابه حتى خرج لي علي وأدخلني معه خلسة من أهله إلى سطح البيت، جلسنا على سقف البيت، وبدأ يشرح لي عن القادم الأعظم، وصارحني بأن المشكلة التي تواجهه في المرحلة الحالية هي عدم رغبة أيٍ من أفراد خليته الذين ما زلت أجهلهم في مشاركته في عملية إعداد المتفجرات وعرض عليَّ مساعدته، فأخبرته أن هذا ما كنت أسعى إليه حتى قبيل اندلاع الانتفاضة وأنني كنت على وشك إنتاج قنبلة يدوية الصنع لكنني لم أوفق في إيجاد صاعق تفجير لها! أخبرني أنه سيعلمني مما علمه الله، وأن أمر صاعق التفجير سيكون شيئًا ثانويًا أمام كل أساسٍ سأتعلمه منه أو معه! وأولى هذه الأساسيات "الخطأ الأول هو الخطأ الأخير". طلبت من علي أن يريني درسًا عمليًا في تصنيع المتفجرات، فجلب بعض الأدوات والعدد من خم الأرانب الموجود على نفس السطح، وبدأ يعد صاعق تفجير أمام ناظري وبطريقة سهلة: "لمبة" صغيرة جدًا وسلك نحاس وقليل من بارود الرصاص، وما إن يلتقي طرفا السلكين بقطبي بطارية كهربائية حتى يحترق البارود، ودمج هذه العناصر الأربعة أسهل من جلبها، وما إن انتهى من درسه حتى أعدت في حضرته ما كان منه دون خطأ وفي وقت أقصر، فزاد إعجابًا بي. ودعته بعد وعدٍ بأن يكون لقاؤنا في الغد بنفس التوقيت وعلى نفس السطح! وجاء ميقاتنا، وبدأت أتعلم من عليّ درسًا بعد درس، تلقيت في المحاضرات الأولى كيفية تجهيز اللوحات الإلكترونية وإعداد أجهزة تحكم وتشغيل عن بعد، وبعد هذه المحاضرات أوكل إليّ مهمة شراء كمية كبيرة من صناديق أعواد الثقاب

التي تحوي رؤوسها مادة الكبريت، إضافة لشراء صناديق الألعاب النارية، ونحوها من المتفجرات الشعبية، وشراء بعض الطلقات النارية، اشتركنا معًا في أثمان هذه المشتريات وتقاسمناها كلٌ يحمل قسمًا منها إلى مختبره على سطح بيت ذويه، طلب مني إفراغ المواد من كل المشتريات وتخزينها في جرارٍ بلاستيكية وكل مادة في معزلٍ عن أُختها، بعد ذلك اشترى ماسورة حديد كبيرة وطلب من البائع تقطيع الماسورة إلى قطع بحجم أربعين سنتيمترًا لكل قطعة وتسنين أطراف كل قطعة، وبعد أن انتهى البائع من إعداد طلباته، اشترى بعض المستلزمات من نفس المحل وخرجنا إلى مختبره في مخيم عسكر، هناك بدأنا نغلق أحد جوانب كل قطعة من الماسورة المقطعة، وما إن انتهينا حتى بدأ علي بحشو قطع المواسير بالمواد التي سبق وأفرغناها في جرار بلاستيكية، وبدوري هممت بإعداد الصواعق على غرار أول درسٍ تعلمته منه! بدأت معه بوضع الصواعق داخل المواسير المقطعة وتسديدها وتجهيزها للاستخدام، وما إن فرغنا من ذلك حتى قال لي إننا الآن نمتلك عددًا مميزًا من العبوات الناسفة. طلبت منه أن يجرب واحدة منها أمامي فأطاعني وخرج بواحدة يحملها في كيس، ووضع إلى جانبها بطارية وأسلاكًا وتوجه بي إلى مكب العدوي للحديد، وهناك وفي واحدٍة من الساحات المخلاة جهز عبوتنا للتفجير وما إن مست الأسلاك قطبي البطارية حتى انفجرت العبوة الناسفة وبكفاءة أكبر مما كنا نعتقد، رقص قلبي على لحن الانفجار.

في اليوم التالي قام علي بتكليفي بمهمة إرسال عبوة من مجموع ما أنتجنا إلى مكان معين سيتسلمها من ذاك المكان شخص اتفق معه أخذها من

تلك النقطة الميتة، وما إن نفذت طلبه ذلك حتى طلب مني تكرار العملية في نقاط أخرى وبتمويهٍ عليها، فمرة أضع العبوة في صندوق كرتوني، ومرة في كيس بلاستيكي، ومرة في كيس قماش حتى أفرغنا مخزوننا من العبوات.

بعد تلك المهمات طلب مني علي تجهيز عبوةٍ بمفردي على سطح منزلي حيث المختبر الذي رافقني من المقلاع، جهزت له العبوة التي طلب، وأضاف لها جهاز هاتف خليوي وأرسلها لواحدٍ من معارفه. أيام قليلة وإذا بعلي يعطيني قياسات يجب عليَّ تجهيزها في إحدى مشاغل الحديد "مخارط حديد"، أخبرني أنه ينوي إنتاج سلاحين ميكانيكيين من نوع كارلو، ذهبت إلى المخرطة التي كان عاملها لا يحبذ التعامل معي؛ لأنه شك في القياسات التي أعطيته إياها، لذلك كان يطالبني بأجر أعلى ويماطل في تسليمي لكل قطعة يقوم بتجهيزها، قرابة الأربعة أشهر وأنا أتردد على المخرطة وأحاول إنهاء ما كلفني به علي الذي كان على اطلاع دائم على مجريات التحديات التي واجهتني مع عامل المخرطة، ولكن انشغاله بالعمل مع إخوانه في ورشة البناء شغله عن استعجالي في ما كلفني به.

انتهى عامل المخرطة من إنجاز ما طلب منه بعد أن تأكد أنه لا مجال للفرار من إنجاز طلبي، وما إن وصلت القطع إلى علي حتى بدأ بتجميعها أمامي منتجًا لنا رشاشات ميكانيكية من نوع كارلو يستخدم فيها طلقات نارية من عيار 14 ملم.

رغم انشغال علي المتواصل مع إخوته في ورش البناء إلا أن ذلك لم يمنعه من إتمام ما بدأ به معي، وكان يخصص وقتًا لي يعلمني ويشاركني

تصنيع المتفجرات ونحوها، ناهيك عن الزيارات والمهمات التي كان يشاركني فيها، فأربعة شهور مع عامل المخرطة البليد لم تكن هي شغلنا الشاغل وحسب.

ومع تلك الأيام التي صاحبها ترددي إلى عامل المخرطة، اصطحبني علي في سيارة خاصة تعود لواحد من أشقائه إلى معسكر صهيوني أُخلي من زمنٍ بعيد، وكان ذلك المعسكر قريبًا من بلدة النصارية الواقعة في منطقة الأغوار.

استهلكت تلك الرحلة من وقتنا الكثير، سلكنا طرقًا التفافية حتى وصلنا للمعسكر فكل الطرق الرئيسية بين المدن الفلسطينية تم إغلاقها بحواجز عسكرية للعدو، ولكن الهدف من الرحلة تم تحقيقه حيث كانت نيتنا البحث عن مخلفات عسكرية في أرضه، وعدنا بقذيفة مدفعية، تم تفكيكها فيما بعد واستخراج ما في أحشائها من مواد متفجرة.

في يوم آخر توجهت برفقة علي إلى مدينة طولكرم وأيضًا عبر طرق التفافية، وهناك عرفني على أصدقاء له ممن نشطوا في العمل المسلح ضد العدو، وكانوا زملاء له قبيل تركه العمل في السلطة الفلسطينية.

ومن طولكرم انطلقت وإياه باتجاه مدينة جنين، وهناك التقينا بشخص يعرفه علي، تحدثا سويًا قرابة الساعة ولم يقدم نفسه لي وكذلك أنا، فقط استشعرت أنه لا يريد أن يصرح لي باسمه خشية الاعتراف مني عليه حال الاعتقال، فقد أعطانا قبيل مغادرتنا له صندوق طلقات رصاص وقنبلتين يدويتين تختلفان في نوعيتهما، الأولى صناعة بلغارية والثانية ميلز.

عشية نفس اليوم كنا قد وصلنا لمخيم عسكر، وفي اليوم الذي تلاه رحلة جنين التقيت علي مساءً في مختبره على سطح بيته، وبدأنا معًا نعمل على تفكيك القنابل اليدوية التي جلبناها من جنين.

بعدما أنهينا تفكيكها أخبرني بأن فكرة إعداد قنبلة على شاكلة التي بين أيدينا ليست صعبة، وأنه يستطيع تقليد هذا المنتج.

أقنعني شرح علي، وطلب مني تجميع عددٍ من مخلفات قنابل الصوت وقنابل الغاز المسيل للدموع التي يتم استخدامها بطريقة يدوية دون الحاجة لسلاح إطلاق، وكان طلبه موجودًا على الدوام في ميدان المواجهات الدائم على شارع القدس.

كنت أزور أرض شارع الموت بعد أن تسكن المواجهات فيه، وأبدأ بتجميع ما طلب مني، التقيت علي مرةً أخرى، وبدأنا نتنقل بين مخرطة ومصنع ومحل إلى أن تم إحضار كامل اللوازم التي ستمكننا من إنتاج قنابلنا اليدوية.

أعد علي خمس عشرة قنبلة دون صاعق تفجير، وبدأ باستنساخ صاعق عن القنابل اللواتي تم تفكيكها في السابق وفعلًا نجح بذلك، وأصبحت القنابل الخمس عشرة جاهزة للاستخدام، وانطلقت بواحدةٍ منها إلى مكب العدوي للحديد وإلى ساحة مخلاة فيه وجربتها هناك، وكانت التجربة فعالة وبالكفاءة التي نريد، لكنني كنت مع علي نتمنى زيادة النسخ، ولكن قلة الإمكان المادي جعلتنا نكتفي بما كان.

في هـذه الأجـواء كانـت تـرد إلى الآذان مصطلحـات جديدة ليسـت بأقل تأثـيرًا مـن مصطلـح الانتفاضـة ذاتـه، هنـاك منشـورات تـوزع للـمارة بأسـماء مختلفـة "مجموعـة الشـهيد عمـر المختـار"، وأخـرى باسـم "مجموعـة الشـهيد كـمال عـدوان"، وعـلى شـاكلة هـذه الأسـماء، ويـلي اسـم كل مجموعـة مصطلـح "مليشـيات فتـح المسـلحة"، وفي رأس الصفحـة تكـون الأنبـاء التـي تفيـد بعمليـة إطـلاق نـار أو تفجـير عبـوة نفذتهـا تلـك المليشـيات، بالتزامـن مـع تنامـي هـذه المجموعـات ونشـاطاتها العسـكرية والتـي كنـا أنـا وعـلي جـزءًا منهـا كانـت حركتـا حمـاس والجهـاد الإسـلامي بعيدتـين عـن الانصهـار في الاشـتباكات المسـلحة التـي يقـدم عليهـا "أفـراد الفتـح المسـلح"، وكانـت الحجـة في ذلـك أن الرؤيـة لم تتحـدد بعـد في أن الأحـداث التـي تعيشـها الأراضي الفلسـطينية هـي انتفاضـة ينتهـي بهـا التنسـيق الأمنـي مـع العـدو أم هبـة كسـابقتها سـتنتهي بتجديـد الدمـاء في عـروق ذلـك التنسـيق البغيـض. لذلـك التزمـت كلٌّ مـن حمـاس والجهـاد الإسـلامي بالعمـل في دوائـر أمنيـة مغلقـة اقتصـرت بهـا كلتـا الحركتـين عـلى العمليـات التفجيريـة داخـل كيـان العـدو والمناطـق التـي تتـوزع فيهـا مسـتوطناته في الضفـة والقطـاع، وزهدتـا في عمليـات إطـلاق النـار التـي كانـت حكـرًا في بدايـة الانتفاضـة لمليشـيات الفتـح المسـلح.

بـين دفتـي هـذه المرحلـة التـي زيـد الطلـب عـلى منتجاتنـا فيهـا؛ توجهـت أنـا وعـلي برفقـة سـائق شـاحنة إلى مدينـة رام الله، وسـلكنا كالعـادة طرقًـا التفافيـة اعـترض طريقنـا بهـا جنـود العـدو دون تدقيـق تـام بأسـمائنا الموجـودة في البطاقـات الشـخصية، ومـا إن وصلنـا رام الله حتـى التقينـا بواحـد مـن رجـالات السـلطة الفلسـطينية لا يحمـل ولاءً للحـل السـلمي الـذي تسـعى إليـه _عـلى مـا

بدا لنا_ كان ذلك الرجل المكنى "أبو بديع" قد علم عن أداء علي وطلب لقاءه، جلسنا معًا وأثنى على جهودنا، وتمنى منا الامتثال للقرارات التي يبلغها موضحًا أن على كل شريف العمل على تنظيم الانتفاضة وتوحيد مساراتها، وأسهب لعلي ولي بالشرح، وما إن أنهى محاضرته حتى وهب لنا عشرة صواعق تفجير أصلية أمريكية الصنع وصندوق رصاص وقذيفتي هاون متوسطتي الحجم، كانت فرحتنا بهبته أكبر من فرحتنا بعبارات الثناء والمدح التي خرجت منه. خرجنا بما استملكنا إلى الشاحنة التي كان سائقها في انتظارنا، وضعنا الأغراض في عربة الشاحنة بعدما كنا قد موهناها بأكياس وصناديق كرتونية وعدنا بالشحنة إلى نابلس.

في نابلس تقاسمنا على سطحينا أنا وعلي الأغراض بغية بدء استخدامها في الأيام القادمة، لم تكن الأيام بعيدة جدًا، فما زالت زياراتي لمخارط الحديد متواصلة، فالأربعة أشهر ما زالت مستمرة، ولم أكن قد أنهيت قياسات الكارلو بعد فيها.

خلال هذه الأيام جهزت عبوة ناسفة بإشراف علي، وكانت هذه العبوة مموهة جيدًا فقد قمنا بإعدادها من أنبوبة غاز أوكسجين جديدة واستخدمت فيها صاعق تفجيري أمريكيًا، وجاء مستلمها، وكان ذاك الشاب يدعى مدين وهو أحد رفاقي في مواجهات هبة الأسرى، طلب مني مدين أن يعمل صاعق التفجير في العبوة من خلال هاتف خليوي، وكان هذا دور علي في تلك العبوة، فقام بتعليمي وصديقي كيفية تركيب الخليوي بالعبوة بعد إدخالها لمنطقة الهدف والتي كانت في القدس.

الآلية تقضي بأن يتم الاتصال على رقم الهاتف المعقود بالعبوة من هاتف آخر، وبمجرد أن يرن الهاتف تنفجر العبوة الناسفة.

أخذ مدين عبوته بعدما تعلم استخدامها، وتوجه بها إلى القدس، ولكنه ارتبك قليلًا هناك فقد تذكر أن الهاتف المتصل بالعبوة رقمه معروف، ومعرض لأن يتصل عليه أي شخص في وقت غير مناسب، لذلك توجه بالعبوة وألقاها في مكب نفايات وفجّرها فيه.

بعد عدة أيام علمت باعتقال مدين من مكان عمله، وخلال التحقيق معه أُجبر على الاعتراف باسمي.

لم يكن يمر يوم عليّ أنا وعلي دون أن يكون لنا وقت في تجهيز مؤنٍ عسكرية، فالجرار البلاستيكية يجب أن تكون دائمًا ملأى بالمواد المشتعلة، وكذلك الأكياس بالأنابيب المستخدمة في إعداد الأكواع وأنابيب الغاز المفرغة، ويجب أن تكون مختبراتنا على الأسطح مستعدة دائمًا لأي طارئ.

ألححت عليه ذات مرة أن نستخدم منتوجاتنا ضد أهداف للعدو، فدائمًا كنا نكتفي بإعداد المتفجرات وتوزيعها على مجموعات المقاومة المسلحة.

فرضخ بعد إصراري، وطلب مني رصد واحدٍ من الأهداف الصهيونية، بدوري توجهت إلى تل يطل على مفرق بيت فوريك وكان يتنقل في شقوقه سيارات عسكرية للعدو.

رصدت هدفي بعين ثاقبة، ودونت أوقات وصول ذلك الرتل العسكري، وتأكدت من تكرار مروره، يومًا تلو يوم، سجلت كل ملاحظاتي لإنجاح العملية.

عدت إلى علي أخبره الخطة وأريه الخريطة، وبعد مشاورات بيننا اتفقنا على إعداد ثلاث عبوات ناسفة، واحدة منها بحجم صغير ستكون هي الطعم الذي سيوقف الرتل العسكري الصهيوني ويجبر من فيه من الجنود على الخروج من سياراتهم المصفحة لتمشيط المنطقة الملغومة بعبوتين أخريين لم تنفجرا بعد خشيتهم على حياة الصهاينة مستقلي السيارات غير المصفحة ستجبرهم على أن يتعاملوا بهكذا إجراءات.

بدأ العمل بجدٍ واجتهاد لإتمام العبوات الثلاث التي عملها من خلال هواتف خليوية مرتبطة بكل واحدة منها، وهذا يعني مضاعفة التكاليف المالية في هذه المهمة؛ لذلك اضطررنا لتوفير بعض الشيء واستخدمنا أجهزة خليوية مستعملة في إتمام مأربنا، تم تجهيز العبوات اللازمة، ووصل كلٌ منها بجهاز خليوي مستقل، لكن بطارية الخليوي الخاصة بالعبوة الصغيرة غير متصلة بعد، أما الجهازان الآخران فهما بأتم الجهوزية، ولكن تم إيقاف تشغيلهما إلى حين زرع العبوات الثلاث في مكان الكمين.

انتقلت مع علي أحمل العبوة الصغيرة واعتلينا سطحه، وذهب لسرقة بريئة من شقيقه يوسف يريد بطارية هاتفه.

وعاد إلي، وكنت قد سبقته إلى مخدع الأرانب التي يشرف على تربيتها كفاح أحد أشقائه أيضًا، اقتحم خلوتي مع الأرانب، كانت البطارية التي جلبها حديثة الشحن وبها شحنات زائدة، ما إن وضعها في جهاز الهاتف حتى انفجرت العبوة نتيجة عمل الخليوي مباشرة دون إشعار مسبق. كانت النتيجة هائلة قياسًا بحجم العبوة الصغيرة مقارنة بغيرها،

وكانت حصيلة التفجير الذي انبعث منها كسر يدي بعد أن صفعت باب العبوة الذي فك وفصل نتيجة ضغط المواد المحترقة في جوفها. إضافة إلى إصابة علي في أحد أصابع يده بواحدة من الشظايا وإصابات توزعت على الأرانب التي شاركتنا الحادثة، وكان في صفوفها قتيلان!

خرجت من خم الأرانب إلى باحة السطح أحمل وجعي معي، صعد إلى مكاننا أبو عمار شقيق علي الأكبر، وبدأ يساعد علي في إزالة آثار الانفجار، فيما كنت أنا جليس أرجوحة على السطح أتصبب فيها عرقًا وأحبس فيها كل وجعٍ وآه.

ما إن أنهيا ترتيب المكان خشية وصول ضيف غير مرغوب به حتى خرجت مع علي وأبو عمار بسيارة الأخير إلى مستوصف الرحمة الذي لا يبعد كثيرًا عن مكاننا. وخلال الطريق كان علي يحاول أن يقلل من أثر الكسر في يدي فقد ارتسم على وجهي علامات توحي بأنني أحتضر، وكنت بين الفينة والأخرى أتغيب عن الوعي، وعلي يصفعني بكفه، وما أن وصلنا قسم الطوارئ في المستوصف حتى بدأت الأسئلة التطفلية من قبل بعض الممرضين عن سبب الإصابة، ولكنّ أبو عمار كان حذرًا في إجابته لأسئلتهم، بدأ العلاج على أية حال، وخرجت من المستوصف بجبرٍ من جبس لف يدي المكسورة.

في هذه الأيام صار لزامًا على "مليشيات الفتح المسلحة" توحيد مجموعاتها في إطارٍ عام ينظم صفوفها وخصوصًا بعد زيادة الملتحقين بتلك المليشيات.

كانت هناك مخاوف من أن تخرج هذه المليشيات عن المسارات التي كانت ترسم لها من قبل قياداتٍ نافذة في حركة فتح، فأمسى واجبًا على تلك القيادات دمج جميع المجموعات المسلحة المنضوية تحت اسم "مليشيات الفتح المسلحة"، وصهرها في إطار منظم يعزز من الالتفاف الشعبي حول حركة فتح بعد تدني التأييد لها نتيجة ما كان من "فتح" وقياداتها في أوسلو وما جاؤوا به منها.

اجتمع قادة تلك المجموعات في مخيم بلاطة في واحد من أيام الاشتباك وقرروا إنجاز المقترح، ووضعوا اسمًا للمشروع وقائدًا عامًا له، كان اسم المشروع القادم (كتائب شهداء الأقصى)، أما قائده العام فهو ناصر عويص وبويع من المتواجدين، كان من بين أصحاب البيعة ياسر البدوي، محمود الطيطي، ماجد المصري، وأحمد أبو خضر، مؤيد جميّل "السنفور"، رائد الكرمي ومنصور شريم.

خلال إصابتي تلك تعذر عليّ القيام بكامل الأعمال التي كنت أُؤديها قبيل الإصابة، وعليه فقد أتيح لي جزء غير يسير من أوقات الفراغ الذي كان من نصيب إحدى المقاهي القريبة من منطقة سكناي، هي مقهى العاصي والتي كان في إدارتها حينها حمودة العاصي، وهناك كنت ألتقي مع علي وأفراد المجموعة التي أخبرني بها والذين عرفتهم خلال فرصٍ متفاوتة ودون علمي بأنهم معنا في صف المجموعة.

على إثر الانفجار الذي أصابني مع علي والأرانب؛ بدأت عيون الشك تحدق تجاه سطح بيت علي، وصار حديث كل أصحاب الفضول

ومحبي الاستطلاع والذين ساقوا بتساؤلاتهم تلك لمكان الحادث بعض عملاء العدو؛ أجبر علي على إخلاء سطحه من أي مواد أو أدوات نستخدمها في إعدادنا للعبوات.

أحضر علي سيارة بيضاء اللون بلوحات أرقام صهيونية، وكانت تلك السيارة تحت تصرفنا على الدوام، وتعود في ملكيتها إلى أحد أفراد المجموعة والذي يدعى سامر الحشاش، قمنا بنقل جميع مفرغات السطح إلى حقيبة السيارة، واستخدمت السيارة فيما بعد كمخزن متنقل لأدوات علي ومعداتي.

رغم أن سامر لم يبخل علينا أبدًا في استخدام سيارته إلا أننا كنا نقتصر في استخدامها لكل طارئ وضروري، فطائرات العدو لم تكن تفارق أجواء نابلس، ولم يكن يمر أسبوع علينا دون خبر اغتيال لواحدٍ من نشطاء المقاومة المسلحة وقيادة الانتفاضة.

رويدًا رويدًا، ومع تصاعد عمليات إطلاق النار وتفجير العبوات المزروعة على أطراف الطرق؛ بدأ المستوطنون تقنين استخدامهم للشوارع الرئيسية واستبدلوها بشوارع التفافية أخرى بعيدة عن رصاص المقاومة المسلحة ويصعب على زارعي العبوات غرس بذارهم فيها.

قرابة الساعة الثامنة صباح اليوم الذي دعي فيه لخروج مظاهرات شعبية تجاه شارع القدس بمناسبة يوم الأرض؛ ذهبت أنا وعلي ومعنا عبوتان تم تحضيرهما من قذيفتي هاون سبق أن أحضرناهما من رام الله، قمنا بوصلهما بأجهزة هاتف نقالة. كانت يدي على حالها مقيدة بالجبس،

أما خطأ الأمس فقد أحسن في تأديبنا وأعطانا شيئًا من الدروس والعبر التي كفتنا إلى حد ما بأن نتعاطى بحذر مع تفاصيل هكذا مواقف.

سرت مع علي إلى الأماكن التي عادة ما تتوقف الجيبات الصهيونية فيها لمنع تقدم المتظاهرين لمعسكر حوارة والشوارع التي يستقلها المستوطنون.

بدأنا غراسنا وزرعنا للعبوتين، وما إن شارفنا على الانتهاء حتى وصلت لمكاننا سيارات لأجهزة أمن السلطة، ومباشرة وصل إلى الذهن أن هناك أحدًا من سكان البيوت المطلة علينا قد وشى بنا إلى هذه الأجهزة، وهناك حدثت مشادة كلامية بيننا وبين أفراد أجهزة السلطة، وكان مجموعهم من جهاز الأمن الوقائي.

انتهت المشادة عند وصول ناصر عويص وبعض من رفاقه للمنطقة، وعمل ناصر كوسيط لتهدئة الموقف، وطلب منا إلغاء الكمين والعودة أدراجنا بصحبة العبوتين، وهكذا حدث.

انعزل علي مع أحد الضباط بصحبة ناصر عويص، وطلب مني اقتلاع العبوات وإعادتها إلى السيارة التي صحبتنا للمكان، رغم أن يدي الثانية معطوبة إلا أنني أتممت طلب علي بيدٍ واحدةٍ فقط.

بات صعبًا عليّ احتمال تقييدي بلفاف الجبس، حملت أسطوانة قصٍ كهربائية "ديسك"، وتوجهت إلى أخي الأكبر نمر وطلبت منه أن يحررني من لفاف يدي اللعين، كانت الساعة متأخرة من الليل، رغم أن طلبي ليس من اختصاصه طاوعني فيما رغبت وبدأ بقص الجبس.

تنفست مسامات يدي الحرية، وفي اليوم التالي خرجت إلى جارتنا (أم جمال فاعور) التي تحسن العلاج العربي، بدأت تعقد معي جلسات علاجٍ طبيعي تدلك فيها موضع الكسر الذي لم ينتهِ الجبس من جبره.

انتهيت من حاجتي لأم جمال وجلساتها، وعاودت تنفيذ طلبات ومهام علي وأوامره العسكرية.

طلب مني زيارة قرية الساوية التي تقع جنوب مدينة نابلس لاستلام قذيفتي مدفعية من إحدى النقاط الميتة فيها.

ركبت سيارة أجرة وانطلقت بها إلى النقطة التي حددها لي، وهناك استلمت الأمانة التي كانت في انتظاري مموهة بكيسٍ أسود.

وضعتها بين قدميَّ في الكرسي الأمامي بجانب السائق، وسلكنا طريق العودة، وأثناء مسيرنا كان قد أقيم حاجز تفتيش صهيوني بشكل مفاجئ، بدأ أحد الجنود بإعطائنا إشارة تقضي بأن نتوقف للتفتيش، طلبت من سائق السيارة زيادة السرعة وأن يوحي للجندي أنه لم يَرَّ إشارته، وعجل إلى شفاهي ذكر الله بأن يكف شرهم عنا، واستجاب الله دعائي، فما إن تجاوزنا الحاجز حتى اقتنعنا أن الجنود عليه قد ملوا انتظار صيدٍ يعودون به إلى قواعدهم، فلم يهموا بمطاردتنا واللحاق بنا.

وصلت إلى علي بما ادخرت له من هذه الرحلة، وبدأنا على الفور بإعادة تهيئة القذائف وتحويلها إلى عبوات ناسفة.

كانت الطريقة التي قمنا بها في تجهيز العبوات هذه أصعب من

سابقاتها، أعصابٌ مشدودة في كل حركة وسكون، ولكن الله قدّر لنا التمام في المهام.

في اليوم التالي كنتُ قد أخرجت من سطح بيتي العبوات ليسلمها علي لإحدى المجموعات المسلحة.

في هذه الأثناء كنا نمتلك سلاحي الكارلو، ولكن استخدامهما بات لا يُذكر، فالمستوطنون أصبحوا بعيدين عن مدى نيران الكارلو؛ لذلك اكتفينا باستخدامهما في الحماية الشخصية التي أصبحنا مجبرين عليها بعد الغموض الذي لف عملية اغتيال الشهيد القسامي محمود المدني الذي قتل برصاص قوة من المستعربين تسللوا لمكان تواجد الشهيد بغطاءٍ ناري تولت بسطه نقطة المراقبة في جبل جرزيم بتاريخ 09/ 02/ 2001م.

كانت معظم الأجهزة الخليوية التي نستخدمها في عبواتنا وحتى في الاتصالات بيننا أجهزة ثابتة الرقم، وكان عدد الأجهزة الخليوية التي تتبدل شرائح الأرقام فيها قليلًا لا يكاد يذكر، وإمكانية الحصول على واحدٍ منها يحتاج لتكاليف باهظة، فنحن عادة ما نلجأ لشراء الأجهزة المستعملة لتوفير بعض من المال لغرضٍ آخر، كنت أحاول أن أبقي في حافظتي عددًا من هذه الخليويات وأعمل على تحديد أدناها استقبالًا للاتصالات والرسائل، وأستبعد من الاستخدام أي خليويٍ يزيد الطلب على رقمه!

حضر علي إلى مختبري أعلى البيت، وهذه المرة بصحبته شابٌ يدعى "نضال"، وهناك عرفني عليه وأخبرني أنه سيكون في مساعدتي وتحت طلبي وخصوصًا في مقاسمتي التراد على المشاغل التي نأتي منها بالمواد الخام.

مع بروز اسم (كتائب شهداء الأقصى) بين جموع العامة وسهولة التواصل بين مسؤولي المجموعات المقاتلة في صفوفها وانخراط كتائب القسام وسرايا القدس الأذرع العسكرية لحركتي حماس والجهاد الإسلامي؛ في حكم الشارع بعد أن تبين للجميع أن الانتفاضة مستمرة، وأن مشروع التنسيق الأمني غُيب إلى أجلٍ غير مسمى؛ أصبح التعاون بين نشطاء الانتفاضة بكافة ألوانهم شيئًا يزيد من القوة الفلسطينية في مواجهة العنجهية التي ينتهجها كيان العدو!

في تلك الأيام توجهت برفقة علي إلى البلدة القديمة في نابلس، وهناك التقينا بشاب يدعى "أسامة جوابرة"، وقد أُرسلنا إليه لاستلام مادة يدوية الصنع، شديدة الانفجار تداول اسمها محليًا بمادة "أم العبد"، وهي موازية في قوتها إلى حدٍ ما مادة "T.N.T".

كان أسامة والملقب بـ"النانى" بهيّ الطلعة جميل المحيا، أعطانا من منتوج يديه خمس كيلو غرامات.

ودعناه بعد أن أعلمنا أنه ينوي إرسال كمياتٍ أخرى لنقاط تسليم خارج البلدة القديمة.

عدت مع علي إلى المخيم وأمنا "أم العبد" في غرفة الغسيل بسطح بيتي.

توجهنا إلى مقهى العاصي، احتسينا كوبين من الشاي، ومن هناك انطلقنا إلى أحد محال بيع قِطع الألومنيوم، اشترى علي قضيب ألومنيوم بطول مترٍ واحد، حملناه وتوجهنا به إلى أحد مشاغل الحديد (مخرطة)،

وهناك بدأ علي عمله برفقة فني المخرطة متجاهلًا وجودي وأنا أتابع من بعيدٍ أداء كل واحدٍ منهما!

خلال العمل المكثف داخل المخرطة قدم إلى المكان شخص يحمل كيسًا أسود، استلم علي الكيس وغادر الذي أتى به.

قادني الفضول لفتح الكيس الذي ركنه علي إلى جنبه، كان في أحشاء الكيس بندقية من نوع (M16)، سألتُ علي عن الموضوع بعدما ترك عامل المخرطة لإتمام بعض ما قدم له من قياسات، أجابني علي أنه بصدد إنشاء كاتم للصوت يستخدم في بندقية (M16)، وطلب من أحد أصدقائه إحضار البندقية لكي يجرب المنتج بواسطتها، وما إن أنهى إنتاجه للكاتم حتى زاوج بينه وبين الـ (M16)، وتوجهنا مباشرة إلى ميدان التجربة في سهل عسكر، وفعلًا نجح المنتج وأدى مهمته على أكمل وجه، وفي اليوم التالي أعيدت البندقية برفقة كاتم صوتها المصنع يدويًا إلى مالكها الأصلي!

بعدها بأيام طلب علي مني إعداد عبوتين ناسفتين على أن أستخدم فيهما مادة "أم العبد" التي سبق وجلبناها من "النانـي"!

أرسلت لعلي إشارة أنني أتممت طلبه، فحضر إلى سطح بيتي يرافقه محمود الطيطي وإياد أبو حمدان، ومعهم سبع كيلوغرامات من مادة "أم العبد"، جلسوا في ضيافة مختبري المتواضع في غرفة الغسيل، زيارةٌ قصيرة جدًا همّوا بعدها بالمغادرة بعدما أبقوا في أرض الغرفة ما جلبوه معهم، وأخذوا العبوات التي جاؤوني لأجلها!

رغم أن مجال إنتاجنا قد اتسع إلا أن العمل كله دون مردودٍ مالي، وهنا كان لابد من البحث المستمر لإيجاد بدائل بالحد الأدنى من التكاليف المالية.

ها قد عدت بالذاكرة إلى ما تعلمت في معهد قلنديا حول الغاز المستخدم في مهنتي وإضافة ما تعلمته من علي عليه حتى توصلت إلى إمكانية إنتاج عبوة ناسفة من أسطوانات غاز الطهي، وبدأت عمليًا أخرج كل ما تعلمته خلال الفترات السابقة حتى أقنعت علي هذه المرة أن يحسن معي الفكرة، واستمر العمل لساعات بيننا وتم إنتاج أول عبوةٍ ناسفة من أسطوانات غاز الطهي دون الحاجة لاستخدام المواد المتفجرة فيها!

بعد إتمام عملية التصنيع، ذهبنا إلى ساحة مخلاة بالقرب من مكب العدوي، وهناك فجّرنا عبوة غاز الطهي، وكان الانفجار الناتج حسب الطلب، وتم على إثره اعتماد المنتج الجديد.

كان تحويل أسطوانة غاز الطهي إلى عبوة ناسفة نقلة نوعية تضاف لما أنتجته أيدينا.

في وقتٍ لاحق وبعد عدة تجارب وجدنا أن استخدام أسطوانات الهواء المثبتة بشاحنات النقل هي أفضل الأجسام التي قد تستخدم لصناعة عبوة جانبية موجهة!

هممت بإعداد عبوة موجهة من أسطوانة هواء، وبعد أن أنهيت عملي وجهزت العبوة انتظرت علي بأن يأتيني بمن يتولى شأن العبوة

الجديدة، مرت الساعات، حضر علي وصاحبه، كان صاحبه هذا يكنى بأبو فادي، طلبت من علي أن أشارك أبو فادي كمينه فسمح لي بعد الذي واجهته به من إلحاح.

خرجت بصحبة أبو فادي وثالثنا العبوة الموجهة، كان أبو فادي قد رصد صيدًا لكمينه في شارعٍ التفافي بمنطقة زواتا بنابلس، هناك نصبت العبوة ومُدت أسلاكها لمنطقةٍ مشجرة كنا قد عزمنا على الرباط فيها لانتظار آلية عسكرية من آليات العدو!

بدأت تتقدم إلى كميننا دبابة تتقدمها جرافة عسكرية، ما إن وصلت الجرافة مقابل نصب العبوة حتى دوى الانفجار الذي أدى إلى إعطاب الجرافة، وعلى خلفية الانفجار بدأ إطلاق نارٍ عشوائي يصدر من رشاشات النار المثبتة على الدبابة المرافقة للجرافة المعطوبة بفعل عبوتنا!

انسحبنا من المكان بصعوبة بالغة، قطعنا مسافة طويلة سيرًا على الأقدام، تفرقنا بعدما أمنّا نقطة انطلاق تحمل كل واحدٍ من وإلى منطقة سكنه!

بعد النجاح الذي كان مني ومن علي في إعداد عبوة غاز الطهي الأولى التي بلغ أمرها محمود الطيطي، أرسل إليّ الطيطي ثلاث أسطوانات غاز طهي، وما إن وصلت سطح البيت عندي وفي ظرف ساعاتٍ معدودة كانت أسطوانات الغاز جاهزة للتفجير، وخلال دقائق من تجهيزي لعبوات غاز الطهي الثلاث رُدت البضائع إلى أهلها، وطلبت من المجموعة التي أرسلها الطيطي لأخذ العبوات أن يعلموني مكان كمينهم فيها وموعده

حتى يتسنى لي أن أكون في منطقة يتضح لي منها فعالية ما أنتجت يداي.

وفي نفس اليوم الذي أُخذت مني فيه العبوات؛ توجهت أنظاري إلى منطقة "المحرقة" بالقرب من بيت فوريك حيث أخبرني زارعو العبوات بأن كمينهم ليلًا في تلك المنطقة، وما إن وصل تلك المنطقة الملغومة رتلٌ عسكري من آليات العدو حتى توالت الانفجارات، وهرعت قوات مساندة لهذا الرتل، ووصلت المنطقة طائرة هيلوكوبتر لإخلاء الجرحى.

بعيد ساعات أعلن في النشرات الإخبارية عن إصابة ثلاثة جنودٍ صهاينة في مكان وزمان انفجار عبوات الغاز الثلاث التي أعدت بيدي!

علم علي بأن عبوات الغاز أدت فعلًا مميزًا في المهمة التي أشرف عليها الطيطي ومجموعة تحت قيادته، وبدأ علي يفكر في طريقة تطوير هذا النوع من العبوات حتى استحدث منها تصنيفات تفريغية وانشطارية!

سبق ذلك في فترة ما بعد إصابتي تعارفي وعلي على واحدٍ من أصحاب ورش الحدادة الذي يدعى "شوقي" مسرًا لنا بأن ورشته مفتوحة لنا وعلى مدار الساعة!

8

كان علي يجري من الأيام الأولى للمجموعة اتصالاتٍ دائمة لتوسيع دائرة العمل الذي نجهد فيه، وفي أحد الأيام نسق له خالد أحد أصدقائه العاملين في مدينة طولكرم لقاء مع واحدٍ من قيادات الجهاد الإسلامي العسكري يدعى "الشيخ أسعد".

حددنا يومًا للخروج إلى طولكرم، وقطعنا طرقًا التفافية وعرة أُجبرنا أن نتخلى في بعضٍ منها على ترك سيارة الأجرة وركوب أقدامنا فرارًا من قدرٍ إلى قدر.

في طولكـرم وصلنـا عيـادة أحـد مطهـري الأطفـال والـذي كان عـلى علاقـة طيبـة بعـلي، أمضينا مـا تبقى من يومنـا الأول في العيـادة وبتنـا الليلة فيها!

في الصبـاح توجهنـا إلى عنـوان خالـد، دخلنـا بيتـه وأكلنـا في مكرمتـه طعـام الغـداء، وبعـد سـاعات وصـل الشـيخ أسـعد وبرفقتـه شـخصٌ آخـر عـرف عـن نفسـه باسـم "جـاسر رداد".

تركـز الحـوار والحديـث مـع الشـيخ أسـعد أمـا رداد فبقـي منصتًـا ليـس إلا، كان الشيخ أسـعد مفوهًـا في حديثـه، يزيـدُ في كل كلمـةٍ الشـحنات الإيمانيـة في صدورنـا، شـحن همتنـا كأننـا في ميـدان نـزال!

قبـل مغـادرة الشيخ أسـعد ورفيقـه منـزل خالـد أخبرنـا بأنـه سـيوفر لنا المـال الـلازم لدعـم عمليـة إنتاجنـا في لقائنـا القـادم معـه والـذي اتفقنـا أن تجهز فيـه المعـدات اللازمـة لإعـداد سـيارتين مفخختـين سـتنطلقان مـن طولكـرم إلى كيـان العـدو!

بعـد يـومٍ مـن لقائنـا الشـيخ أسـعد في طولكـرم وصلنـا لنابلـس، بدأنـا عـلى الفـور اعتصـار أوقاتنـا لجمـع العـدة اللازمـة التـي سـنجهز فيهـا سـيارتي طولكـرم بعـد أيـام، ومـا كـاد يمـر اليـوم الخامـس عـلى اتفاقنـا مـع الشـيخ حتـى وصلنـا نبـأ بواسـطة خالـد يخبرنـا فيـه بـأن الشـيخ أسـعد تـم اغتيالـه!

في ذلـك الوقـت علمـت أن اسـم ذلـك الشـيخ ذي الوقـار هـو أسـعد دقـة، وفي ذلـك الوقـت أيضًـا فقدنـا أصـلًا كنـا نـرى أننـا سَـنقوى بـه.

مـرت أيـام عـلى اغتيـال "أسـعد دقـة" ولم يـرد أي بـلاغٍ عـن خليفـة لـه

يكمل معنا ما كنا قد هيأنا أمرنا للخروج إليه!، لكن من سره زمن ساءته أزمان، وعلى الله قصد السبيل.

بعد إحباطٍ لأيام أعددت ومعي علي صواعق تفجيرٍ مرتبطة بهواتف خليوية ننوي تسليمها لنقطة ميتة، في اليوم الذي أتممنا إنجاز الصواعق صودف إقامة مهرجانٍ تأبيني لشهداء حركة حماس في نابلس، كان مهرجان حماس هذا بعد اغتيال عددٍ كبيرٍ من قياداتها في المحافظة منهم جمال منصور وجمال سليم وصلاح دروزة وإبراهيم بني عودة، وعلية كان من المتوقع أن يكون المهرجان حاشدًا جدًا وبفقرات مميزة حرضتني أنا شخصيًا على المشاركة فيه أو بجزءٍ منه على الأقل.

فرغت أنا وعلي من العمل، وطلبت منه أن نذهب قبيل تسليم الصواعق لنقاطها إلى أرض المهرجان في الملعب البلدي، رفض علي في البداية وكانت حجته المعلنة لي خشيته أن نتأخر في تسليم صواعق التفجير لمن يريد إتمام عبواته فيها، ألححت عليه حتى لبّى مطلبي وخرجنا سويًا ومعنا الرفيق مراد نصر الله الذي انضم إلينا بباب المخيم.

اتجهنا ثلاثتنا وكان علي يحمل الصواعق في كيسه، وصلنا الملعب البلدي بغية المشاركة في مهرجان التأبين، وعلى بوابة الملعب كانت هناك لجان تفتيش أفرزها المنظمون للمهرجان، وكانوا مميزين بلباسهم وقبعاتهم. جاء دورنا إلى تلك اللجان، طُلِبَ مني ومن نصر الله الدخول إلى ساحة الملعب إلا أننا آثرنا البقاء مع علي وخصوصًا بعد رفضه أن يعطي عضو اللجنة الكيس لتفتيشه، ألح الأمين بأن يرى ما في الكيس، ولم يطل عناد

علي في قبول إعطائه إياه، ما إن وصل الكيس يد عضو اللجنة حتى صرخ نصر الله بدعابة لم يكن يعي ردة الفعل منها.

- دير بالك تنفجر فيك!

ألقى عضو اللجنة الكيس أرضًا، وفر فزعًا يصرخ: عبوة، عبوة، عبوة.

بدأ ثلاثتنا يحدق كلٌ منا بالآخر، حضر إلينا مسئولو لجان التفتيش تلاهم بعض منظمي المهرجان، انهالوا علينا بالأسئلة التي توحي للمسؤول أنه متهم بالتخابر مع العدو، بدأنا إجراء اتصالاتنا مع راغبي منتجاتنا من جناح حماس العسكري حتى أتى بعض منهم، وتم حل الإشكال مع "المحققين" المستجدين.

تدخلت أجهزة أمن السلطة الفلسطينية بغية أن تُضفي بصمتها الأمنية على الحادثة، طلبت منا ومن لجنة التفتيش الحمساوية تسجيل إفاداتٍ شرطية بالحادث، حتى تقفل القضية بغطاءٍ حكومي _كما وصفه لنا ضابط من تلك الأجهزة_.

خلال كل ما جرى لم يتنازل علي عن الكيس، كان دائمًا بيديه إلى الوقت الذي سلم ما فيه لأصحاب النصيب الذين تأخرنا عنهم بغير قصد!

رغم أن حكم الشارع أمسى في يد المقاومة بكافة ألوانها إلا أن ذلك الحكم لم يكن يوجه سطوته إلا للعدو الخارجي، أما أصحاب الجنايات في ذلك الوقت فهم في تنامٍ سريع، انخفاض الردع ضدهم زاد من قوتهم

داخل المجتمع الفلسطيني في تلك الفترة الزمنية فأدى لظهور تيار منهم كطابورٍ خامس يجهد لتحييد الانتفاضة عن مسارها الصحيح!

اضطر ناشطو المقاومة إلى توجيه جزءٍ من قوتهم للداخل الفلسطيني ردعًا لأولئك الذين استغلوا انشغال الناس بالانتفاضة فأفسدوا مصالحهم، الهدف من تلك القوة فرض بعض القانون "الإنساني" الذي تغير بغياب الرادع!

كنت أتنزه دائمًا عن مشاركة النشطاء بأعمالهم تلك، لم أستطع استيعاب محاكمة أي خارج عن القانون حتى لو كنت أنا الحاكم، كل وجهاتي وتوجهاتي نحو عدوٍ حكمتُ عليه منذ عرفتُ بجرمه أن يعدم على يدي! أو يخرج من الأرض التي بسرقته لها أورثني المخيم وما فيه من ظروفٍ قاسية.

ورغم تحفظي على كل خطوة كان يقوم بها نشطاء المقاومة تجاه العدو الداخلي وعزوفي عن المشاركة فيها إلا أنني كنت أشعر أنني قد أكون في دائرة استهداف من سيخرجون للانتقام يومًا من هؤلاء النشطاء!

اضطررت إلى عمل صبياني قادني لشراء مسدسٍ من دمى الأطفال يشبه إلى حدٍ ما المسدس الحقيقي لأبدأ بوضعه تحت ثيابي مظهرًا جزءًا منه حتى يستشعر كل مترصدٍ لي بأنني مسلح على الدوام.

لم يقف علي للحظة عن الابتكار الذي سَيَرنا هذه المرة لإنجاز عبوةٍ ناسفة تعمل بمبدأ اللغم الأرضي الذي ينفجر حال مُسَ من

أحد، وبعد إتمام الإنجاز حملنا لغمنا الأرضي وزرعناه في الطريق المؤدية لمستوطنة "ألون موريه".

كنا قد أبقينا أعينًا لنا لملاحظة المكان الملغوم.

مرّ اليوم الأول وتبعه الثاني وخلالهما لم يصل للطريق الملغوم أي آلية عسكرية أو سيارة مستوطنين.

في اليوم التالي وصل الغالي، وصل للمنطقة المفخخة جيب عسكري صهيوني، وما إن عبر فوق أداة الاستشعار في لغمنا اليدوي حتى فجّر اللغم من تحت الجيب.

على إثر الانفجار وصلت للمكان طائرة حربية حلقت على علوٍ منخفض، ووصلت أرض الواقعة آليات عسكرية أخرى لتمشيط المكان.

مرّ الإعلام العدو الصهيوني على الواقعة دون أن يتحدث عن نتائج له رغم أن مندوبًا لنا في المنطقة عاين توابع الانفجار، وأكد لنا أنه تم إجلاء جنود جرحى من الموقع بواسطة الطائرة التي نزلت فيه.

رغم كل الجهد الذي يبذل من علي في إعداد العبوات على أشكالها إلا أنه كان يخصص وقتًا من نهاره للعمل مع إخوانه في ورش البناء، فما يحصله هو من عمله نصرفه معًا في إنجاز طلبات مجموعات المقاومة على أشكالها التي ما إن يبلغها خبر إنتاجٍ جديدٍ لنا حتى يرسلوا لنا رغباتهم في اقتناء كل مستجد، اللغم الأرضي رغم أن التكلفة ليست باهظة مقارنة بالعبوة العاملة على الهاتف أو عبر الأسلاك إلا أن أهدافه كانت محصورة

في مناطق محدودة جدًا؛ لذلك لم نكرر إعداد ألغام أرضية إلا لسبع مرات فقط ليتولى زراعتها من أبقيناها لهم في نقاطٍ ميتة!، أما كواتم الصوت التي سبق وأعدها علي لبندقية (M16) فتكرر صنعها هي الأخرى لعدة مرات؛ لأن لا حاجة إليه في تلك المرحلة الزمنية من عمر الانتفاضة على الأقل، فالأسلحة النارية خفيفة بشكل عام لا تحدث تأثيرًا يذكر في الآليات العسكرية الثقيلة التي يتحصن فيها العدو!

استمر تنقلي ومبيتي في دائرة مغلقة حوت كلًا من: منطقة مخيم عسكر، وفيها أنتقل بين منزلي سامر وعلي إضافة لمشغل فارس للألمنيوم، ومنطقة مخيم بلاطة وفيها أتنقل بين مقهى العاصي الشعبي وأحيانًا في بيت من بيوت آل مرشود الذين كان مراد من يؤمن لي استضافتي عندهم، أضف إلى ذلك كله نقطة الانطلاق لي وهي منزل والدي!

في غمرة الأحداث المتسارعة، قمت مع علي بإعداد ثلاث عبواتٍ ناسفة، وخطط علي لاستخدامها في هدفٍ تم رصده له بالقرب من قرية صرة. كانت الخطة تقضي بأن يتم تفجير العبوات الثلاث بعد وصول فرق الصيانة التابعة لجيش العدو إلى مكان يتواجد به صنبورٌ رئيسي للتحكم بالمياه الواردة للمستوطنات القريبة من المنطقة حيث سيتم استعجال زيارة فرقة الصيانة تلك من خلال إغلاق الصنبور والتخريب المتعمد لمكان وجوده.

كان التخطيط مقنعًا إلى حدٍ كبير، لكن ما إن زرعت العبوات وأغلق الصنبور، وضُرب محيطه، ومرت أيامٌ ثلاثة دون أن يأتي للمنطقة أيٌ من أفراد العدو.

على ما بدا لنا أن إغلاق الصنبور بشكلٍ مفاجئ مبعث شكٍ اختار فيه العدو الوقاية على العلاج، اكتفينا بالأيام الثلاثة، وعدنا بالعبوات بعد اقتلاعها حتى يأذن الله لنا بكمين آخر نستخدمها فيه!

خلال تغيبنا عن الأخبار العامة خلال أيام الكمين الذي لم يتم؛ أُدرج اسمي واسم علي مع عشرات الأسماء في قوائم تم نشرها في الصحف كمطلوبين للأجهزة الأمنية الصهيونية إما بموتٍ أو اعتقال.

لم تكن مسألة الوعيد هذه رادعًا لنا فمعها بدأنا اتخاذ شكل جديد في التخطيط والإعداد والتنفيذ والإعلان عن تبني العمليات.

قبل الإعلان عنا كمطلوبين لم يسبق لنا أن أعلنا تبنيًا لأي عملية نفذناها، الأنباء التي تردنا تؤكد لنا أن هناك من يتبنى عمليات تفجيرٍ نحن من قام بها، والأنباء مؤكدة أن هناك من ينظر لتلك العمليات على أن مجموعة تابعة له هي المنفذة، ولذلك كان يُنظر له كفدائيٍ وجب على كل حرٍ في العالم أن يدعمه!، أما حقيقة الأمر أن كل تكلفة تلك العمليات من عصارة جيوبنا وعرق جباهنا، والحاجز الذي كنا نستتر فيه خشيةٌ من رياءٍ أو غايةٌ في غطاءٍ أمني قد أُزيل بمجرد أن أعلنت أسماؤنا أننا شركاء في عسكرة الانتفاضة!

حضر علي إلى مختبري وأخذ العبوات الثلاث ليؤهلها لتكون جاهزة لكمين قادم، وتم تهيئتها للارتباط بهواتف خليوية.

بعد أيامٍ حضر علي ليأخذ العبوات هو ومجموعة التحقوا بنا

للمساعدة مؤخرًا، وتوجهوا بالعبوات إلى هدفٍ تم رصده مسبقًا في منطقة "زواتا" بمحافظة نابلس، وهناك بدأت عملية زرع العبوات ووصلها بالهواتف النقالة المستعملة، وخلال غرس العبوة الأخيرة منها بيديّ علي؛ إذا برسالة تصل إلى الهاتف الذي كان بديل الرنين فيه تشغيل صاعق التفجير ومنه إلى انفجار العبوة وإصابة علي بشظاياها في كامل جسده الطاهر، وطال بعضًا من تلك الشظايا عينيه، وأصيبَ أحد المشاركين في المهمة بشظية في قدمه.

على عجالة تم إخلاء مصابي الحادث، وفكك الكمين بمشهدٍ لحظيّ، نقل علي إلى المستشفى العربي التخصصي في رفيديا، وما إن وصل إلى طوارئ المشفى حتى علمت بنبأ إصابته تلك، وعجلتُ إليه سائلًا عن حاله لأعلم أنه بوضعٍ حرج!

بدأ التوتر يخيم فوقي، أجريت اتصالاتي للسؤال عن مصير المصاب الثاني الذي اطمأننت عنه أن إصابة قدمه كانت طفيفة، وأنه عولج في قسم الطوارئ في مشفى آخر وخرج منه على الفور، مرت الساعات وتتابعت العمليات الجراحية لعلي والتي بعدها أخرج معصوب العينين مسجى بغطاء المشافي اللعين لا حراك فيه، وأدخل غرفة من غرف قسم العناية المركزة في المستشفى.

سألت الطبيب الذي أشرف على العمليات الجراحية، فبدأ يشرح لي ولسامر حالة علي الصحية بالتفصيل، وكان ما كان في شرحه الذي يجتاح الصدر بالتشاؤم، فقد استقر وضع علي الصحي إلا أن هناك خطرًا محدقًا

ببصره الذي هو الآن بدونه، اختنقت من صراحة الطبيب المطلقة وناشدته كطفل صغير بأن يجهد في أي شيء ويرد لعليٍ بصره وعافيته.

في تلك الليلة بدأ أقارب علي ومعارفه التردد على غرفته، والسؤال عنه، وفي صباح اليوم التالي ردت إلى جسد علي الروح، ولكن البصر لم يشتق له بعد.

بدأ يحرك فمه للكلام، أطرافه تتحرك، ولكن الأقدام فقدت حراكها مؤقتًا، تحدث مع المتواجدين حوله ممن سمح لهم بدخول غرفة العناية عنده، صوته مبحوح بحةَ وجع وألم.

مرت عشرة أيام وعلي يعيش نصف وقته منها في غرفة العمليات في محاولات لإقناع بصره بأن يرتد لعينيه اللتين أشتاق أن يرى خلالهما!

مع إنهاء عمليات اليوم العاشر؛ فك الضماد عن عينيه، بدأ يبصر الأنوار من حوله، البشرى السارة بأن علي قد انتقل من مرحلة كاد بها أن يكون أعمى العينين إلى مرحلة هو الآن بها أغشى ينتظر رحمات الله أن تنزل في عينيه!

مرت الأيام وخلالها بدأ الغشي يفارق عيني علي رويدًا رويدًا، لكنه أصر أن يُبقي في عينيه بعضًا منه، عيناه صار لهما رفيق دائم نظارة بعدسات غليظة جدًا يكاد يثقل منها رأس أنفه!

خلال مكوث علي في المستشفى كنت مع زملاء المجموعة نتناوب على رفقته وحراسته وتلبية حاجاته وتنفيذ أوامره التي تضمن لخط الإنتاج الاستمرار في عمله.

كانت مناوبات الحراسة تمكن لعلي التواصل مع المجموعات التي ترغب في منتوجاته، فالمناوبون عليه كلٌ له تواصل مع عدة مجموعات من خلال أولئك المناوبين توصل لعلي ماهية حاجاتها ليوكل إلي إعداد تلك الحاجات.

طلب مني إعداد عبوة ناسفة وتسليمها إلى مجموعة ستكمن فيها بشارع يؤدي إلى مستوطنة "عموئيل" القريبة من بلدة صرة.

أبلغته في اليوم التالي أن طلبه أصبح جاهزًا، وفي أيدي المجموعة.

بعيد عدة أيام أبلغني أن أخبارًا أُذيعت في الإعلام العبري تفيد بأن عبوتي تلك أدت مهمتها، وأن هناك إصابات في العدو أُجليت من موقع انفجارها.

كان علي يحرك أقطاب مجموعته من على عرشه الذي لا يتمناه أي طالب سلطةٍ أو سلطان.

من على عرشه ذاك طلب مني استلام أسطوانتين ثقيلتين بوزن 40 كيلو جرامًا للواحدة من محمود الطيطي على أن أقوم بتحويلهما إلى عبوتين ناسفتين! تم الاستلام وبدأ الإعداد، وفي ظرف يومين أرسلت له أن التحويل تم، فأخبرني أن أرسل واحدة إلى محمود الطيطي بواسطة "أبو عهد"، والأخرى جاء شاب من عصيرة الشمالية يدعى خالد الشولي لأخذها من سطح بيتي بتوجيه من علي.

توجهت إليه بعد إتمام مهمات الاستلام والتصنيع والتسليم، وبعد ثوانٍ من الاطمئنان عليه أخبرني أن إحدى العبوتين قد أعطبت آلية

عسكرية بعد تفجيرها في منطقة زواتا، وأن شظايا الانفجار وصلت إلى مناطق نائية عن مصدره!

تم إخراج علي من المستشفى بعد التأكد أن حاله إن أُخرج إلى بيت أحد إخوانه لن يعطل تماثله للشفاء، وكان أن أخرجناه إلى بيت أخيه الكائن في بلدة كفر قليل القريبة من مخيم بلاطة.

وخلال مبيتي معه في مأمنه ذاك؛ طلب مني أن أحضر له أسطوانة ثقيلة بقطرٍ يناسب مع قذيفة الهاون لنستخدمها يومًا كقاذف لما لدينا من قذائف هاون وهما اثنتان لا ثالث لهما.

حظي الأوفر في العثور على طلب علي سيكون بكل تأكيد داخل مكب العدوي للحديد، وإلى هناك كانت خطاي، بحثت ولم يطل بحثي حتى وجدت طلب علي في أن أعود له بـ"جك" مفصول من جرافة!

عدت له ليثني على الذي جئته به، ويقدم إليّ بعض القياسات، ويعطيني بعض التوجيهات التي يريد أن أضيفها له على ذلك "الجك".

فارقته بغية مباشرة التنفيذ، وما أن أتم في الجك شيئًا حتى إليه به، ليردني بتوجيهٍ جديد لإضافة أو إزالة شيءٍ معين في ذلك الجك، وفي تنقلاتي تلك في ثلاثية عزلتي عن غيرها: محددة شوقي، مخرطة الحديد ومبيت علي.

مر شهر عليَّ منذ حملي الأول للجك حتى نهاية إعداد قاذف الهاون منه، لم أشعر بأيام ذلك الشهر إطلاقًا لازدحام العمل فيه!

أنهيتُ لعلي كل ما أمرني به بشأن الجك حتى أصبح قاذفًا، وبدأنا

بأمره وإشرافه في مبيته ببيت أخيه نعمل سويًا رغم وضعه الصحي في إعادة تأهيل القذيفتين اللتين في حوزتنا، وما إن تم تجهيزهما حتى أرسل للطيطي إشارة تنبئ متلقيها أن هناك منتجًا جديدًا نود أن تكون مالكًا له.

حضر الطيطي لمنزلي، واستلم مني بإيعاز من علي قاذف الهاون وقذيفتين له!

وفي نفس اليوم رُدَّ القاذف إليّ يتيمًا، فالقذيفتان كانتا قد نزلتا في ساح معسكر حوارة.

وساء مساء المنذرين! فقد أثارت عملية إطلاق قذيفتي الهاون تلك ضجة إعلامية في الأوساط الصهيونية، وهُوِلت باحتمالية تكرار شاكلة هذه العملية في الضفة التي يصعب تهريب السلاح إليها!

بعد انتشار خبر قاذف الهاون بين قيادات كتائب شهداء الأقصى وبلوغ الخبر لأبو بديع في رام الله أرسلت إلينا منه قذيفة "R.B.G" واحدة ووحيدة، ومع وصولها إلي كان علي قد عزم على هجر مأمنه ليشارك معي في بعض المهام التي قُوِيَّ على تحدي إصابته فيها.

أمسك علي قذيفة "R.B.G"، ولساعاتٍ يقلب فيها بين يديه يفكر في آلية استخدامها، أما أنا فكنت اقترح عليه مع كل شيءٍ يصلنا من أبو بديع أن نحول ذاك الشيء إلى عبوة ناسفة وخصوصًا بعد إتقاني صناعة العبوات الناسفة على أشكالها، لكنه لا يقف عند حد الرتابة الممل، بل يحاول كسر الروتين في كل مرة، وما إن أنهى لهوه بالمتفجرات حتى جهر لي بسر عقله!

كان ذاك السر مقترحًا في ظاهره الاستحالة، ولكن في باطنه ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]، علي قرر صناعة قاذف ينصب على الكتف على شاكلة قاذف "R.B.G" الرسمي، واستثمار القذيفة التي وصلتنا لذلك الهدف الذي أُعدت له في بداية المنشأ، وهو تفجير الآليات المصفحة بشكل جانبي!

توجهت إلى "مكب العدوي" للبحث عن "جك" جديد، بحثت لساعات حتى وجدت المطلوب الذي عاودت لعلي به.

تنقلت معه من خلال سيارة سامر في ثلاث ورش تناغمت خطانا في أراضيها مع الآلات "محددة شوقي، المخرطة، منجرة متواضعة داخل المخيم".

نتحرك بين هذه الثلاث وفي أيدينا "الجك" الذي سيكون يومًا كما نريد!

انتهينا من الورش والترداد عليها، حملنا كل الإكسسوارات المنتجة فيها حسب طلبنا إضافة للجك الذي صار مؤهلًا بعد طوال عمل ليستقبل تلك الإكسسوارات، وفي سطح البيت عندي وضع علي لمساته الأخيرة ليصبح في حيازتنا قاذف لقذيفة "R.B.G"، وعلى جهوزية تامة للمشاركة في سوح المواجهة القادمة!

زهدنا في أن تكون تجربة القاذف في القذيفة الوحيدة التي نملك فالبديل عنها مفقود، لذلك كان القرار بأن نبقي تجربة قذف القذيفة بالقاذف حتى نلاقي آليات العدو في مواجهة مباشرة، واكتفينا في المرحلة

تلك باستعراض سلاحنا الجديد خلال مسيرات تشييع شهداء الانتفاضة!

عاد علي إلى وضع شبه طبيعي في حراكه وتحركه، وبعيد أيامٍ من تنامي عافيته شرع برفع طموحاته في صناعةِ شيء أكبر من القاذف والقذائف.

بدأ التفكير في إنتاج صاروخنا الأول، وسخّر لخدمة ذلك الطموح اتصالات واجتهادات أدت إلى تبادل خبراتٍ بينه وبين سائد عواد الذي كان قد عرفنا به مجدي خلوص، وهو واحدٌ ممن كان يتردد دومًا للنقاط الميتة التي كنا نوزع فيها بضائعنا.

كان سائد عواد على صورة علي في منطقة سكناه بطولكرم. وَحَدُّ طموحاته أوصله إلى ما أوصل علي حتى يسر الله لقاءهما، بدأت مراسلات ولقاءات أوصلتهما لإنتاج المادة الدافعة للصاروخ، أما أنا فقد كنت قد كلفت لإنتاج صاعق تفجيرٍ يتناسب مع جسم الصاروخ.

بعد فترة من الزمن بدأنا بإعداد صاروخين كل واحدٍ فيهما بطول متر وبقطر 4 إنش.

أعددنا لإنجاح هذين الصاروخين صواعق من رصاصٍ ثقيل إضافة إلى المواد الدافعة في المواد المنفجرة التي أعدت على فترات ليتم احتضان كل تلك المواد داخل تجويف الصاروخين، إلى أن أصبح كل واحدٍ منهما جاهزٌ للإطلاق.

أرسل علي في طلب سائد عواد ليشارك تقييمه ومشاهدته لتجربة الإطلاق الأولى لواحدٍ من الصاروخين.

بعيد أيام وصل سائد وفي رفقته مجدي خلوص، وكان في صحبته محمود الطيطي وتوجهوا جميعًا إلى سهل بلاطة، وأُعد الصاروخ للإطلاق تجاه مستوطنة "ألون موريه" الجاثمة على سطح جبل محيطٍ بالمنطقة، انطلق الصاروخ وبدأت رحلته التي قطعت قبل أن تستقر في بطن المستوطنة بقليل! لكن التجربة بالمضمون العام نجحت والمادة الدافعة أدت مهمتها بتقدير جيدٍ جدًا، والتطوير سيكون عليها بشكلٍ خاص لننقل جودتها لتقدير الامتياز.

بعيد أيامٍ قليلة ومع تردد علي على سائدٍ ومختبره المستحدث في واحدٍ من منازل مخيم بلاطة عاد علي وسائد وثالثهما الطيطي بصاروخٍ من هناك ليطلق من أرض ملعب كرة قدمٍ قريب من المدرسة الصناعية شرق نابلس تجاه مستوطنة "ألون موريه" ولكن الامتياز الذي بلغته المادة الدافعة لذلك الصاروخ فاقت التوقعات، وحققت نتائج تجاوزت المطلوب، فقد تخطى مدى الصاروخ هدفه إلى أن سقط خارج المحافظة كلها حيث استقر حسبما أذيع في إعلام العدو داخل حدود مستوطنة "الحمرا" القريبة من الأغوار.

لم تخلُ عملية إعداد الصواريخ من المفارقات التي لم تكن في حسابنا، في إحدى فترات إعداد المادة الدافعة لصاروخين أشركت مرادًا في إنجاز بعض الوجبات في غرفة بسطح بيته، بعد عدة وجبات كنت أنا وإياه نعد آخرها من المادة تلك، خلال تحريك مراد للمواد الخام المنتجة للمادة تلك داخل وعاء طهي من تحته غاز، اشتعلت المادة محدثة حريقًا طال سقف الغرفة ودخانًا اجتازها إلى السطح كله، الدخان توزعت كثبانه في المنطقة التي يتوسطها بيت مراد، وعلى خلفية ما صدر من سطح البيت هرع إلينا

الجيران على عجل، وكان غالبهم من أقارب مراد، أخلينا جسم الصاروخ والعدد التي كنا نستخدمها في إعداده قبيل وصول الجيران إلى السطح، وكنا قد تظاهرنا بأن كل الدخان الذي تم رؤيته كان مصدره حريق بطريق الخطأ لقطعة إسفنج مبتلة، وبتلك الحجة مرت الواقعة بسلام ودون أن تثير الشكوك لأي من الحاضرين.

في غمام ظروف الانتفاضة العصيبة هذه أصبح واجبًا علينا البحث عن نافذة للفرح، فقد صار لزامًا على علي الذي طالت خطبته أن يتزوج، عقدنا لعلي عرسًا لم يرقَ للمستوى الذي تقنع به أي فتاة مقبلة على زواجها، ولكن ظروفه وتأدب خطيبته أجبرت كليهما على القبول والرضى بالحد الأدنى من مراسم الفرح.

كان حفل عرس علي مقصورًا من كل شيء حتى من عدد المشاركين فيه، وكانت هديةُ زواجه مني ونقوط عرسه قنبلة يدوية!

استقر علي إلى الحد الذي يمكن أن يراه البعض أنه استقرار لمثل من هم في حالنا، فالموت يحلق فوق الرؤوس على الدوام، ولحظة الصفر لا يعلمها إلا الله.

خرج علي بعيد يومين أمضاهما مع عروسه ليعود بهمة أعلى على رأس عمله في صناعة المتفجرات وقيادة المجموعة.

وفي تلك الأيام بعد زواجه، وردتنا معلومات بأن مشاكلنا المادية يمكن حلها من خلال العثور على طريقة للتواصل مع جهة خارجية

ممن يساندون عسكرة الانتفاضة حيث كانت أغلب المجموعات المقاتلة قد أمنت هكذا خطوط تواصل، لكن زهد علي بتلك الفترة أبعدنا عن الالتفات لهكذا أمور، كان يرى أنها قد تكون سببًا في تخلينا عن الهدف الذي جئنا بها لأجله، المال قد يركن حامله للدنيا وزخرفها دون شعورٍ منه!

مصداقًا لرأي علي فإن بعض المجموعات كانت قد تلقت دعمًا سخيًا أوصلها لحد القناعة الثورية فيما كان منها قبل وصول هذا الدعم، فألقوا أسلحتهم وبدأوا تجارتهم.

بدأت ألح على علي بأن يسعى من خلال اتصالاته لتوفير تواصل مع أي ممول لخط إنتاجنا، وأحاول إقناعه بأن يقبل فكرة تلقي الدعم المادي في هذا الوقت؛ لأن الذي حصلناه ونحصله من أفراد المجموعة لا يلبي طموحات عليٍ المتزايدة ولا حتى رغبات المجموعات التي تأخذ منا على الدوام ما تصنعه أيدينا من عبوات ومواد، أضف إلى ذلك كله أن هناك مجموعاتٍ تبنت عددًا من عملياتنا التفجيرية وتقاضت دعمًا طائلًا مقابل جهدٍ لم يجتهدوه، وأن كل ما في أيدينا من أموال ومما تسولناه من أفراد وأنصار مجموعتنا لا يكفي الحد الأدنى لمنتوجات خطنا.

بعد ضغطي على علي بذاك الشأن بدأ إجراء اتصالاته ولقاءاته التي مكنت له أن يسعى لبناء مجموعته بحدٍ أدنى من التمويل والذي كان موعودًا بأن يتلقاه من خلال وسيط مجهول لجهة داعمة للمقاومة من الخارج في المنطقة والذي عادة ما كان يوفر مبالغ مالية لدعم عددٍ من المجموعات العاملة في الانتفاضة.

التقيت بعلي وسامر للاتفاق على مسمى المجموعة والذي ارتأينا أن يكون تخصصها في العمل الاستشهادي فقط، ولذلك تم اختيار اسم (مجموعات النذير الاستشهادية)، وكسر الحاجز الذي كان يمنعنا فيه عويص والطيطي من الإتيان بهكذا عمليات داخل كيان العدو بعيد تنفيذ أول عملية استشهادية مشتركة بين سرايا القدس وكتائب شهداء الأقصى.

هنا دخل الحزام الناسف والحقيبة المفخخة خط إنتاجاتنا، ولكن كبداية سيكون هذان المنتجان حكرًا على (النذير)، وعلى إثر العملية المشتركة التي تبنتها كتائب شهداء الأقصى وسرايا القدس أمسى الهدف في الانضمام لهذا النوع من العمل العسكري هدفًا ومأربًا، كنا قد تمنينا المشاركة فيه، لكن عويص والطيطي طالبا بأن لا نقدم على عمل إلا وتكون مناطق الاستهداف فيه الأراضي المحتلة عام 1967م، وبعد العملية المزدوجة في العفولة تلك التي نفذها استشهاديان أحدهما من الكتائب التي يقودها عويص والطيطي؛ الحجة معنا في الخروج لتنفيذ هكذا عمليات باتت مشرعة أمامنا، لم تكن لقاءات علي في دائرة محدودة بل كانت تصل إلى خارج مدينة نابلس وضواحيها، وكان الخطر يلازمنا في كل سكن وسكون، تنقلنا إلى جنين وطولكرم ورام الله عبر طرقٍ التفافية وعرة، كنا أحيانًا نسلك بعضًا منها على الدواب، وأحيانًا لا نلقى حتى الدواب فلا يكون الاتكال فيها إلا على أقدامنا.

ذات مرة ونحن في طريق عودتنا لنابلس مررنا من قرية بزاريا الفاصلة بين نابلس وطولكرم، وهناك التقى علي بأحد معارفه السابقين، وكان إكمال طريق العودة في ذلك الحين أمرًا استعصى علينا المضيّ فيه،

لذلك ارتأى علي أن نطلب من ذاك المعرفة من عائلة سالم أن يستضيفنا في بيته فرحب ووجب، وبعدما تضايفنا صار واجبًا علينا في حضرتهم أن نستغل الوقت، ونستأنف صناعة المتفجرات بحضرتهم، وبفضلٍ منهم بعد تكرمٍ علينا بأسطوانتين من غاز الطهي أنهينا إنجاز عبوتين، بتنا لدى تلك العائلةِ الفاضلة أربعة أيام خرجنا في خامسها نحمل العبوات لنقدمها بعد وصولنا لنابلس إلى إحدى المجموعات العاملة فيها.

في نابلس نكتفي بالتنقل بين نقاطٍ أمسى الكل على دراية بهما وبعناوين كلٍ منها، وبعد بدء التفكير بالعمل الاستشهادي صار أمر البحث عن الملجأ المؤقت الجديد ضروريًا لتمويه حراكنا لنضيف إلى نقاط مبيتنا محل العمل المجاور لمشغل فارس وإضافة مقهى العاصي أيضًا لمنامي الخاص، إلى جانب ملاجئ الطوارئ التي كان يوجهني إليها سامر وعلي.

ذات مرة أوصلني شاب يدعى صالح لمكان مبيت علي وسامر في مخزنٍ كبير على شارعٍ رئيسي في إحدى البنايات السكنية، كان الأمر بالنسبة لي غير محبب لكني مجبرٌ عليه، لذلك دخلت ذاك المخزن وأُغلق الباب عليّ، وقبل أن يتنفس الصبح دقائقه الأولى من اليوم التالي أتى صالح وفتح علينا الباب وخرجنا من المخزن.

كانت الخطوة الاستباقية لمشروع إنشاء الحزام الناسف الأول بأنه يجب أن يتعلم واحد منا كيفية ولادة "أم العبد"، وكالعادة كان علي سباقًا للتعلم ليؤخرني لأن أكون تلميذه.

9

في يوم ممطر اعتلى سطح بيتي علي وبرفقته شابٌ أراه لأول مرة، جاء الاثنان يحملان في يديهما عددًا من الأكياس، وما إن جلسا في قاعة المختبر (غرفة الغسيل) حتى بدأ الشاب المجهول يشرح لعلي، وعلي يسجل ويشارك في كل خطوة من خطوات الصنع والتجهيز، وأنا أراقب من بعيد.

ما إن أنهى الشاب درسه حتى ودعنا وبدأ علي يعيد تطبيق الشرح أمامي، ومع نهاية وجبة الإعداد الثانية التي كان معلمي فيها؛ علمت أن ما أنتجناه عصر هذا اليوم هو وجبتان صغيرتان من مادة "أم العبد"، أخذنا بعضًا من المادة التي صنعت للمرة الأولى في مختبرنا ووضعنا ذاك

البعض في عبوة صغيرة فُجّرت في سهل مخيم بلاطة، وكان الانفجار شديدًا كما كنا نتوقع.

أجرى علي عدة اتصالات صرّح بها لبعض المسؤولين في الكتائب بنيته اللحاق بركب العمل الاستشهادي باسم مستقل، وما إن وضعهم في صورة مستقبل مجموعتنا حتى توجهت معه ومع سامر إلى محلات أبو زهرة للكهربائيات، ومن هناك عدنا إلى سطح بيتي بمعدات سنبدأ بها صناعة الحزام الناسف الأول في تاريخ النذير حديث الولادة.

كانت المرحلة الأولى لإنتاج منتجنا الجديد هي اكتشاف طريقة لإضاءة عدد كبير من اللمبات الصغيرة في آن واحد ودون أن يكون هناك ضعف في أيٍ منها، بعد عدة تجارب اكتشفنا أن حل ذلك الإشكال في أن تكون الدائرة الكهربائية موصولة على التوازي. اللمبات هي ما سيكون صواعق تفجير داخل الحزام الناسف الذي نعمل على إعداده.

بعيد ساعاتٍ من العمل المتواصل تم تجهيز الحزام الأول للنذير، وكان من ثماني عبوات متفجرة كلها مثبتة بشريطٍ مطاطي يحوي ما يحوي من القطع الحديدية والتي ستكون شظايا التفجير.

أخذ علي الحزام في كيس وتغيب عن ملاقاتي عدة أيام، وما إن عاد حتى بث شكواه بما ساءني الاستماع إليه.

بدأ يتحدث أنه قام بتصوير وصية لشاب ينوي أن يعطيه الحزام الذي أعددناه معنا قبيل مغيبه عني، وأنه أرسل ذاك الشاب بعد أن ألبسه

حزامنا الناسف إلى محمود الطيطي ليتولى محمود إيصاله لقلب الكيان الصهيوني، لكن الاعتقال كان للشاب أسرع، وتم ضبطه من قبل قوات العدو في طريقه لطولكرم التي سيتسلل منها إلى الكيان المحتل.

صدمت من نبأ فشل عمليتنا الاستشهادية الأولى، بدأت أستفسر من علي عن تفاصيل ما جرى، كان سامر رفيق علي بعد خروجه من عندي مساء تصنيع الحزام، أشرف كلاهما على تصوير وصية الشاب براية حملت شعار النذير لأول مرة. وكان ذاك الشاب من جيران سامر ويدعى ماهر القنير.

في اليوم التالي، سريعًا بدأنا نتحدى الفشل الذي كان في المحاولة الأولى، وبدأت وعلي مجددًا إعداد حزامٍ ناسف جديد، وكان على شاكلة الأول إلى حدٍ ما غير أننا زدنا من حجم العبوات فيه، ورحل مع علي بعد إتمامه يبتغي فيه جسد مهدي النادي الذي وهب نفسه لأن يكون استشهادي النذير الأول بعد اعتقال ماهر.

على خطا ماهر وللأسف سار إلى سجنه مهدي، صُوّرَ من سامر وأُلبسَ الحزام من علي، وتولى شأن إدخاله إلى كيان العدو عويص والطيطي، في غضون أيام بلغنا النبأ السيء عن اعتقال مهدي أثناء مسيره إلى هدفه وهو في نزلة عيسى الفاصلة بين طولكرم والكيان.

خبر اعتقال مهدي كان قاصمًا للظهر رغم أنني لم أكن على معرفة مسبقة به أو بماهر من قبله، ولم تكن مجموعتنا هي المسؤولة عن إيصالهما إلا أنني وعلي وضعنا أنفسنا في دائرة مساءلة، وأكدنا لذواتنا أننا مقصرون، ولعدة أيامٍ شاركنا الإحباط المسار والقرار.

مرت أيام الإحباط ورغم أثرها الثقيل على أنفسنا إلا أن الاحتلال ما زال قائمًا؛ وسفكه للدم الفلسطيني لم يتوقف للحظة، مرحلة الاشتباك تحتدم يومًا بعد يوم، الفشل الذي كان في المحاولتين السابقتين يشفع له ما كان منا قبله، والتفاؤل لابد أن يكون متجذرًا فينا أصلًا قبل أن يقتل الفشل مجددًا بمبيد الإحباط. الحديث يدور عن اجتياحٍ قريب لأوكار "الإرهاب" حسب الوصف الصهيوني.

صدق العدو في تهديده، وبدأ العمل على إتمامه بتسيير آليات عسكرية ثقيلة تجاه محيط المناطق التي انسحب منها في العام 1995م، تلك المناطق المصنفة "A" والتي كنا نعدها منذ بداية الانتفاضة آمنة إلا من صواريخ الطيران الصهيوني أو رصاص عملائه.

كان هناك تقدم مفاجئ لهذه الآليات تجاه المنطقة الشرقية في نابلس لم يقصد منه العدو إلا جس نبض المقاومة ومسلحيها، وكان هذا التقدم من محورين هما محور الباذان اتجاه المساكن الشعبية ومخيم عسكر ومحور معسكر حوارة إلى شارع القدس، وقدّر الله أن يتعامل مقاتلو المقاومة في ذاك الوقت بجرأة وحماسة مع الموقف.

أما أنا وعلي فرأينا في ذلك التقدم فرصة لنا لتجربة قاذف "R.B.G" الذي أبقينا عليه لهكذا مواجهة، بعد تقدم رتلٍ عسكري إلى منطقة المساكن الشعبية ذات مرة، قام علي بالاتصال بي وطلب مني إحضار القاذف، لكنني تأخرت في جلبه إليه بعد أن أعاقني إنهاء إعدادي لإحدى العبوات المستعجلة والتي كانت لمجموعة ترابط لتوقف تقدم الآليات في محور شارع

القدس، وصلت علي بعدما أنهيت الإعداد والتسليم لتلك المجموعة، كان في انتظاري بالقرب من موقع حاجز الأمن الوطني المخلى، ولكن الآليات كانت قد تراجعت من المكان بفعل ما لاقته من إطلاق نارٍ وإلقاء الأكواع عليهم وتفجير العبوات بهم، تكررت أحداث كهذه ولكن لم يجد قاذف "R.B.G" في أيٍ منها فرصته المناسبة لإثبات قدراته التدميرية.

تضاعفت الأنباء عن اجتياح قادمٍ لا محالة لمخيم بلاطة على الأقل، فالعمليات التي أُفشلت لمجموعتنا أو لمجموعاتٍ أخرى نجح مقابلها الضعف، والذي رجح بأنظار الجميع أن حتمية الاجتياح هو أمرٌ غير مبالغٍ فيه، وعلى إثر ذلك استنفر كل ناشطٍ في المقاومة المسلحة للعمل على تأهيل قواه لصد الاجتياح القادم.

بدأت تردنا أخبار تؤكد الحدث من المستوى الرسمي في السلطة الفلسطينية، وما إن قطع الشك باليقين حتى بدأ العمل على الأرض وكلٌ قد علم مشربه.

أُغلقت مداخل الحارات في المخيم بحاويات القمامة بعد ملئها بالتراب وأُغلقت مداخل الزقاق بالسواتر الإسمنتية والترابية. أنا وعلي استنفرنا كل مساعدينا لإنتاج أكبر عددٍ ممكن من العبوات الناسفة و"الأكواع" والتي كنا قد طورنا نوعًا منها يعمل بالاحتكاك، وقد تداولناه باسم "كحتات" للجمع، والمفرد منها "كحتة".

جهزت في بيتي اثنتي عشرة عبوةٍ ناسفة، وعلي جهز ببيته عددًا مماثلًا، وأشركنا نضال وسامر وشوقي وآخرين بمساعدتنا في إعداد ألف

قنبلة من الكحتات، وكانت أرض إنتاج الألف من الكحتات تلك في مخيم عسكر مسقط رأس علي.

بعد أيام من العمل ليلًا ونهارًا أنهينا إعداد الكحتات لتأتي سيارة سامر البيضاء، ويبدأ علي وسامر بنقل "الكحتات" إلى مخيم بلاطة وتوزيعها هناك للمجموعات المرابطة فيه.

بدأت الأليات العسكرية الثقيلة تقدمها من محور شارع القدس تجاه مخيم بلاطة، وما إن تصل مكَمن عبوة من عبوات المجموعات حتى تتوالى الانفجارات المتبادلة فتتراجع على أثرها الآليات.

وإلى جانب محور شارع القدس كان هناك شارع "المسلخ البلدي" و"سهل بلاطة"، وكما كانت المراسيم في استقبال الآليات في محور شارع القدس كانت أيضًا المراسيم في استقبال الآليات في باقي المحاور.

يوم تلا يومًا، ومحاولات تقدم العدو وآلياته تجاه المخيم أشبه ما يكون القصد منها استنزاف ما يملكه نشطاء المقاومة من ذخائر.

بعيد أسبوع تقريبًا من حرب الاستنزاف التي مورست ضدنا وصلتنا أخبار بواسطة المستوى السياسي في السلطة الفلسطينية تفيد بأن الصهاينة يمنحون كل من له علاقة بالإرهاب الخروج من المخيم؛ لأن دخوله حتمية توراتية خلال الأيام القادمة، بدأت تشيع النصائح الانهزامية على إثر تلك الأخبار التي حملت نفس المضمون إخلاء المخيم ضرورة لتجنيب الأهالي الموت الجماعي.

كان علي مرافقًا دائم لمحمود الطيطي وناصر عويص في المخيم خلال الأيام التي سبقت تلك الأنباء، أما أنا فكنت مع مراد أتنقل بين الأزقة وليس معنا إلا بعض الكحتات.

توجهت ليلًا إلى غرفة الغسيل بسطح بيت والدي، من هناك كنت أنوي الخروج بعبوتين إلى ساحة المخيم وما إن وصلت سطح البيت حتى دوى صوت انفجارٍ تلاه آخر، وعلى إثر الأول قطعت الكهرباء عن كل المخيم ولم يكد يرى أحد أحدًا.

أكملت مسيري لغرفة الغسيل أتحسس من أرضها عبوتين نزلتُ بهما إلى أهلي، الذين عصفتهم بقولي بأن هناك حتمية مطلقة في أن يتم استهداف البيت، وطلبت منهم أن يخلو المنزل، ويتوجهوا إلى بيت عمي بأسرع وقت.

خرجت من البيت حتى بلغت مرادًا بالعبوتين طالبًا منه أن يعطي إحداها لحمودة العاصي، لأعود مهرولًا إلى أهلي مساعدًا إياهم في نقل الضروري من حاجاتهم لبيت عمي، وما إن مضى نصف ساعة حتى كانت الدار مفرغة من البشر ومفتاح بابها الرئيس في جيبي.

توجهت إلى مراد بعدما أَمنتُ أهلي في بيت عمي، وجدته لم يتنازل بعد عن العبوة التي خصصت بها العاصي حمودة، أخذتُ منه واحدة وطلبت أن يكمن هو بالأخرى في الزقاق المؤدي لبيته، ثم فزعت إلى حمودة بما أحمل لنقوم بزراعة تلك العبوة في مدخل المخيم، وكان حمودة يترقب بسلكي العبوة تقدم أمرَ آلية عسكرية تجاهها.

بدأت الآليات تتقدم والطيران يحلق على ارتفاعاتٍ منخفضة من منازل المخيم، وبدأت النيران وشظايا الرصاص والقذائف تنتشر في كل زاوية وحي، وكذلك شظايا الإشاعات، ومفادها استشهاد فلان، وسقوط الحارة الفلانية، واعتقال فلان، مما أثر في نفسيتي. كنت في ذلك الحين ملازمًا لحمودة الذي ما زال على حاله يترقب وصول أي آلية إلى فكي عبوته، وما إن تقدمت الجرافة العسكرية تجاه العبوة حتى كَبَّرَ العاصي وعانق بسلكي العبوة قطبي البطارية التي أشعلت صاعق التفجير.

انفجرت العبوة وأوقفت تقدم الجرافة تلك، وألقيت بدوري ما كان معي من كحتات، لننسحب أنا والعاصي بعد أن كاد رصاص العدو يحظى بنا.

توجهنا إلى حارة قريبة من مدخل المخيم، وهناك كانت مجموعة مرابطة يعرف العاصي من فيها، أخذ منهم عبوة ثانية وكمنا بها على مدخل المخيم مرة أخرى، وبقينا مرابطين هناك حتى بزغ الفجر، كانت حدة الاشتباكات قد انحدرت، تركت حمودة لرباطه وذهبت للقائد علي للاطمئنان عليه بعدما كانت الإشاعات تقذف إلينا باستشهاد فلان وإصابة آخر حتى ظن كلٌ منا أن صاحبه هو الشهيد أو الجريح.

بحثت عن علي في كل نقطة كنت أتوقع رباطه فيها، لم أجده في أيٍ منها، عدت إلى منزل عمي لطمأنة أهلي عليّ، لم أدخل من الباب فعلي يشغل تفكيري، توجهت إلى منزلنا المخلى فإذا بجنود العدو يعتلون سقف المنزل المقابل له، والشارع الأمامي للمخيم تسكنه آليات عسكرية كبيرة.

خلال تنقلي بين الحارات لمعاودة البحث عن علي تلقيت أنباء مؤكدة عن استشهاد كايد أبو مصطفى (المكيري) وإصابة حكم أبو عيشة (السنونو) إصابة بالغة أدت به إلى موتٍ سريري.

كانت حالة الأهالي في ذلك الوقت داعمة لمسلحي المقاومة رغم كل ما حصدوه من تعب وحصار.

كنت إذا تنقلت بين زقاق المخيم ومعي نشطاء المقاومة المسلحة ينهمر علينا غيثٌ من الدعاء أو تحظى أسماعنا بعبارات النصرة والتأييد.

بدأت النداءات تصدر من مكبرات الصوت المثبتة على آليات العسكر الصهيوني، كانت النداءات المتكررة تلك فحواها مطالبة جميع مسلحي ونشطاء المقاومة الخروج من المخيم وإخلاؤه لتقدم الآليات العسكرية دون تماس، وأن المهلة في هذه المطالبة ستكون لساعاتٍ محدودة وتكلفة المواجهة العسكرية ستزهق مئاتٍ من أرواح سكان المخيم الأبرياء.

انسحبت الآليات إلى حد ما من الشوارع المحيطة بالمخيم إيذانًا ببدء المهلة، وبدأ الناس نشورهم في الشوارع يتفقدون جراحهم عن كثب، منهم من فقد محبًا، ومنهم من أصيب له فلذة كبد، ومنهم من تأثرت محاله بقذائف ورصاص العدو، أما أنا فرجعت إلى حارتي وكان لقائي بالحبيب، أتى علي لباب منزلي يرافقه سامر والسيارة البيضاء، وبدأنا ثلاثتنا إخلاء غرفة الغسيل الممتلئة بالمواد الخام وعِدد التصنيع، وبدأت عملية النقل من سطح المنزل إلى السيارة، ومن السيارة إلى مخزن في البلدة القديمة بنابلس.

وبثلاث مرات وثلاث دفعات تم إفراغ السطح من ممتلكاتي وممتلكات علي، ومن ثم قمت بتنظيف أي أثر تركته تلك الممتلكات بأرض السطح، تلا ذلك أن توجهت إلى بيت عمي مقدمًا لوالدي مفتاح بيته الذي أمسى خاليًا من مختبر المتفجرات في سطحه، طالبًا منه أن يرد الأهل إلى البيت وأن يعاود حياته الطبيعية فيه.

توجهت إلى حارات المخيم، كان كل من هم على حالي قد أقدموا على ما أقدم علي لفعله، وما إن شارفت المهلة على الانتهاء حتى خرجت من المخيم لعيادة الجرحى وتوديع الشهداء في مستشفى رفيديا ومن المستشفى إلى منزل فارس الذي يشرف بسطحه على المخيم، وما إن بدأ زحف آليات العدو تجاه المخيم حتى بدأت عيناي تحترقان على ما تريان، كان عزائي في أن دخول تلك الأليات للمخيم على ما بدا للجميع هو ابتغاء تسجيل نصرٍ إعلامي على المقاومة التي كان ممثلها الرئيسي في محافظة نابلس هو مخيم بلاطة، وفعلًا نجحوا في مبتغاهم وبغيهم بعد أن نسفوا منزلي ناصر عويص ومحمود الطيطي، واقتحموا عدة بيوتٍ تعود لعوائل نشطاء المقاومة، وكان بيت والدي واحدًا منها!

ثلاثة أيام والآليات الصهيونية تتحرك بحرية مطلقة داخل حارات المخيم، وجيل جديد يخرج من بين الزقاق يلقي بحجارته تجاه تلك الآليات الكبيرة والتي لم تتأثر خطاها حتى بالرصاص أو الكحتات.

انتهى اجتياح المخيم الذي كنا نعد لصده، وفي لحظة المواجهة اخترنا دخول الآليات إلى حارات المخيم حفاظًا على سلامة الأهالي، وتخلينا عن

غاية الموت في ساح المواجهة مقابل الحياة للأطفال والشيوخ والنساء.

بعيد ذلك الاجتياح أدركنا أن مصطلح "المناطق الآمنة" قد أسقط، وأننا الآن بتنا مطاردين للاحتلال وقواته وعرضة لأن يختص أي اسم منا باجتياح ينهيه إما باعتقال أو اغتيال.

لم يطل تصديق تلك الأخبار عمليًا من قبل العدو حتى جاءنا النبأ المُرْ باعتقال ناصر عويص وأحمد أبو خضر بعد محاصرتهما في منطقة طوباس خارج محافظة نابلس.

استأجر علي شقة للمبيت في منطقة رفيديا، وبعد أيام تم تطوير استخدامه لها لتكون مختبر تصنيع حزامٍ ناسف قمنا بتجهيزه لأي طارئٍ قد يحدث معنا، وكنا نتبادل اصطحابه أنا وعلي في انتظار لحظة الصفر التي لا نعلم، فالحوادث شاهدات على أننا في دائرة ضيقة من الاستهداف الصهيوني.

كنا نتنقل بين مخزننا المستحدث في البلدة القديمة وبين شقة رفيديا، وبين مخيمي بلاطة وعسكر على الدوام، وكان مما ساءني في مخزن البلدة القديمة أنه عبارة عن غرفة في بيتٍ مكونٍ من غرفتين، الغرفة الثانية كانت مبيتًا وورشة تصنيع لمجموعة أخرى كانت قد بدأت العمل فيه منذ بدء الانتفاضة والذي يجزم أن يكون عنوانها في قائمة "أوكار الإرهاب" المنوي استهدافها من قبل العدو، فالحديث تجدد بنية العدو الصهيوني اجتياح الضفة الغربية بشكل كامل، وعليه فإن القرى والمخيمات والأحياء في نابلس ستقتحم من قبل العدو وآلياتهم.

في ذلك الحين أصبح واجبًا على علي أن يمتلك سلاحًا شخصيًا خاصًا به، استوجب ذلك عليه أن يبتاع حليّ زوجه، فما كان يأتينا من دعم لا يكفي لاقتناء السلاح.

بعد أن بيعت الحليّ اشترى علي مسدسًا شخصيًا كان ملازمًا له في كل تنقلٍ أو تعقل.

بدأنا بعيد الاستحواذ على هذا الإنجاز الإعداد للمرحلة القادمة، وبدأ العمل على تجهيز كل ما يلزم في صد الاجتياح الذي من المؤكد أنه سيكون أقسى وأسوأ من سابقه.

في البلدة القديمة بدأنا العمل على إنتاج العبوات على أشكالها وأنواعها، الكحتات بكميات أكبر من المرة السابقة، "أم العبد" كانت حاضرة بامتياز في وجباتنا.

نصل الليل بالنهار لإنهاء أكبر عددٍ ممكن، وما أن ننهي عددًا من هذه العبوات حتى يأخذها علي ومحمود الطيطي ليقوما بتوزيعها على المجموعات المرابطة في تخوم البلدات والأحياء والمخيمات في نابلس.

أنهينا العمل، وبدأت كل المناطق استعدادها لاستقبال الزائر غير المرغوب فيه، ومن درس اجتياح مخيم بلاطة تعلم جميع المستقبلين.

قرر علي أن يكون ميدان قتاله لهذا الاجتياح في مخيم عسكر حيث نشأ وتربى، وبالتحديد مخيم عسكر الجديد حيث الزقاق الذي يحفظ عن ظهر قلب، أخبرته أنني سأكون معه حتى النهاية ولن أتركه البتة، وعلى بركة الله توجهت معه للإشراف على استعدادات مقاتلي المقاومة هناك،

بدأنا نجهز بعضًا من العبوات في مخيم عسكر متنقلين بين عدة محالٍ وأماكن لإتمام ما جئنا لأجله.

في ذاك الوقت كان علي قد استعار من صديق له سلاحًا من نوع كلاشنكوف، وسامر حصل على واحدٍ مماثل، أما أنا فقد أعطاني مسدسه ليرافقني في صد الاجتياح القادم.

مخيم عسكر الجديد مساحته لا تتجاوز ملعب كرة قدم يتوسطه شارع يتفرع على جانبيه مداخل للحارات، وفي طرفه الآخر مداخل لحارات بالجانب من شارع آخر يمر بجانب المخيم، فتبدأ حارات ذاك الجانب بشارع المخيم وتنتهي بالشارع الذي يمر بمحاذاته، وعلى هذه الحارات تركز التجهيز والإعداد.

بدأنا بإغلاق الشارع الذي يتوسط المخيم من مدخليه، ومداخل الحارات المطلة على الشارع المحاذي للمخيم.

وزعنا العبوات على كل مكان يتوقع أن يكون منفذًا لدخول جنود العدو، وزعنا بعض الكحتات على عددٍ من الفتية والشبان بعد أن شرحنا لهم كيفية استخدامها.

بدأت الآليات تتحرك من المعسكرات الصهيونية المحيطة بمحافظة نابلس تجاه قلبها وبغية قتلها.

ساعات قليلة وإذا بآليات العدو تطوق المنطقة المنوي التوغل فيها، وحصة الأسد من تلك الآليات هي منطقة البلدة القديمة ومحيطها.

أسدل الليل ستاره ومعه انقطعت الكهرباء عن المخيم، بعد أن قُصفت محطة التزويد الخاصة به، بدأت الآليات تتحرك تجاهه، ومعها بدأت التكبيرات لشحذ الهمم بين الشبان والمسلحين في استعدادٍ للاحتدام مع العدو إن ترجل جنوده من آلياتهم.

في سبيل الله قمنا، نبتغي رفع اللواء، فليعد للدين مجده، وليعد للأقصى طهره، ولترق منا الدماء، تكبير، الله أكبر، تكبير، الله أكبر. كان ذلك نشيدًا حماسيًا صدحت به حنجرتي وحناجر كل من تهيأ لملاقاة العدو هذه الليلة.

بدأت النيران الهمجية تصدر من قبل آليات العدو تجاه كل ما وضع من متاريس أغلقنا بها الشارع والحارات، الرصاص الثقيل يستقر في جدران البيوت المواجهة لأماكن تواجد الآليات العسكرية.

كنا ننتظر أن يتقدم الجنود إلى الأماكن الملغومة بالعبوات، إطلاق النار مستمر لم يكن إلا من جانب العدو، كل من في جانبي يكبّر ويؤهل ذاته لدخول الجنود إلى المخيم، هذه المرة لا مجال للخروج من مناطق مجتاحة إلى مناطق آمنة، فكل المناطق سواء، وكلها تنتظر الدقائق التي سيدخل العدو فيها.

تكشف لساكنين أن مصيرهم الحياة أو الموت، فموازين العدة والعتاد والقوة معروفة للجميع، واليد التي تنطح المخرز ستنزف الدماء بلا جدال، لذلك كان اختيار الموت بشجاعة أمرًا لا خيار غيره أمام من هم في حالي وحال علي وسامر.

في ذلك الوقت بدأ الطيران الحربي إمطار زخاتٍ من رصاصه الثقيل تجاه المصلين الذين خرجوا لتوهم من أداء صلاة الخوف في مسجد المخيم، ولكن الله سلمهم كلهم، تقدمت جرافة عسكرية لأحد مداخل المخيم، ما إن وصلت للقرب من غراس واحدٍ من العبوات التي يتولى الإشراف عليها نضال حتى قام نضال بتفجير العبوة التي أجبرت الجرافة على التراجع، ومن ورائها بعض الآليات التي بدأت تطلق نيرانها العشوائية التي أدى بعض منها إلى انفجار عبوة ثانية دون إذن من صاحبها.

في ذات المشهد بدأ بعض الفتية يتسللون لمحاذات تلك الآليات ليلقوا بكحتاتهم المتفجرة تجاهها، كنت أتنقل مع علي لتفقد نقاط الاشتباك المتقدمة حول المخيم.

تزامنًا مع الانفجارات في منطقة إشراف نضال كان هناك تقدم لدبابة تجاه مدخل المخيم الرئيس والذي أُغلق بحاوية قمامة كبيرة معبأة بالتراب، وبدأت الدبابات تلك تضرب بقذائفها الحاوية وما حولها من بيوتٍ ومحال، وبعد عدة قذائف حَركت حاوية القمامة من مكانها وتراجعت الدبابة الصهيونية عدة أمتار وانحدرت كثافة النيران الموجهة للمخيم.

صباح اليوم التالي، وبعدما سكن غبار المواجهة، توجهت مع سامر وعلي لتفقد أماكن العبوات في النقاط المتقدمة، وللأسف بعضها كان قد انفجر بفعل إطلاق الرصاص العشوائي. أعدنا تهيئة الشبان في كل نقطة للاحتمال الأسوأ حتى بدأ بعض الأهالي سحب أبنائهم من صفوفنا بعد ما ورد في إذاعات الراديو عن ارتكاب العدو لمجازر في مخيم جنين والبلدة القديمة بنابلس.

خلال الساعات الأولى من هذا اليوم كنا نحاول أن يبقى الأهالي على إسنادهم لنا، ونتحرك بينهم ونساعد بعض المؤسسات الخيرية في توزيع المؤن عليهم وإعداد مستشفى ميداني متواضع في أحد زوايا مسجد المخيم.

ظهرًا ذهبت إلى مكانٍ كنت قد خبأت فيه صاروخًا أعددناه مسبقًا أنا وعليٍ ومراد، حملته برفقة شابين ملثمين أرسلهما معي عليّ، وتوجهت بها في يدي وبنفس الرفقة إلى تلة عسكر لنعد منصة إطلاقٍ للصاروخ ووجهناه إلى مستوطنة "ألون موريه" الجاثمة على سطح جبل يقابل المنطقة الشرقية من نابلس.

مددتُ سلكي صاعق تفجير المادة الدافعة في الصاروخ إلى مكانٍ توارينا فيه عن أنظار الطائرات المحلقة في الجو، وموّهنا محيط الصاروخ بشيءٍ من الخردة والقمامة.

ما إن وضعت أطراف الأسلاك على قطبيّ بطارية التشغيل حتى أثير من موقع الصاروخ دخان كثيف جدًا، وخلال دقيقة غطت سحب الدخان الأبيض المنطقة مما أوحى لنا أن الصاروخ قد عاث بأرض "ألون موريه" الفساد! ذهبت إلى منصة الصاروخ وحسبي أن الدخان يغطيني من الطائرات الحربية، كنت أتوقع أن الصاروخ غادر منصته بعيدًا، لكنه عزّ عليه فراقها فلم يكن قد تحرك من موقع الإطلاق إلا مترًا ونصف المتر تقريبًا، طلبت ممن معي إخلاء الموقع من المعدات، وتوجهت إلى علي أخبره بما كان، فرجح أن تكون المادة الدافعة في الصاروخ قد تلفت بفعل الرطوبة الذي مرت به في ظروف التخزين الطويلة.

عـصر ذاك اليـوم بلغنـا نبـأ إصابـة محمـد الغنـدور بطلـق نـاري صهيـوني أدى إلى استشـهاده عـلى الفـور، فقمنـا بتشـييعه ومواراتـه الثرى في سـاحة روضة أطفـال المخيـم، ومـا إن فرغنـا مـن دفنـه حتـى بلغنـا أن مجموعـة مرابطـة بالقرب مـن تلـة عسكر ألقـت القبـض عـلى شـاب مجهـول أثنـاء تسـلله إلى المخيـم.

توجهـت مـع عـلي وسـامر إلى أحـد المحـال التـي كانـت سـجنًا لـذاك الشـاب، وبـدأ عـلي وسـامر التحقيـق معـه، وكنـت أنـا مسـتمعًا فقـط.

كان ذاك الشـاب سـجينًا جنائيًـا فـرَّ مـن سـجن نابلـس بعـد اقتحامـه مـن قبـل الصهاينـة، وكانـت قضيتـه التـي سـجن عليهـا لـدى شرطـة السـلطة الفلسـطينية معروفـة.

خـلال التحقيـق معـه أعطـى قصـة منافيـة لقصتـه الحقيقيـة مما أثـار لـدى الحاضريـن شكوكًا بـأن مـن بـين أيديهـم هـو متخابـر مـع العـدو.

خرجـت برفقـة عـلي مـن مـكان التحقيـق الـذي كان قـد تجمهـر حولـه حشـد مـن أهـالي المخيـم الذيـن هرعـوا للمـكان بعدمـا أشـيع بينهـم خـبر اعتقـال عميـلٍ للعـدو!

خرجنـا أنـا وعـلي مـن بـين النـاس، وتوجهنـا إلى المستشـفى الميـداني في المسـجد، وقبـل أن نصلـه إذ بـدوي انفجـار يتلـوه آخـر صـم آذاننـا لبعـض الوقـت، التفتنـا خلفنـا فـإذا بالـصراخ والتكبـير يصـدر مـن مـكان تجمهـر النـاس، بدأنـا نتأكـد أن موتًـا يعلـو رأس عـليٍ ورأسي، لابـد أنـه كان ينـوي خطفنـا هـذه المـرة، لكنـه حصـد بديـلًا عنـا مـا حصـد مـن أبريـاء ورفـاق سـلاح.

كان علي ينوي الرجوع للمساعدة في إخلاء الجرحى والشهداء، فطلبت منه أن يتراجع عن ذلك؛ لأن الطائرات الحربية ما زالت على حالها في سماء المخيم، وهناك احتمال أن تكرر جُرمها بقصفٍ صاروخي آخر يطيح هذه المرة برأسينا، تَعقّل علي وسار معي إلى المسجد، وهناك أشرفنا على استقبال الإصابات والشهداء، وعلي يستفسر عن حال كل واحدٍ منهم، وفي كل جسد يمر من أمام عيني علي دمعة واحتساب.

بعيد دقائق من تواجدنا في المسجد أُبلغنا أن الطائرات الحربية ابتعدت عن سماء المخيم، خرجت مع علي لمكان الحادثة والدماء هي ما صبغت أرضه، وخلال وقوفنا بباب المحل الذي تركنا به الشاب المشبوه خرج سامر وشاب آخر تم إخفاء وجهه على أنه ذاك المشبوه باتجاه المسجد مما أدى إلى لحاق بعض الجماهير بهما.

هنا أخذ أحد المقاتلين سلاح علي واقتحم المحل على ذلك المشبوه ليرديه قتيلًا بثلاث طلقات، وما إن سمع الأهالي أزيز الرصاص حتى عادوا إلى مصدره، وقد علموا أنهم موهوا بما خرجوا وراءه. وصلت الجماهير جثمان الشاب المعدم، وأخذوا يمثلون به إلى أن سحبه بعضهم بواسطة حبل ليلقوه في حاوية قمامة، رغم أن الأهالي قد أفرغوا بعضًا من غيظهم في ذاك الشاب إلا أن نسبة ليست بالقليلة بدأت ترمي علي وأنا وسامر ومن هم على حالنا بأننا سببٌ مباشر في المجزرة التي ارتكبها العدو وطيرانه.

عـدتُ مـع عـلي إلى حيـث المستشـفى الميـداني، سـمعنا نـواح الثـكالى قريبـات الشـهداء الأربعـة في الانفجـار الـذي كان مصدره قصـف الطـيران الصهيـوني، أولئـك الأربعـة شـاركونا الإعـداد واليـوم الأول مـن الاجتيـاح، أكلنـا سويًا وشربنـا سويًا، كـمال الملاح الـذي وهبنـا مـا وهـب مـن مالـه وبيته، أبـو وسيم الشـلبي رغـم تقدمـه في السـن إلا أنـه آثـر أن يمضي مـع الفتيـة يحمل مـا يحمـل مـن "الكحتـات" التـي أعـدت بيـدي ويـدي عـليّ! يوسـف أبـو زيـد رافقنـا الإعـداد بكل تفاصيلـه وكان مـن حاملي السـلاح الأوائـل في الانتفاضة، يـاسر الشـاويش ذلـك الشـاب البهيـج في طلعتـه، هـم كانوا فـداءً لعلي بـدون أن يبـادر لهـذا الفـداء.

كانـت عبـارات الاسـتياء التـي نتلقفهـا بأذاننـا مطرقـة تـضرب صرح عطـاءٍ كنـا قـد عمرنـاه في صدورنـا منـذ يـوم الانتفاضـة الأول.

خـلال توديـع الشـهداء الأربعـة في بيـوت ذويهـم جلسـت مـع عـلي وسـامر وفي رفقتنـا شـقيق جمـال الأصغـر محمـد، بـدأ عـلي يحـاضر فينـا أن الأوضـاع أمسـت تضيـق بنـا ذرعًـا داخـل المخيـم، وأن الاحتـلال لـن يدخـل المخيـم إلا إذا تأكـد أن طائراتـه قـد تمكنـت مـن قتلنـا، وأن مصيرنـا الـذي نريـد لا يجـب أن يكـون سـهل المنـال بيـد العـدو وعملائـه، وأن استشـهاد الأحبـة الأربعـة وإصابـة العـشرات مـن أبنـاء المخيـم في قصـف الطـيران التابـع للعـدو ليـس عـن طريـق المصادفـة، التكاليـف المترتبـة على بقائنـا في صفـوف الشـعب سـتكون باهظـة ولـن يخـسر منهـا إلا هـم، ونحـن مـا كان قصدنـا في الخـروج لهـذا الـدرب إلا حمايـة أهالينـا والقصـاص لعذاباتهـم.

كنا خاشعين لكل كلمة تصدر من فم علي وكأنه الوحيُّ فينا، قاطعته بأدب قائلًا:

- شو رأيك نعمل؟

فرد قائلًا بحكمة ووقار:

- نفر من قدر الله إلى قدر الله، علينا أن نتفرق الآن ونلتقي غدًا في بيت أبو رائد بشكار، فهناك غرفة محصنة فيه ولن تطالنا به صواريخ طائرات العدو.

الآن يا علي؟

دعها بعيد مواراة الشهداء الثرى.

وعلى بركة الله كان الاتفاق، خرجنا مع المشيعين للشهداء، وعلي كان سباقًا لأن يساعد في حمل الجثامين، وصلنا المقبرة وبعد أن أنهينا دفن الشهداء خرج الجميع منها وبقيت وعلي وسامر فيها، وهناك أشار علي إلى منطقة ملاصقة لقبور الشهداء في ساحة روضة الأطفال تلك، صرح بثقة:

هنا أريد منكم أن تسجوا جسدي، وصيتي لكم.

خرج ثلاثتنا إلى بيت ذوي سامر، وغادرنا علي من هناك إلى دار أهله، ألقيت على الأريكة جسدي، كان منهكًا تمامًا، عيناه لم تذق نومًا منذ أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة.

أيقظني من سباتي ذلك الوقت مجيء فارسٍ لبيت سامر، وأخبرني

سامر أن هناك عائلة تنوي استضافتي لطعام العشاء، كانت العائلة تلك ممن تعارفت عليهم خلال ترددي السلمي لزيارة فارس في مشغله.

عائلة "أبو النور"، ذهبت إليهم وصليت معهم، وطلبت منهم أن يكون عشائي على سطح بيتهم حتى يتسنى لي مراقبة محيط المخيم، وكانوا على ما طلبت، رافقني لتناول العشاء فارس، وكان العشاء على شرفٍ من رب العائلة وأولاده.

ما إن فرغنا من العشاء حتى صلينا العشاء بحضرتهم، ومن ثم طلبت منهم إذن المغادرة، ودعتهم ووجهتي إلى حيث كان اتفاقي مع علي، وبقي فارس في ضيافتهم.

توجهت إلى البيت الذي حدده لي علي عصرًا، كان قد سبقني إلى بابه أحد مقاتلي حركة حماس الذي كان شريكًا لنا في الإعداد للاجتياح وكان يكنى بأبي إسلام.

دخلت إلى البيت، وما إن مرت دقائق حتى كان علي ومحمد بيننا، أما سامر فأرسل إلينا أنه قد عثر على مأمنٍ له في أحد البيوت التي نجهل أهلها .

يومٌ من حسن الضيافة تلقيناه في حضرة آل بشكار، الأخبار خارج أسوار البيت تردنا تباعًا بأن آليات الاحتلال ما زالت تطوق المخيم، وأن القتل والقتال يتركز في منطقة البلدة القديمة من نابلس، وباقي المناطق يكتفي الاحتلال فيها بصواريخ طائراته لإزهاق الأرواح.

يومٌ آخرٌ مضى مللنا فيه الحصار الذي زدناه على أرواحنا في تلك الدار، طلبت من علي الخروج إلى البلدة القديمة للانضمام إلى المعركة الدائرة هناك، أخبرني أنه ينوي الخروج صباح اليوم التالي إلى ما طلبت.

أتى الصباح، صدقني علي النية، خرجت أنا وإياه ومحمد في ترقب تجاه منطقة عسكر القديم، كنا نتسلل ببطء شديد وألسنتنا تلهج بالدعاء، بيننا وبين آليات العدو أمتارٌ قد تقطعنا رصاصته برمشة عين، خطواتنا تتقدم تارةً وتتراجع أخرى، الموت يُرى لكن لا مساس، كل ما في أيدينا ذخيرة وعتادٌ خفيف لتسهل حركتنا فيه، وإن كُتِبَ علينا الاعتقال يكن ما خلفناه تركةً لمن ينوي إكمال ما بدأناه.

مسدسُ علي وقنبلتان يدويتان فقط هما ما خرجنا به من المخيم، وصلنا منطقة عسكر القديم، وتوجهنا بنفس الحذر والحيطة إلى مركز المدينة، وخلال تنقلنا كان الموت موزعًا في جوانب الطرق، رأينا ما رأينا من دم مسفوح وبيوتٍ مهدمة ومحلات منسوفة، الخراب في كل مكان.

ما إن وصلنا مركز المدينة حتى أعلن الجيش الصهيوني رفع حظر التجول لساعتين، تجولنا في البلدة القديمة، هناك هدوء المقابر يغطي المنطقة كلها، وخلال دقائق تأكد الناس فيها أن التجوال سمح لهم به بعد طول رقود حتى دخل إلى تلك المقابر صراخ البكائين وعويل الثكالى، الكل يلملم جراحه.

ذهبنا إلى ما كان لنا يومًا مخزنًا لعتادنا فوجدناه قد أمسى أثرًا بعد عين، قد نسف كليًا ومما عز علينا أنّا أودعنا فيه قاذف "R.B.G" الذي كنا ننتظر فرصة لاستخدامه.

زفـرات الحرقـة والألم تنبعث منا كأنها لهيب التنين الـذي يتمنى أن يحـرق كل شيء أمامـه ثـأرًا وانتقامًـا.

خرجنـا مـن البلـدة القديمـة إلى شـقة عـلي التـي اسـتأجرها قبـل الاجتياح، وهنـاك ألقينـا أجسـادنا فيهـا نتأمـل سـقفها كيـف لـو أننـا كنـا بـين أولئـك النـاس الذيـن أسـقطت أسـقف البيـوت عـلى رؤوسـهم مـن قبـل صواريـخ العـدو وطائراتـه.

اسـتراحت أقدامنـا بعـد طـول سـيرٍ عليهـا، ومـع حلـول الظـلام الـذي كان قـد سـبقه تجـدد لحظـر التجـول عـلى سـكان نابلـس، بدأنـا في سـترة مـن الليـل مسيرنا إلى بلـدة عصيرة الشـمالية بعدمـا تأكدنـا أن خالـد الشـولي مـا زال في عافيـة، وأنـه مسـتعدٌ لاسـتقبالنا عنـده.

وصلنـا خالـد بعدمـا كانـت أقدامنـا قـد تسـلخت وأعيننـا تحنُ الجفـون فيهـا إلى عناقٍ طـال غيابـه.

اصطحبنـا خالـد إلى مـكانٍ في جبـال عصـيرة، وهنـاك طلـب منـا أن نفـترش الأرض ونلتحـف السـماء ونـرضي أجسـادنا بالنـوم، وهـو بـدوره سـيتولى حراسـتنا حتـى شروق شـمس اليـوم التـالي.

صباحًـا قادنـا خالـد لضيافـة بيـتٍ مـن بيـوت بلدتـه، ومـا إن تناولنـا طعـام الغـداء في حضرتهـم حتـى طلبنـا مـن خالـد توفـير سـيارة تنقلنـا إلى بلـدة طلـوزة، مضـت دقائـق حـضرت السـيارة ببـاب البيـت المضيـف لنـا.

توجهنا وخالد معنا في السيارة إلى بلدة طلوزة ومنها إلى قرية الباذان، وهناك كانت إحدى العوائل من أقرباء محمد في انتظارنا.

عاد خالد مع سائق السيارة إلى بلدته عصيرة، أما نحن فنزلنا لضيافة أقرباء محمد.

10

خلال ضيافتنا في قرية الباذان بلغنا أنباء بأن جهودًا سياسية حثيثة بذلت من أجل إنهاء الاجتياح، تلك الجهود تقضي بإبعاد عددٍ ممن حاصرهم العدو في كنيسة المهد ببيت لحم إلى جزيرة قبرص وقطاع غزة وأماكن أخرى، ومحاكمة عدد من مقاتلي المقاومة في محكمة عسكرية للسلطة الفلسطينية وسجنهم برقابة أمريكية في سجن أريحا، بعد يومين بدأت تلك الجهود تحدث على الأرض، وبدأت غالبية آليات العدو تتراجع إلى مناطق محدودة عن المناطق التي اجتيحت.

على إثر ذلك أعلن رفع حظر التجوال وصار واجبًا علينا العودة كلٌّ إلى أهله ومخيمه وخصوصًا بعد انقطاع أخبارنا عنهم.

عاد علي ومحمد إلى مخيم عسكر، أما أنا فتوجهت إلى مخيم بلاطة ومرادي أهلي، وصلتهم وتفاجأت بصدمة استشهاد زوج أختي (رائد فتوح حجة)، كان رائد رائدًا في وطنيته وقد اعتقل من قبل العدو مراتٍ عدة، كنت على مودة دائمة معه، كان خبر مقتله بصاروخٍ من الطيران الصهيوني أقسى من ذاك الصاروخ لو استهدف صدري، قد رحل رائد مخلفًا وراءه ثلاثة أطفال وزوجة صغيرة ستتحمل أعباء تربيتهم مبكرًا.

توجهت إلى بيت العزاءِ الخاص برائد، عزيت أهله في عجل، توجهت إلى أختي مواسيًا لها ومقبلًا رأسها وطالبًا منها الدعاء لي والرضى عليّ، غادرتها إلى بيت ذوي مراد الذين أخبرت منهم أن مراد يتواجد لوحده في بيت أخيه رياض المُخلى!

دخلت على مراد البيت ووجدت عنده ما واستني رؤيته، ثلاثة رشاشاتٍ من طراز كلاشنكوف وجعب وذخيرة، سألته عن صاحبها فقال هي ملك الطيطي في يدي.

بعد دقائق من مداولتنا لأخبار مخيمنا ومخيم عسكر الذي كنت فيه سألته عن سبب وجوده في بيت شقيقه رياض، ولماذا زوجه وأولاده خارج البيت فأخبرني أن رياض قد أخلى بيته خشية قصفه أو نسفه من قبل العدو، وأضاف بأن رياض أرسل زوجه وعياله إلى بيت آل زوجته حتى يكونوا في مأمن هناك.

اقترح مراد عليّ أن نقوم بتفخيخ المنزل وأن نكمن فيه بما بين أيدينا من عتاد لملاقاة قوات العدو الذين ما زال بعض من آلياتهم في باب المخيم، وافقته المقترح، وبدأت العمل وإياه على إنجازه، ثلاثة أيام مرت ونحن على حالنا من الاستعداد الروحاني والعسكري لمواجهة الغازين، صلاة وصيام وتلاوة قرآن، الانتظار سيد الموقف ومراد بين الفترة والأخرى يخرج لتصيد الأخبار عن تقدم لجنود العدو لمنطقة البيت المفخخ الذي نسكنه!

ثلاثة أيام جاءت لنا آخر ثوانيها بالملل الذي نتج عن انتظارٍ طال لقادمٍ أدركنا يقينًا أنه لن يأتي خلال هذه الأيام. تقدم مراد مني بمقترح آخر وفيه قال.

- شو رأيك نكتب وصية للطيطي، ونحمل السلاح ونقتحم فيه معسكر حوارة، زي ما كنا نعمل واحنا صغار بس هالمرة بسلاح.

فاجأني بعجلته تلك للشهادة، طلبت منه أن يتريث فما زال أمامنا الكثير لنفعله، طلبت منه أن يصبر حتى تنسحب القوات الغازية من محيط المخيم كليًا لنخرج إلى شيء أكبر من اقتحام المعسكر. بعد أيام رجع إلي يحمل خبرًا مفاده أن الآليات تراجعت حتى معسكر حوارة عدا واحدة اتخذت لها نقطة مراقبة تجاه المخيم في أحد الشوارع الرئيسية المطلة عليه.

بدأت مع مراد تفكيك العبوات التي سبق وفخخنا بها المنزل، وأعطيناها لأحد الفتية من أقرباء مراد ليخبئها لنا في سهل المخيم.

خرجنا إلى ساحة المخيم، ومنها توجهنا إلى مسجد المخيم، صلينا صلاة الظهر فيه، دقائق وانطلقت مع مرادٍ إلى مقبرة الشهداء في المخيم.

والمشهد أبلغ من أن يوصف حيث يتوزع على قبور الشهداء من جاءهم يعاهدهم على اللحاق بهم أو يعاتبهم على رحيلهم الذي كان.

ذهب مراد لزيارة قبر ابن عمه أحمد، أما أنا فتوجهت إلى قبر الشهيد رائد فتوح، ولم يكن محمود الطيطي عني ببعيد فهو يتنقل بين قبري "المكيري" و"السنونو"، وقبور من سبقهما ولحقا بهما من أحبة وأصحاب.

خرجت من المقبرة إلى قهوة العاصي، أخبرت حمودة بأنني أتضور جوعًا فطلب مني أن أجلس في زاوية من المقهى لا يراني خلالها المارة، وذهب هو ليجلب الطعام لي.

مرّ ثلث الساعة وحضر حمودة بالطيبات (فلافل، حمص، فول)، أكلت في حضرته حتى ظننت أنني خزنت في بطني ما سيكفيني لعامٍ قادم.

بعد أن ارتخت أطرافي تخمةً توجهت إلى بيت والدي، وألقى عليّ موعظة سريعة عن الصبر والتحمل واساني فيها بعض الشيء.

دخلت إلى غرفتي، هيأت الفراش فيها لاحتضاني، وتعانقنا بالقوة التي أجبرت عيني على النوم دون تفكير.

قبيل الفجر نهضت من نومي، توضأت، وبدأت في قضاء ما كان علي من صلوات.

أنهيت دَيني، خرجت من البيت إلى مقهى العاصي التي كان أحد أبوابها مشرعًا لاستقبال السمار، دخلت هناك، كان عدد من المطاردين بالداخل، طلبت من مراد أن يخرج معي.

بدأت السير مع مراد بخطا هادئة تجاه مقبرة الشهداء في المخيم، أخبرته أنني أنوي الإعداد لعملية استشهادية ثأرًا لضحايا الاجتياح، وأنني وعلي كنا قد جهزنا عمليتين لم يكتمل لهما النجاح في بلوغ أهدافهما، وأن الأحزمة الناسفة التي كانت قد أعدت من قبلنا هي أحزمة فاعلة، والمشرف على إعدادها هو ذاته علي، أستاذي في علم العبوات والصواريخ.

صارحت مراد بقصة "النذير"، وأننا مستقلون في القرار والخيار ونقبل القسمة على جميع الفصائل والتنظيمات، وليس لنا هدفٌ في الوجود إلا القتال والمقاومة والجهاد، أخبرته عن علي وعما أصابه من مصابٍ لم يثنه عن إكمال طريقه وجهاده.

كان مراد يحرك رأسه ويقابل حديثي بابتساماتٍ تدخل الراحة للصدر.

أنهيت حديثي، بعد إسهابٍ طويل أخبرني مراد أنه ورغم عمله مع محمود الطيطي إلا أنه على علاقة وثيقة مع الجهاد الإسلامي، وأن مجموعة بها فهد وعلي وهمها الأوحد مقاتلة العدو سيكون له الشرف في أن يندرج اسمه تحت لوائها.

طلبت من مراد أن يكون معي ظهرًا للذهاب إلى علي في مخيم عسكر، ثم عدت معه إلى مقهى العاصي مجددًا، وفيها كان حمودة فقط، فمن كانوا عنده قد ذهبوا لتأمين أنفسهم قبل شروق الشمس.

صلينا ثلاثتنا الفجر بإمامة من العاصي. وبعدما انتهينا من الصلاة أخبرني العاصي أن العدو بدأ يدخل مناطق بجيباتٍ عسكرية فقط ويعتقل من منازل المواطنين من يشاء. أخبرته أن ذلك الشيء متوقع وحدوثه في المخيم ليس ببعيد.

طلب مني حمودة برجاء المحب لمحبه أن أحافظ على نفسي ما استطعت، جلسنا في أحاديث وأحاديث حتى طلع علينا الصبح وافترقت عن مراد وحمودة على أمل أن ألتقي مراد قبيل الظهر وانطلق معه من مقهى العاصي إلى النذير.

توجهت إلى مخيم عسكر بمفردي لأنبئ علي بما يدور في ذهني، ذهبت إلى باب بيته فأخبرتني زوجته أنه قلق عليّ، وأنه ينتظرني في الشقة التي أعلم ولا تعلم، وأعطتني رقمًا جديدًا لعلي قالت إنه ينتظر اتصالي عليه خلاله في أسرع وقت ممكن.

لم يكن في وسعي الاتصال بعلي فما معي من النقود لا يكفي لشراء هاتف نقال جديد، توجهت لمشغل فارس وطلبت من فارس استخدام هاتفه الخليوي الذي اتصلت منه بعلي.

رد على مكالمتي، عرفته بنفسي وبعد أن أنهيت ذكر اسمي له طلب مني إحضار فطور له، والتوجه إلى المكان الذي أخبرت عنه، أخبرته أنني سآتيه مع ضيف لي، فرحب دون معرفته بشخص الضيف، سبق خروجي من مشغل فارس أن قدم لي فارس بعضًا من المال متوسلًا مني أخذه، كان رزقي الذي وعدت به من السماء، اشتريت خليويًا مستعملًا، وذهبت إلى مقهى العاصي، أتى مراد إلى هناك.

طلبت من حمودة أن يشتري طعامًا سنحمله معنا إلى أحد المطاردين، لبى حمودة طلبي، وخلال دقائق كانت منتوجات "أبو حليمة" المحلية بين أيدينا (حمص، فول، فلافل)، وخرجت بها أنا ومراد ووجهتنا علي وشقته في رفيديا.

وصلنا الشقة ودخلنا عند علي الذي كان منشغلًا بتصنيع بعض المواد فيها، سلمت عليه بحرارة وكذلك فعل مراد.

كانا على معرفة مسبقة ببعضهما البعض من خلال لقاءات علي المتكررة بالطيطي وعويص اللذين كان مراد ملازمًا لهما في بعض وقته، ناهيك عن حديثي المتكرر لعلي عن مساعدات مراد لي وعن إشراكه لعدة مرات في مهام كان يلقيها إلي خلال مبيته في المشفى، وتنقله معنا في الاجتياح الأول لمخيم بلاطة.

تحدثنا خلال تناولنا الطعام عن المرحلة القادمة ودورنا فيها، وتلاقينا ثلاثتنا على هدف واحد هو القتال حتى النهاية.

أخبرنا علي أن الوضع الآن رغم سوءاته العظمى إلا أن العدو أمسى اصطياده أسهل، وأن علينا من الآن نزع أمنه وزرع الخوف فيه عند كل عملية اقتحام بُغية اعتقال أو اغتيال، ذكرت علي أننا فقدنا كل عدد التصنيع، وأن ما لدنيا الآن هو الفتات فقط ولا يكفي لسد حاجاتنا.

هنالك خرج مراد وأخبرنا أنه يستطيع تأمين بعض العدد من معارفه، تضافرت الجهود للبدء مرة أخرى بإعادة التصنيع والمختبر سيكون متنقلًا هذه المرة.

غادرنا علي وكلٌ قد علم دوره بشكل جيد.

أيام مضت وعاودنا الاجتماع في رفيديا ورابعنا سامر في هذه الجمعة! خلال تلك الأيام صارت الشوارع الرئيسية في نابلس منتهكة أمام آليات الحرب الصهيونية، وتستخدمها في التنقل بين المعسكرات، والخبر الأسوأ في تلك الأيام اغتيال محمود الطيطي ورفاق له خلال تواجدهم في مقبرة المخيم على أطلال الشهداء الذين سبقوهم.

بدأنا الإعداد للعبوات التي ننوي تفجيرها في أي مركبة صهيونية تنوي التوغل في شوارع نابلس الداخلية.

عبوة في أحد طرق مفترق الغاوي تم تفجيرها في ناقلة جند أعطبت تقدمها، وهرعت إليها دبابة لجرها من مكان الانفجار.

عبوة أخرى بالقرب من شارع سوق الخضار المركزي (الحسبة) تم تفجيرها في آلية عسكرية كانت متجهة برفقة رتلٍ عسكري إلى مركز المدينة.

عبوة ثالثة انفجرت دون أن تعطب أي آلية عسكرية انفجرت بعدما أُحلَ التوقيت فيها، وكانت في منطقة شارع (الحسبة) أيضًا، كانت تلك العبوات للفت النظر أن المقاومة ما زالت متواجدة حتى بعد كل ما كان من استنزاف لها.

صارت تثور الرغبة لدى مراد أن يتطور أداؤنا بسرعة تجاه الحزام الناسف.

صارحته أن الحزام موجود، ولكن أين من يلبسه؟ سرعان ما رد عليّ مراد وأخبرني بأن شقيقه علاء كان قد تعرض له في أكثر من مناسبة لإشراكه في صفوف القتال، وأن علاء يتمنى الفرصة التي يثأر فيها لابن عمه الذي اغتيل قبل أشهر. طلبت من مراد أن أتحدث مع علاء على انفراد ودون أن يفاتحه هو بالموضوع.

بُعيد أيام أخذت علاء واتجهت معه إلى مقبرة الشهداء ليلًا، وجلسنا في حضرة قبر الشهيد محمود الطيطي.

بدأت أسأله ويجيب وأسمع منه وأنصت له، وبعد أن انتهى الحوار بيننا، تأكدت أن هذا الشاب ينوي فعلًا إتمام ما صرح به لي وأنه مؤمنٌ بحقيقة ما سيفعل.

ودعت علاء وتمنيت منه أن يبقي ما كان بيننا مدفونًا في جوار الطيطي حتى أعاود لقاءه مرة أخرى، ذهبت إلى علي في شقة رفيديا وهناك شرحت له ما جرى ولم أخبره اسم الاستشهادي المنشود، أخبرته أن عملية إيصاله ستكون مهمة الاستشهادي نفسه فهو كان عاملًا في الداخل المحتل، واعتاد الدخول إليها حتى في الانتفاضة من خلال طرق التفافية ومنافذ تهريب.

اقتنع علي بما جئت إليه به وأخبرني بإمكانية استخدام الحزام الذي أعددناه للاجتياح شريطة أن أُعيد تأهيله خشية أن يكون قد أعطب فيه شيء ما خلال تنقلنا به من مكانٍ لآخر، وكلفني أن أعد للعملية بإشراك مرادٍ في الأمر دون أن يعلم أن الاستشهادي شقيقه.

بدأت صيانة الحزام على الفور بعد أن أخذته من علي برفقة بعض العدد التي توجهت بها إلى مختبري الأول؛ سطح بيت والدي، ولم أكن قد بدأت حتى حضر مراد لمشاركتي التجهيز لجهاز عرس أخيه.

ذهب مراد بعد إتمامنا للحزام لإحضار أخيه علاء لسطح بيتي، وخلال الطريق كاشف كلٌّ منهما الآخر، وشجّع الكبير الصغير، وما إن وصلا عندي مشحوني الهمم حتى ثبتنا خلفية لتصوير الوصية التي سيقرأها علاء، وكانت راية خضراء مزينة بالتوحيد إلى جانبها لواء يحمل شعار "النذير"، وبينهما صورة للشهيد محمود الطيطي وصورة للشهيد أحمد مرشود حسبما كانت رغبة علاء.

جهزنا طاولة وضعنا عليها جسد صاروخًا وعبوة مفرغة إضافة لقذيفة هاون وسلاح من نوع كلاشنكوف، بدأت التصوير لعلاء وهو يتلو وصيته ورسالته الأخيرة إلى أهله.

فرغنا من تصوير الفيديو، وطلبنا من علاء أن نأخذ معه بعض الصور التذكارية، كان قد لبس الحزام خلال إلقائه الوصية، وكان فرحًا به وكأنه إكسسوار لثياب يوم العيد أو يوم عرسه!

بدأنا نفكك الرايات ونزيل الصور ونرتب المكان، وأخذ مراد الحزام معه ليخبئه في صالون الحلاقة الخاص به، واتفقنا أن نلتقي ثلاثتنا صبيحة اليوم التالي في الصالون.

في الصباح ذهبت إلى الصالون وكان علاء ومراد قد سبقاني، بدأت

ألبس الحزام لعلاء وألفه عليه بشكلٍ يجعله غير ملفتٍ للنظر فالحزام الذي كان معه بوزن 32 كيلو جرامًا، ولذلك اضطررت أن أشده على جسده باستخدام أشرطة مطاطية عريضة، ناهيك أن الحزام يلف ظهر علاء وبطنه بشكل شبه كامل.

أنهيت تلبيسه وأجبرت على إلباسه قميصًا طويل الأكمام رغم حرارة الجو، مددت عليه بعض المال الذي يعينه لإكمال مسيره إلى هدفه فرفض أن يأخذها مخبرًا عن ذاته أنه قد تلقى مؤخرًا مبلغًا من مؤسسة داعمة للجرحى على خلفية إصابته في يده من قبل العدو في بداية الانتفاضة، وأبدى رغبته الملحة أن يكون هذا المبلغ أيضًا في سبيل الله.

خرجنا ثلاثتنا إلى السوق ليشتري علاء هاتفًا نقالًا جديدًا كي نتمكن من التواصل معه، أخذنا رقمه وأوصلناه إلى مجمع سيارات الأجرة الخاصة بطولكرم، وقبل أن يستقل علاء إحدى السيارات استترنا في زاوية من زوايا المجمع وودعنا علاء عناقًا وتقبيلًا!

ركب علاء سيارة الأجرة، وتوجهت أنا ومراد إلى مقهى العاصي في المخيم، وأخذنا مكانًا فيه نقلب في محطات التلفاز والمذياع. بعيد ساعات اتصلت بعلاء اسأله عن حاله، أخبرني أنه حاول الصعود لسيارة تقله إلى الخضيرة، لكن السائقين شكوا بأمره بعدما رأوه يلبس قميصًا بأكمامٍ طويلة في جوٍ حار.

طلبت منه أن يرجع حال ظن أن دخوله استحالة فأجاب بأنه سيتوجه إلى أحد الأماكن التي يعرفها ليبيت فيها حتى الصباح.

كنا نتقلب أنا ومراد على حر تلقف الأخبار، لم نترك المقهى حتى عندما أخبرنا حمودة بأنه ينوي الإغلاق، فطلبنا منه أن ننام هذه الليلة في المقهى فأغلق علينا الباب، وتركنا لشأننا.

صباح اليوم التالي توجه علاء إلى المكان ذاته ليحاول مرة أخرى مع السائقين، ولكن المحاولة باءت بالفشل، عاودت الاتصال بعلاء فأخبرني أنه سوف يتوجه إلى هدفٍ آخر، كان ذلك الهدف حاجز باقة الشرقية، وقبل أن يمضي نحوه اتصل بي وبمراد وأخبرني أنه يرى جيبًا عسكريًا صهيونيًا وثلاثة جنود حوله، وأنه ينوي الدخول بينهم وتفجير نفسه، وطلب مني ومن مراد الدعاء بعدما ودعنا وأغلق هاتفه ومضى!

بعد نصف ساعة أعلن في النشرات الإخبارية عن انفجار على حاجزٍ عسكري نتج عن عملية استشهادية، وأصيب أربعة جنودٍ صهاينة بينهم ضابط في حالٍ خطيرة!

قرأنا الفاتحة على روح الشهيد البطل علاء بعد هدوءٍ لدقائق نتبادل فيها نظرات لا يُفهم معناها.

توجهنا معًا أنا ومراد إلى علي نزف لهُ خبر نجاح العملية وإن كان بتقديرٍ كنا نتمنى الامتياز فيه.

أعطينا علي الصور وشريط الفيديو وأبلغناه اسم الاستشهادي، فتفاجأ أنه شقيق مراد، وأن مراد كان أحد المعدين لموت أخيه، وخرجت مع مراد إلى المخيم وتوجه علي لإعداد صور للشهيد ينعاه فيها باسم النذير.

جهزنا بيت العزاء للتهنئة بالعملية في مركز شباب بلاطة الرياضي، ومع حلول الليل خرجت أنا ومراد لنخط على الجدران نعي علاء باسم النذير، ونصف صنيعه بأنه أول الغيث. صباح اليوم التالي عاد لنا علي ومعه الصور التي أعد، وأخبرنا أن من كان وسيطًا بيننا وبين الجهة الداعمة للمقاومة من الخارج قد تردد في تبني تكاليف العملية، وقد هاب التواصل مع الداعم الذي قد يمكننا بدعمه من تطوير كفاءاتنا العسكرية بشكلٍ أسرع، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

انقضت أيام التهنئة باستشهاد علاء! خلال تلك الأيام صرنا على يقين بأن دائرة الاستهداف قد انضم إليها رابع جديد بعد علي وسامر وأنا، وقد تقدمنا ذاك الجديد بما كان منه من عطاء في أن يكون قربانه لله قبلة شقيقه الأصغر.

مراد الآن سيكون ساعدي ومسعدي، ولكن بيوت أقربائه التي كان يجعلني فيها أمست الآن في محيط الشبهة، فمراد أيضًا صار حاله كحالي، وتنقله بين كل ملجأ ومبيت صار حتمية واجبة عليه.

جاء علي بعيد تلك الأيام إلى المخيم وفيه التقيته، قمت معه بإعداد بعض المواد في سطح بيتي، ومن ثم خرجنا إلى مقهى العاصي، وكنت خجلًا من علي أتمنى أن يبيت عندي الليلة في المخيم، فخروجه في ذاك الوقت كان مخاطرة على حياته ووجوده في بيت أهلي خطر أعظم، فحتى أنا لا أحسن المبيت فيه.

بالصدفة مرّ من أمامي إبراهيم الناجي صديق المواجهات، ناديته في عجل وطلبت منه أن يوفر لي ولعلي مبيتًا عنده في البيت، فسُر من طلبي، رحب بي وأهل وقال بأنه سيكون في انتظاري في أي وقت، أخبرته أن الأمر لن يطول وأنني لن أكون ثقيل ظلٍ عليه، فرد بعفوية الأخ أن لك البيت وأصحابه.

رجعت إلى علي وأخبرته أن مبيته الليلة عندي في المخيم وأننا سنحل ضيفين على بيت إبراهيم الناجي.

ساعات مرت، توجهنا بغطاء من العتمة إلى بيت إبراهيم وبتنا في حضرته ليلة ويومًا، بعد أن أنهينا ضيافتنا هناك، خرجنا من باب بيت إبراهيم، علي إلى رفيديا وأنا إلى صالون مراد.

بعد أيام توجهت إلى علي في رفيديا، وهناك تعارفت بضيوفه إبراهيم سلامة ومحمد أبو الرب الملقب بـ"التيع"، دار بيننا حديث طويل انتهى بأن علي سيذهب إلى جنين للاستقرار فيها، وأن التواصل سيكون على الدوام بيننا حسبما تقتضيه المصلحة العامة، افترقنا من هناك كلهم إلى جنين وأنا إلى المخيم.

في المخيم اجتمعت مع مراد وشرحت له ما كان بيني وبين علي، أخبرته أن علي أخذ معه جزءًا من معدات التصنيع المنقوصة أصلًا ويجب علينا تحصيل بعض المعدات لإتمام منجزاتنا.

أخبرني مراد أنه عثر خلال تنقله في المخيم وبين البيوت المهدمة

على معداتٍ قد نستفيد منها موجودة في ركنٍ لم يستوِ في الأرض من منزل الطيطي المنسوف.

توجهت مع مراد إلى ذلك الركن، واستخلصنا منه ما يمكن الاستفادة منه، ثم وزعنا ما رجعنا به على سطح بيتي وبيت شقيق مراد المخلي وصالون الحلاقة الخاص بمراد علمًا أن ما عثرنا عليه من معدات ليس بالمستوى الذي يستحق التوزيع، ولكن ظروف المطاردة التي تلاحق أمثالنا تجبرنا دائمًا على مبدأ فرق تسد! وتوقع الأسوأ خلاله.

صنعنا أول العبوات من تركة الطيطي، وتوجهنا بها إلى مفترق طرق "الغاوي"، قمنا بزراعة العبوة في واحدٍ من تفرعاته.

كانت العبوة معدة للتفجير عن طريق الهاتف، فاعتلينا سطحًا لبيتٍ من بيوت الأصدقاء، يطل على المكان الذي زرعنا فيه العبوة.

بعيد ساعات، وخلال سمرنا مع صاحب البيت قدم إلى عبوتنا رتل عسكري مكون من دبابة وناقلتي جند، وما إن وصلت ناقلة الجند الأخيرة حتى فجّرنا العبوة فيها، وبدأ إطلاق النار العشوائي يصدر من آليات القافلة.

تكشف لنا بعد دقائق أن الناقلة تم إعطابها وتجرى الآن عملية سحب لها من قبل باقي آليات الرتل. اتصلنا بـ"أمير ذوقان" الذي كان بمثابة ناطق إعلامي لكتائب شهداء الأقصى، وطلبنا منه أن يعلن للإعلام تبني العملية باسم مجموعة الشهيد محمود الطيطي.

خرجت من بيت ذاك الصديق الذي عرف سبب زيارتنا المفاجئة له عقب سماعه انفجار العبوة وما تبعها من إطلاق نار قائلًا بتندر: "بدكم تخربوا بيتي".

مرت أيام ونحن نتنقل من زاوية لزاوية ومن مبيت لآخر، ورغم كل ذلك الضيق إلا أن عزاءنا بأننا نخط دربًا اخترناه بأنفسنا ولن نحيد عنه مهما بلغت التكاليف.

خلال تلك الأيام بلغني أن هناك رسولًا من علي يريد مقابلتي يتردد على مقهى العاصي، توجهت إليه بعد أن أكد لي علي خلال اتصالٍ هاتفي أنه أرسل إلي مبعوثه.

عرفني بنفسه، وكان اسمه ربيع ملايشة من قرية جبع، تبادلت معه الحوار عن علي وكيف يحيا عندهم.

كانت مجمل أخبار علي رغم صعوبتها تبعث طمأنينة في القلب ولو بجزء محدود، قرأت الرسالة التي أرسلها، وكان طلبه فيها أن أرسل له بعض المواد الخام للمتفجرات من خلال حامل الرسالة، وأن أجند شابين لتنفيذ العملية الاستشهادية التالية التي حان وقتها.

أخذت ربيع إلى صالون مراد، وهناك قام مراد بواجب الضيافة مع ربيع، وتوجهت أنا لتأمين طلب علي المستعجل من المواد، وخلال أقل من ثلاث ساعات كان طلب علي بين يدي ربيع الذي غادرنا مباشرة.

بعد أيامٍ من زيارة ربيع لي؛ عزمت أنا ومراد على زيارة علي في مأواه

في قريـة جبـع بجنين، وكنـا قـد حملنـا لـه هديـة زيـارة تيقنًـا أنهـا سـتكون مبعـث فـرح في صـدره.

كانـت الطريـق إلى قريـة جبـع صعبـة جـدًا، ولكننـا عزمنـا وتوكلنـا عـلى الله، قطعنـا طرقًـا التفافيـة وتضاريـس وعـرة عـلى الـدواب، وأحيانًـا عـلى الأقـدام عـزلًا لا نملـك أي سـلاح.

وصلنـا منطقـة في قريـة جبـع، كان ربيـع قـد أخبرنـا عنهـا إذا مـا وصلنـا بلـده نسـأل عنـه فيهـا، هنـاك حملتنـا أقدامنـا لمـأوى عـلي بعـد أن قادنـا ربيـع في المسـير.

كان مبيتـه في مغـارة فتحهـا الله لـه في جبـل مـن جبـال تلـك البلـدة، مدخلهـا بقطـر لا يزيـد عـن ثلاثـين سـنتيمترًا وباطنهـا يتسـع لنـوم ثمانيـة رجـالٍ مـن قـوام عـلي، دخلنـا عليـه بعـد أن أعطـاه ربيـع إشـارة بقدومنـا، تحدثنـا معـه بعـد عنـاقٍ حـار كان بيننـا، ومـن ثـم قدمنـا لـه هديـة الزيـارة التـي كانـت عبـارة عـن مـواد أوليـة لصناعـة المتفجـرات فسـعد لمـا قدمنـاه، وأخبرنـا أن قرائـن مـا جلبنـا بـدأ بالنفـاد لديـه، وخـلال الحديـث أعطانـا قائمـة جديـدة يـود منـا تأمـين مـا فيهـا مـن مـواد خـلال الأيـام القادمـة.

سـأله مـراد عـن سـبب اسـتهلاكه السريـع والكبـير لـكل هـذه الكميـات مـن المـواد، فأخبرنـا أن الطلـب عـلى إنتاجـه يزيـد يومًـا بعـد يـوم في محافظـة جنين.

خرجنـا مـن مغـارة عـلي بعـد أن أسـتودعنا الله فيـه نيتنـا العـودة إلى المخيـم، اقـترح عـليَّ مـراد أن نذهـب للمبيـت في بيـت أحـد أقربائـه ببلـدة العصاعصـة

القريبة من جبع فالوقت متأخر لملاقاة من يقلنا لطريق التفافية تكون أول خطوة لنا في الوصول للمخيم، وافقته ما اقترح وتوجهت للمبيت حيث أراد مراد.

في صباح اليوم التالي نزلنا إلى مركز المدينة في جنين، وقبل أن نستقل واحدةً من سيارات الأجرة توجهنا إلى منزل أحد أشقاء مراد يسكن هناك، وكانت زيارة خاطفة لم تستمر لنصف ساعة، ومن ثم ركبنا سيارة أجرة، وما إن انتهت بنا بطريق مغلقة حتى عاودنا ركوب أقدامنا والدواب للوصول إلى المخيم.

أسبوع مر وإذا بعلي يرسل إلي إشارة تنبئ عن تواجده في شقة رفيديا، على الفور توجهت إليه، وصلت هناك ودار بيننا حديث مطول كان فيه ما فيه من التحضير للمرحلة القادمة، وسؤاله عمّا إذا عثرت على من يستحق أن يجند لتنفيذ عملية استشهادية جديدة، وعمّا إذا جهزت له ما طلب مني من موادٍ وعُدَد، أجبته على كل سؤاله إلا تجنيد استشهادي جديد فلم يخطر ببالي أحد بعد.

أخبرته أنني سأعود إلى المخيم لآتيه منه بطلباته من المواد والعدة، وأخبرني هو بأنه سيزور زوجته في مخيم عسكر، وهناك سينتظرني.

كنت قد كلفت مرادًا بعيد زيارتنا المشتركة لعلي في قرية جبع بتحضير قائمة طلبات الأخير التي أعطانا، وكان مراد أهلًا لهذه المهمة؛ فقد كانت مخزونة لديه ومن عنده أخذتها، وتوجهت بها إلى مخيم عسكر

حيث بيت علي الذي ودّع أهله وفرح بما أعطيته وتوجه إلى مغارته في قرية جبع، أما أنا فعدت إلى مراد في مخيم بلاطة.

بعد أيام تفاجأنا عشاءً بطائرات حربية تغطي سماء المخيم وإطلاق نارٍ كثيف يقذف شرره في الشوارع الرئيسية والمحيطة به، سرعان ما بدر إلى الأذهان وتداولته الألسن أن ما هو آت اجتياح جديد ومفاجئ للمخيم.

سرتُ إلى مراد الذي وجدته بباب بيته، صرنا نتساءل ما بيننا في حيرة من الأمر ماذا نفعل؟ فنحن أصفار الأيدي، لا سلاح، لا عبوات، لا "كحتات" حتى، لا شيء معنا نهائيًا، تفاجأ بوجودنا شقيق مراد الأكبر رياض وجنّ جنونه، كان يتوقع خروجنا من المخيم فنحن في رأس قائمة المستهدفين الآن.

أخبرناه أننا لن نخرج من المخيم، وأننا مستعدون للموت فيه، وبعد أن أيقن عنادنا قادنا إلى مكانٍ قد يقينا الاعتقال أو الاغتيال، كان ذلك المكان منزلًا من منازل أهل المخيم طابقه الأرضي زريبة للأغنام، تركنا رياض فيها وغادر، وبقينا نحن في سمر وسهر مع الأغنام، وأزيز الرصاص لم ينقطع سماعه.

طلع الصبح، وجاء إلينا صاحب الأغنام وسألنا ما إذا كان لنا حاجة في شيء، طلبنا منه أن يتفحص لنا طريقًا للخروج، وعندما سنحت الفرصة خرجنا خلسة من الطائرات والقناصة المنتشرين على أطراف المخيم.

خلال حراكنا الذي لا نعرف وجهته بدأت مكبرات الصوت المثبتة أعلى الآليات العسكرية التي وصلت لتوها باب المخيم تصرح بأن على كل ذكرٍ يزيد عمره عن الخامسة عشرة التوجه إلى ساحة المدرسة الابتدائية للذكور أو ملعب كرة القدم المحاذي للمخيم وأي مخلٍ لهذا النداء سيتم إعدامه فورًا.

تكررت تلك النداءات بعد أن سمح لها وقف إطلاق النار بأن تصل لكل الآذان في المخيم.

بدأ الناس خروجهم إلى حيثما طُلب منهم وانخرطنا أنا ومراد في أفواج الزاحفين، رأينا بعضًا منهم مثل حالنا من مطاردين للعدو يخرج ليقر حيثما أُمر، كان ذلك المشهد ثقيلًا علينا "الاستسلام" الذي لم نكن نريد، ولم يكن معنا سلاح حتى لأن نواجه غيره.

أخبرت مراد أنني لن أسلم نفسي ولن أمضي إلى ما مضى الناس حتى لو مت، وقابلني مراد بنفس العناد الذي عهدته فيه.

رددتُ عليه بأن أمه قد ثكلت بفقد علاء وأن تكون أسيرًا أرحم على قلبها من الموت بعيد رحيل علاء.

رفض مراد طرحي وأصر أن يكون معي للنهاية، ومع استسلامي لقراره طلبت منه أن يذهب لوداع أهله في عجل، وأنا ذهبت لوداع أهلي وداعًا كنت أحسبه الوداع الأخير.

خرجت من عند أهلي وإذا بشقيق حمودة العاصي بباب المقهى، فأخبرني أن حمودة لم يكن في المخيم، وكنت أعلم بأن مهدي شقيق "حمودة" هذا على شاكلتي مطارد للعدو، سألته عن وجهته وأخبرته وجهتي فتشجع أن يكون بصفي بعدما كان قد همّ لتسليم نفسه، تأخر مراد على المكان الذي حددنا فيه اجتماعنا، خمنت أن أهله ضغطوا عليه ليسلم ذاته.

توجهت أنا ومهدي إلى حارة "البدود"، واقترحت عليه أن ننزل في قناة للصرف الصحي ولكنه رفض الفكرة، وساقني إلى بيت جدته المخلى، ودخلنا البيت دون أن يلمحنا أحد، جلسنا فيه وحدنا وتمنينا لقاء الله في حضرتنا.

انتهت المهلة التي منحت لإخلاء البيوت من الذكور إلا العجزة أو الأطفال، استؤنف إطلاق النار العشوائي، وبدأت الآليات تتوغل تباعًا في حارات المخيم وجنود العدو يتوزعون منها على الأسطحة بعد اقتحام بيوتها تحسبًا لفرار أحدٍ من المطاردين عبر التنقل بينها، فجدران البيوت وأسطحتها في المخيم عادة ما تكون مشتركة للجميع.

كنا نراقب الحال ما استطعنا من خلال شقٍ بسيط في إحدى النوافذ، مرت امرأة تهرول من أسفل النافذة همس لها مهدي وسألها عن الأوضاع في المخيم إن توفر لها أخبار عن ذلك.

أخبرتنا أن جنود العدو يقتحمون بيتًا بيتًا من بيوت المخيم إضافة للمحال، ولا يكاد يمرُ عليهم مسقوف دون تفتيشه.

بدأنا نعد لخطة نتجنب فيها إبصار العدو لنا حال اقتحم البيت، اقترح مهدي عليّ أن نلبس هندام نساءٍ مما توفر في خزانة ملابس جدته، ونفر كأننا نسوة في الشوارع إذا ما وصلت القوات الصهيونية الحارة التي نحن فيها. لم ترق لي الفكرة ورفضتها بشدة أحسست أنها من ضعف المروءة لديَّ. بدأت أتفقد الدار بعناية حتى عثرت على حلٍ سحريٍ فيها، ولكن قد ينقلب السحر خلاله على الساحر.

كان البيت الذي نحن في أحضانه تطل إحدى نوافذه على زقاقٍ مغلق بجوانبه الأربعة، مفتوح فقط للسماء بهدف التهوية للبيوت المطلة عليه، وهما بيتان فقط، على واجهات الجوانب الأربعة نوافذ اثنتان منهما صغيرتان واحدة لحمامٍ في بيتنا والأخرى لحمام في بيت الجيران، ونافذتان كبيرتان واحدة للبيت المجاور أيضًا والأخرى خاصتنا، كان هناك بين مصارع النافذة هذه وبين الخروج منها إلى الزقاق المغلق، قضبان حديدية "حراسة" تمنع أي شخصٍ من دخول البيت أو الخروج منه خلال هذه النافذة.

بدأت حلي السحري وعملت مع مهدي على خلع تلك الحراسة دون إحداث أثر أنها خلعت.

بقليل من الصبر وكثير من هدوء الأعصاب أنجزت الخطوة الأولى وصار من السهل علينا فك الحراسة وإعادتها إلى مكانها دون أن تثير أي شكٍ لمن يراها أنها فُكت أو قابلة للفك أصلًا.

على نافذة أخرى مرت امرأة من تحتها سألناها ما إذا كان لديها أي أخبار فأجابت أن الجنود الصهاينة اقتربوا من الحارة التي يتواجد فيها

مأمننا، وأن الجنود يفجّرون باب أي بيت لا يقبل من فيه فتحه لهم.

ساعة تلت ساعة ونحن ننتظر دور البيت الذي أمنا نفسينا فيه في أن يصل جنود العدو، طالت الساعات فغفت أعيننا قليلًا رغم أخبار المرأة عن اقتراب الجنود لحارة البيت الذي نحن فيه، عصر اليوم التالي حوصر البيت، بدأ الجنود بهمجية مطلقة قرع الباب والصراخ بأعلى صوتهم مطالبين أهل البيت أن يفتحوا بابهم وإلا فجرّ.

كنا قد توجهنا ومنذ الصرخة الأولى إلى حيث الخطوة الأولى، خرجنا من النافذة وأعدنا الحراسة بعدما خلعناها للخروج، التقينا بجدار ذاك الزقاق، كدنا نستوي مع الجدار، لا همس ولا رمش، الجنود صاروا في الأسطح المجاورة!

اقتحم البيت، بدأ الجنود إفسادهم في محتوياته فلا راد لكيد منهم أو بطش، نصف ساعة مرت حتى بدأوا بالانسحاب!

عين الله حفظتنا، أظلنا الله بالجدار حتى حمانا أن تطالنا أبصاره.

عدنا إلى البيت بعدما تأكدنا من انسحاب الجنود من خلال محادثتنا مع أصحاب البيت المجاور بواسطة النافذة الخاصة بهم التي تتلاقى فيها الزقة التي كانت بمثابة الملجأ لنا!

مرت ثلاثة أيام خلالها لم تكد تتوقف الطائرات عن إطلاق رشقات من نيرانها دون أهدافٍ تذكر، والآليات تتحرك بين الحارات والشوارع في المخيم.

صباح اليوم الرابع بدأنا نسمع صوتًا آخر يصل لآذاننا، النساء خرجن للشوارع وبدأ تردد صوتهن يصلنا "القوات الصهيونية" انجلت عن المخيم.

فتحت ومهدي شق الباب قبل أن نلجأ للنوافذ، وجدنا حراكًا مكثفًا للنسوة، أكدنا ما وصل لأسماعنا، وخرجنا من البيت وخلال مسيرنا كلٌ لأهله بدأت جموع الذكور التوافد للمخيم بعد ما كان العدو قد اعتقل منهم كل مطلوبٍ لأجهزة أمنه.

كان الدمار على جوانب الطرق هائلًا جدًا، كنت أسير وأسمع الخبر عن أسماء كل أسير قد اعتقل خلال هذا الاجتياح.

وصلت بيت أهلي، عانقت أمي، قبلت يدها، طلبت منها الدعاء والرضى!

جميلٌ أن تستشعر خوف محبٍ عليك!

هو ذاته خوفي على من أحب أخرجني من بيت أهلي إلى بيوتٍ لأقرباء مراد، بدأت أسئلتي عن مصير مراد، لم تتوافر الإجابات لأحد، حتى حضر في ذكره ابن الحلال، توجهت إليه عانقته حامدًا الله على سلامته، سألته كيف فرّ فأجاب بأنه تنكر بزي امرأةٍ منقبة وفرّ إلى مخيم عسكر الذي أيضًا وصله الاجتياح، ولكن الله مكّن له في استخدام بطاقة شخصية مزورة احتال بها على الجنود الصهاينة.

توجهت مع مراد إلى صالون الحلاقة الخاص به، هناك بدأنا نتواصل هاتفيًا للسؤال عن أسماء المعتقلين خلال هذا الاجتياح، وتبين لنا أن فيهم رفاق درب لي ولعلي كان من بينهم محمد شقيق جمال، والمصاب الجلل اعتقال انتصار شقيقة علي الكبرى، وكفاح شقيق علي الذي يكبره بعامين.

مساءً حضر إلى ضيافتي فارس في سطح بيتي، أخبرني بما وراء اعتقال انتصار وكفاح، لقد كان أمر اعتقالهما عن قرار أمني من حكومة العدو يقضي بالتضييق على رؤوس الإرهاب!

والد علي كان أيضًا ثالث اثنين تم اعتقاله هو الآخر، وأُفرج عنه في اليوم التالي بعدما تم التأكد بأن حالته الصحية سيئة جدًا.

بلغ علي خبر اعتقال أخته وأخيه، كان وقع الخبر صعبًا بلا شك على نفسه، ولكن ذلك لم يثنيه عن أن يرسل لي طلبًا في استعجالِ ما طلبه مني ذات مرة في الرسالة المكتوبة.

كنت قد عثرت على نصف طلب علي قبل الاجتياح الأخير بيوم، فلقد لاقاني إبراهيم الناجي (برهوم) وأخبرني نيته اللحاق بعلاء، وألّح عليّ في مساعدته بأن يكون في مركب استشهاديي الانتفاضة، لكن النصف الثاني بقي بعيد المنال بالنسبة إلي. كان في يد مراد الذي كاشفته بطلب علي مني.

أخبرني مراد بأن هناك شابًا قد همّ بطلب أن يكون منفذًا لعملية استشهادية، كان ذاك الشاب يدعى محمد أبو عطا الله ومعروفًا بلقب "الشقور"!

طلبـت مـن مـرادٍ أن يجمعنـي بالشـقور وبعـد أن جمعـت معـه تأكـدت مـن حسـن نيتـه وصـدق توجهـه، وأخبرتـه أن يبقـي الأمـر دفـين صـدره حتـى إشـعارٍ آخـر.

11

مـرت أيـام، أرسـلت لعـلي أنني عثـرت عـلى طلبـه، وقريبًـا سـأكون معهـما عنـده. وفي ذاك الحـين اجتمعـت مـع برهـوم والشـقور في مسـجد عبـاد الرحمـن؛ مسـجد المخيـم الرئيـس.

في أحـد أركان المسـجد جلسـنا ثلاثتنـا. عارفتهـما عـلى بعضهـما بعضًـا، أخبرتهـما أنهـما سـينفذان عمليـة مزدوجـة سـوية، سُر كلاهمـا بالخـبر، وبـكل تلقائيـة احتضـن الشـقور برهـوم.

اتفقت مع الشقور وبرهوم أن نتحرك صباح اليوم التالي إلى جنين حيث سنلتقي هناك من يقلهما لشأنهما، ومجددًا أكدت لهما أن يحفظا ويكتما حاجتهما حتى تنقضي، وأن لا يأتيا بأية حركة تثير شكًا أو تساؤلًا لأهلهما أو للعامة.

أذن العشاء، قمنا للصلاة حتى انقضت وانتشر المصلون يبتغون من فضل الله ونحن تفرقنا إلى سبيل الله، كلٌ إلى بيته إلا أنا مبيتي عند مراد حتى موعد المسير!

صباح اليوم التالي توجه مراد إلى صالون الحلاقة وأنا إلى بيت والدي ومنه إلى مقهى العاصي.

حضر إلي "الشقور"، طلبت منه أن يتجه إلى الصالون عند مراد ليقص شعره ويبقى في حضرته حتى آتيه هناك.

قص الشعر بما يتناسب مع قصات الشعر "الإسرائيلية" واجب أمني يجب الرضوخ له حتى يتسنى للشاب الذي ينوي إتمام عملية استشهادية داخل كيان العدو الانخراط بالصهاينة بدون إثارة أي شك!

ذهبت إلى برهوم حيث بيته، بعد قرعي للباب خرجت لي أخته الصغيرة التي أخبرت عن برهوم بأنه نائم.

أُدخلت إلى غرفة برهوم، بعد هزٍ له صحا وشرع لترتيب نفسه، خرجنا سويًا من الغرفة التي كان في بابها والدة برهوم والتي أخبرها برهومٌ أنه سيتوجه معي للعمل في مزرعة دواجن خارج المدينة بعد أن قبل شخص بتشغيلنا لديه.

توجهت مع برهوم إلى صالون مراد، وفي عجلة سرح برهوم شعره، وأخذنا الشقور لنستقل سيارة أجرة حملتنا ثلاثتنا من المخيم إلى بلدة عسكر، ومنها إلى بلدة عصيرة الشمالية، ومنها إلى بلدة جبع إلى المكان الذي لاقاني فيه ربيع المرة الأولى، منه أُخذِنا إلى مغارة علي، وهناك جلسنا أربعة بعد مغادرة ربيع لنا.

ما إن أنهى علي أسئلته لـ "إبراهيم الناجي" و"محمد أبو عطا الله" متأكدًا منهما سلامة توجههما الفكري الذي قادهما لقرار الموت هذا حتى أخذناهما وتوجهنا بهما إلى بيت مهجور قريبٌ من الكهف الذي نحن نجلس فيه، وبعد أن أنهينا التصوير عدنا أدراجنا إلى الكهف.

في الكهف بدأت الروحانيات تنزل بأجمل الحلل على الشقور وبرهوم وهما بين ترتيل لكتاب الله وصلاة نافلة. بينما أنا وعلي منشغلان بإعداد حقيبتين متفجرتين لهما.

كانت الحقيبتان اللتان أحضرتا مسبقًا لهذا الغرض حقيبتي ظهر وقد امتلأت كلتاهما بالمواد المتفجرة وقطعٍ حديدية صغيرة ومسامير وبراغي لتكون شظايا الانفجار، أما زر تشغيلِ صاعق التفجير فكان مثبتًا على شريط الكتف لكل حقيبة.

انتهينا من إعداد الحقيبتين، توجهت مع علي إلى بئر ماءٍ قريب، شربنا منه وتوضأنا ورجعنا إلى مغارتنا بقوارير معبئة من ماء البئر!

في حضرة الشقور وبرهوم أمَّ ثلاثتنا علي لصلاتي المغرب والعشاء

في جمع لهما، فرغنا من الصلوات جلسنا للتسامر قليلًا، طلبت من برهوم والشقور أن يتصل كل منهما بذويه، تحدث برهوم مع أهله وكان تصورهم عنه على حاله "إبراهيم توجه للعمل"، أما الشقور فقد أحس أهله بماهية ما سيكون والذي مع اتصاله بهم بدأوا محاولاتهم في ثنيه عن قراره، ولكنه أنهى تلك المحاولات بإغلاق هاتفه، انزوى ليس ببعيدٍ عنا، ذهبت عنده أخبرني بما كان، أوصاني بأهله خيرًا وخص أمه بالوصية.

طلبت من الشقور كتابة وصية لأهله مغايرة لتلك المصورة ففعل، وكذلك كان طلبي من برهوم الذي فعل هو الآخر، خلال كتابتهما كلٌّ لوصيته، كان علي قد شغل نفسه بالتهجد، وانشغلت أنا مع المصحف بباب الكهف.

خيّم الهدوء على الكهف، أصحابه هدوا إلى الرشد كلٌّ منهم يستمطر الرحمة من بارئها، فجأة هتك هدير الطائرات ستر الهدوء الذي كان يغشانا، أصوات حراكٍ لآليات عسكرية ثقيلة، ومعها بدأت تنير محيط تواجد مغارتنا بالقنابل الضوئية.

هرعت إلى أصحاب الكهف، أخبرتهم عن الحال في الخارج طالبًا منهم الخروج خشية عملية إنزال عسكري مفاجئ.

خرجنا جميعًا من الكهف، صعدنا إلى شجرة تينٍ كبيرة، التصق كل واحدٍ منا بفرع فيها. كان علي يحمل مسدسه وقنبلة يدوية وأنا أحمل أخرى، أما الشقور وبرهوم فحملا حقيبتيهما المفخختين، الطائرة الصهيونية ما زالت على حالها تحوم في سمائنا.

كانت ألسنتنا تتحرك بدعاءٍ لا يسمعه إلا الله، قلوبنا تدق فيها طبول اللقاء بالعدو الذي نحسبه قد حان.

لم نطق صبرًا أن نبقى معلقين في شجرة التين، خرجنا تباعًا بعد أن توقف إطلاق القنابل الضوئية، وتوجهنا كلنا خلف علي للالتحاق بسلسلةٍ من الحجارة كان يظلها فروع بعض من الأشجار، فجرًا سمعنا صوت إطلاق نارٍ قريب ولكنه ليس بوجهتنا، قرابة الخامسة صباحًا انقشعت الطائرة الصهيونية من أجوائنا، لكن الدبابات تتراءى لنا في شارع أسفل الجبل الذي ضم كهفنا.

كان علي قد نسق مع إبراهيم سلامة لأن يأتي لإيصال برهوم والشقور إلى منطقة حدودية تمكنهما من الدخول إلى كيان العدو، عبثًا نحاول تفسير ما يحدث حولنا، هل نحن المستهدفون من هذه الدبابات وتلك الطائرة أم أن هناك آخرين على حالنا في منطقة قريبة؟!

اضطر علي للاتصال بسلامة وسؤاله عن سبب تأخره في أخذ ما كيل له، أخبر سلامة أن المنطقة محاصرة ولا يمكن أن يصل إلينا، وهناك عملية مطاردة في المنطقة من الجيش الصهيوني لكوادر من الجهاد الإسلامي، ثلاثةُ أيام عجاف استمرت على هذا النحو، نتنقل فيها أربعتنا بين الأشجار وسلاسل الحجارة والمغارة، معًا حينًا وحينًا فرادى. ننتظر مصيرًا مجهولًا، وإجابات لأسئلة وليدة حال: هل ستكون عملية "برهوم والشقور" بيننا؟ هل سنرحل سويًا لعالم الخلود؟، هل سيكون منا أسرى؟، توتر وطمأنينة، ازدواجية تجتاح الصدور والأفئدة، لا نعلم متى ستتضح لنا الرؤية، الصلاة! الصلاة! أرحنا بها يا علي!.

في الليلة الثالثة أذن الله لنا بالفرج، فرغم الطوق الأمني المفروض من العدو على المنطقة إلا أن سلامة قد اخترق ذاك الطوق وتمكن من اجتيازه إلينا، تحدث معنا وأخبرنا أن الطريق مؤمنة في صباح الغد لعبور الاستشهاديين إلى عمليتهما.

اتصلت بمراد، وتفاجأت منه بأن هناك من أشاع في أهالي المخيم خبر خروجي مع "برهوم والشقور" لإرسالهما لعملية استشهادية، ومن مراد علمتُ أيضًا أن ذوي الشهيدين المرتقبين يترددون لبيت أهلي طالبين الحديث معي للضغط عليّ لإعادة ابنيهما لهم، وفي صياغة الطلب كانت لهجة التهديد والوعيد بالقول إن مسّ ابنيهما أي مكروه.

في المخيم حاول مراد جاهدًا تكذيب الإشاعات _الصادقة في الواقع_ ولكن دون جدوى فالخبر عمّ المخيم كالنار في الهشيم.

وضعت "برهوم والشقور" في صورة المخيم وما كان فيه، خيّرهما علي بين أن يكملا ما جاءا لأجله أو ينقلبا إلى أهلهما سالمين.

اختار "الشقور وبرهوم" أن ينفذا العملية فالصبر الذي كان منهما في هذه الأيام الثلاثة زادهما إيمانًا بأن يمضيا لهدفهما الأسمى. وفي محاولة منهما لتخفيف حدة الإشاعات على ذويهما اتصل برهوم بأهله يمثل عليهم أنه على رأسِ عمله، وفي الغد سيعود، وكذلك فعل الشقور تحدث هو الآخر مع ذويه وأخبرهم أنه في طريق عودته إليهم، وهو موجود في رام الله والمواصلات غير مؤمنة فيها في هذا الليل.

أُقفلت الهواتف النقالة، وبدأنا سهرة الوداع الأخيرة، توضأنا وصلينا أربعة وخامسنا إبراهيم سلامة، ثم نزلنا إلى واحدٍ من البيوت المخلاة الذي سبق وصورنا فيه وصيتيَّ برهوم والشقور، هناك استحم الشهيدان بعد أن حلقا وجهيهما، ثم عدنا إلى المغارة وغادرنا سلامة منها ليعودنا في الصباح.

في الصباح حضر ابراهيم سلامة، وفي صحبته طعام إفطارٍ لنا، أخبرني أنه جلبه لي ولعلي، أما "برهوم والشقور" فقد نويا الصيام بإيمان أن إفطارهما سيكون في رياض الجنة، بدأت وعلي توديع "برهوم والشقور"، وأودعناهما في أمانة إبراهيم سلامة، وبعيد الوداع أعطى علي لبرهوم هاتفًا جديدًا طلبنا منه استخدامه فقط للاتصال بي ودون ذكر أي اسم خلاله.

كانوا ثلاثة رجال غادرونا يصحبهم دعائي ودعاء علي. كانت الساعات تمر عليّ مع علي كأنها دائرة نار تضيق حولنا تقترب من التهامنا، الوقت يمضي ولا إشارة بعد ينبئنا بها ابن سلامة أن الشهيدين، رافقتهما السلامة.

أذن الظهر، صليناه وجمعنا به العصر، أذن العصر وحان المغيب، وصل إبراهيم سلامة بالسلامة إلى الكهف وفي جعبته الحكاية عن سبب كل هذا التأخير.

أخبرنا أن الأمور كانت صعبة للغاية في تنقلهما وأن هناك انتشارًا مكثفًا لقوات العدو في غالبية المناطق التي سلكوها للوصول إلى منطقة سيكمل منها "برهوم والشقور" عبورهما إلى قلب كيان العدو.

مضت ساعة على وصول إبراهيم، وعندها رن هاتف كنت قد أعطيت رقمه فقط لبرهوم قبيل مغادرتنا، وفعلًا كان لي طرف الاتصال المقابل، أخبرني على عجل ممزوجٍ بفرح أنه وبعد ساعة سيكون وصاحبه في مدينة "تل أبيب" الصهيونية، وأنهى الاتصال على هذا.

مرت الساعة، اتصلت مع بداية الساعة الثانية ببرهوم الذي سرعان ما أجابني مخبرًا عن وصوله للتو إلى شوارع مدينة "تل أبيب" وصاحبه معه، نبرة صوته تنم عن متلهفٍ للقاء محبوبته بعد طول هجران، صوت ضحكاته الهازئة بالموت يحفر أذني، بالغ في استهزائه بمن في المدينة حتى قال لي: "خد هذا الرقم وكان لصاحب مطعم مغلق برهوم ببابه، أخبر صاحب الرقم أن هناك استشهاديين يريدان تفجير نفسيهما داخل مطعمك"، بابتسامة مني أخبرت برهوم أن هذا الوقت وقت لا يقبل المزاح، أجابني بحماسة: "أن لو اجتمع الثقلان الآن على منع هذه العملية فلن يتموا مأربهم"، وختم مقولته طالبًا مني الدعاء له بعد أن أخبرني أنه سيعمل على البحث عن هدفٍ بديل عن المطعم المغلق.

أنهيت المكالمة، أخبرت علي وإبراهيم بما كان بيني وبين برهوم في الاتصال، فطلبا مني معاودة الاتصال به بعد دقائق خمس.

اتصلت ببرهوم مجددًا، قال لي إنه عثر على المكان المناسب الذي يتوزع فيه الجنود والضباط الصهاينة، وكان ذاك المكان عامًا على طرف أحد الشوارع، أضاف برهوم لي أن الشقور يبعد عنه قرابة مائة متر، وأن الانفجار سيكون بنفس التوقيت لحقيبتيهما، وأن الإشارة التي اتفقا عليها

تقضي بأن يضع برهوم يده على رأسه واليد الأخرى ستلحقها إلى زر التفجير وكذلك يد الشقور، قبل أن ينهي برهوم محادثته معي جدد طلبه مني الدعاء وأوصاني بأمه وأهله خيرًا واختتم "لا تتأخر علينا".

سمعت بسملته وإذا بانفجار يصلني صوته عبر سماعة هاتفي، برهوم أعطى الإشارة للشقور، لتكون آخر كلمات برهوم وهو على الجهة المقابلة في خط الاتصال "إدعيلي".

قطع الاتصال، عاودت الاتصال مرة أخرى، الهاتف مغلق، أسقط هاتفي من يدي، صمتُ بلا همسٍ أو نفس، استندت إلى صخرة خلفي، توجه إلي علي وإبراهيم وسألاني ما الذي حصل؟ أجبت بكلمة واحدة لم أزد عليها: "استشهدا".

انفعل علي وإبراهيم، واستند كل واحد إلى صخرة في الكهف صامتين دون أي كلمة، دقائق مرت نطق علي: "الفاتحة على روحيهما"، قرأناها ثلاثتنا كلٌ في سره، خرجت من الكهف، ولحق علي وإبراهيم.

انزويت تحت شجرة وجلسا تحت شجرة مقابلة لي، رن هاتف علي، كان المتصل سامر الذي أخبر علي بأن التلفاز أذاع خبرًا عن عملية استشهادية في "تل أبيب"، طلب علي من سامر تزويده بالأخبار تباعًا ومعاودة الاتصال بنا حال توفرت لديه أخبار أخرى عن العملية.

عاود سامر الاتصال بعلي بعيد دقائق مخبرًا أن هناك العديد من القتلى والجرحى في صفوف العدو والحصيلة في تزايد مستمر، وأن العملية

تمت من خلال شخصين فجّرا نفسهما بالمكان، عندها صرح علي لسامر بأن هذه العملية من تدبير "النذير" وهي سبب اختفاء فهد من نابلس!

ناداني علي، أخبرني بشأن الاتصال واتصل أمامي بمراسل قناة المنار الفضائية، وأعلن أن العملية من تدبير مجموعات النذير الاستشهادية وأن الوصايا المصورة للمنفذين سيتم إرسالها للفضائية خلال اليومين القادمين.

كان الحصار المفروض على المنطقة قد بدأ بالانفراج، اتصل بنا سامر صبيحة اليوم التالي، وأخبرنا أن الحصيلة النهاية للعملية كما أعلن إعلام العدو ستة قتلى وأكثر من أربعين جريحًا.

أخذت شريط الفيديو الخاص بالشهيدين والصور والوصايا المكتوبة وتوجهت أقصد نابلس، وعليٌّ سار معي يقصد قرية بزاريا، أما إبراهيم فأودعناه بلدته وكهفنا.

خلال مسيري مع علي على الأقدام مظللين بالأشجار المنتشرة على التلال رن هاتف مع علي والساعة قاربت العاشرة صباحًا، كان صاحب الاتصال مراسل صحفي لإحدى الفضائيات، وسأل: هل أنت علي العجوري من مخيم عسكر؟ أجاب علي في دهشة: "نعم، أنا أمس تحدثت معك بشأن تبني عملية تل أبيب هل من شيء؟"، وبلا مبالاة من المراسل الذي لا يبحث إلا عن سبقٍ صحفي تكلم: أود إعلامك أن جيش العدو قد هدم منزل ذويك واعتقل أفرادًا من أسرتك! ما هو تعليقك سيد علي؟

أغلق علي هاتفه، بدأ يتحسب ويحوقل، كانت المكالمة مسموعة لي فعلي كان قد فَعَّلَ السماعة الخارجية في هذه المكالمة، ما إن وصلنا نقطة افتراق كلٌ إلى مقصده حتى أعطاني مبلغًا ماليًا عبارة عن ألف وستمائة شيكل، وكان قد أخبرني مسبقًا عن تلقيه مبلغ ثلاثة آلاف شيكل كدفعة أولية لتمويل عمليتنا وتوابعها عبر وسيطنا مع الجهة الداعمة للمقاومة من الخارج في شمال الضفة، وقدم لي مسدسه، وقال لي بأنه سينهي زيارته إلى قرية "بزاريا" بسرعة، ويذهب لتفقد من بقي من أهله وما بقي من بيتهم في مخيم عسكر، ومن ثم سيرجع إلى قرية جبع حيث إبراهيم سلامة.

سلكت طريقي وحدي وبين الفينة والأخرى أُخرج وصية إبراهيم وأقرأها، وصلت نابلس ومنها أخذت سيارة أجرة إلى مخيم بلاطة، ونزلت أمام بيت فيه مراد دون أن يلمحني أحد.

كنت قد أعلمت مراد بوصولي هاتفيًا، دخلت البيت الذي ترك بابه مفتوحًا لي، ما إن رآني حتى هرع إلي وعانقني بشدة، طلبت منه تخبئة ما معي عدا المسدس والنقود في بيته.

اتصل مراد بشقيقه الأكبر رياض، أتى رياض لمعانقتي ومواساتي، طلب مني أن أذهب لبيته للاستحمام وتبديل ملابسي، وقبل هذا بأن ألتقي إخوة الشقور.

حضر إخوة الشقور إلى بيت مراد وكانا اثنين عانقاني، وبكيا في حضرتي وطلبا مني أن أعودهما في بيت العزاء بأخيهم، خرجا من البيت

وخرجت أنا إلى حمام رياض، استحممت وبدلت بملابسي ملابس من عند مراد الذي يكبرني حجمًا، ولكني مجبر على لبسها كالعادة فملابسي متسخة إثر مسيري على الأقدام والحصار الذي كان مع أصحاب الكهف!

ذهبت إلى بيت عزاء الشقور، سلّمت على أهله وذويه وهنأتهم كما أوصاني ابنهم، وكان معي مراد الذي صحبني أيضًا إلى بيت عزاء برهوم وكما الأول قمنا بواجب العزاء مع ذوي الثاني، في كلتا الدارين أعطيت رقم هاتفٍ جديدٍ معي للعائلتين.

خرجت إلى أهلي الذين كان بظنهم أني مت وأقاموا لي مأتمًا في البيت، بدأت أعزي أمي بحياتي وطلبت منها تحضير الطعام لي ولمراد الذي دخل معي لغرفة بها خزانة ملابسي، ومنها بدلت ملابسي وجلست مع مراد في انتظار الطعام.

خلال تناولنا للطعام طلبت من مراد أن يأتي بصور الشهيدين، وأن يذهب هو بشريط الفيديو ليخرج منه نسختين.

عاد مراد إلي بالصور وذهب لشأنه، واتجهت أنا مع الصور إلى مطبعة خارج المخيم.

في المطبعة جلست خلف حاسوب إلى جانب مصمم لملصقات الجدران، وبدأت أشير عليه كيف يكون المُخرج الذي أريد وبعد اتفاق ما بيننا غادرت المطبعة معلمًا القائمين فيها أن هناك من سيأتي في الغد لاستلام ملصقات نعي الشهيدين، وتركت لهم نصف تكلفة الإنتاج.

عدت إلى مقهى العاصي في المخيم، كان قد سبقني إليها مراد، بعيد صلاة المغرب وردني اتصال كان صاحبه شقيق إبراهيم الناجي وفيه يقول: بأن والده يود رؤيتي الآن في أمرٍ هام لا مجال لي لتأخير عليه.

ذهبت مع مراد إلى بيت العزاء، وهناك طلب مني الحاج والد إبراهيم أن أتوجه معه إلى بيت عم الشهيد لمحادثة جانبية لا يجب على مراد أن يكون فيها، طلبت من مراد أن يغادر، لم يرض مراد في بداية الأمر، ولكنه رضخ بعد إلحاحي عليه.

فخرجتُ مع الحاج إلى بيت أخيه، وفي بابه تركني الحاج وقال لي: "ادخل وبرجعلك، عم برهوم بستنى فيك جوة".

دخلت فإذا بالعم يقودني لغرفة ضيافة كان قد سبقني إليها شقيقا برهوم وصديقان لهما.

جلست على أريكة في الغرفة، أمامي طاولة، ألقى عليها عم الشهيد هاتفين نقالين، وأخبرني بأن في كلا الهاتفين رصيد اتصال، وأن ضيافتي ستستمر إجباريًا حتى يحضر مسؤول "النذير" ويأخذ مكاني، علمت أنني وقعت في فخٍ عائلي محكم وأنني الآن أسيرٌ لعائلة تظن كل الظن أنني أرسلت ابنها للموت لغاية دنيوية سأجني ثمارها في هذه الدنيا الفانية من بعده وبدمه!، ورغم أن تحت قميصي مسدس علي إلا أن حفظي لوصية برهوم بأهله خيرًا قيدني في أن لا أعاجل بأية حركة تسيء لأحدٍ من الحاضرين.

بين دقيقة وأخرى كانت تنهمر علي الاتصالات من عليٍ وسامر ومراد، ثلاثتهم خمنوا أن هناك أمرًا غريبًا يحدث لي خصوصًا بعدما كان مراد شاهدًا على بداية الأمر!

طوال جلوسي في ضيافة عم الشهيد، كنت أتظاهر باللامبالاة وأرد على المتصلين بأن أموري على ما يرام، أنا في ضيافة عائلة كريمة، فعلًا كنت صادقًا في ذلك فقد أحضر لي عم الشهيد ومن معه أفضل الطعام وألذ الشراب.

اتصل بي علي مكالمة سريعة لم تتح لي الرد، أخبرني فيها بأنه أرسل أناسًا لإخراجي مما أنا فيه وطلب مني أن أتظاهر "باللامعرفة"، وفعلًا كانت مكالمة علي حاسمة للأمر، حضر الحاج والد برهوم إلينا واعتذر مني وأخرجني معه إلى بيت العزاء الذي لم يفارقه مراد على ما بدا لي، جلست على واحدٍ من كراسي المعزين ثم خرجت مع مرادٍ إلى بيته، ومنه إلى بيت أمّنه مراد لنبيت فيه معًا.

صباح اليوم التالي، اتصلت بفارس وطلبت منه أن يأتي إلي، وبعيد وصوله عندي لصالون مراد أعطيته ما تبقى للمطبعة من مال إضافة لعنوان المطبعة، وطلبت منه إحضار ملصقات النعي منها.

كان قد سبق فارسًا إلى المطبعة إخوة الشهداء، أتوا جميعًا يحملون الملصقات إلى بيتي وكان بعضهم مستاءً من جودة الطباعة المستخدمة في الملصق، أخبرتهم أنني سأقوم بطباعة ملصق آخر قريبًا إن شاء الله، أخذوا بعض النسخ معهم وانقلبوا بها إلى أهاليهم.

أعطيت فارسًا عددًا من النسخ ليرسلها إلى مخيم عسكر ويكلف بها بعض الشبان لإلصاقها على الجدران، وأرسلت عددًا مماثلًا إلى مركز المدينة في نابلس، وأرسل عدد من قبلي إلى كل من ذوي الشهيدين، وما تبقى في يدي كلفت بعضًا من الفتية أن يوزعوه على جدران المنازل في المخيم.

آخر الليل خرجت أنا ومراد لنخط على جدران المخيم عبارات النعي والفخر بالاستشهاديين إبراهيم الناجي (برهوم) ومحمد أبو عطا الله (الشقور)، كان برهوم صديقًا مقربًا من الشهيد مؤيد الجميل الملقب بالسنفور، ولذلك كنا قد أطلقنا عليه "سنفور النذير" والتي أدرجت تحت اسمه في ملصق النعي وعلى الجدران، وأما الشقور فقد لحق باسمه في ذات الملصق لقب "سيف النذير" تيمنًا بالشهيد محمود طوالبة (سيف السرايا).

خلال نفس الليلة التي صبغت أيادينا بالطلاء أنا ومراد سلمتُ الأهالي وصايا ابنيهما المكتوبة والمصورة، إضافة لما أبقياه معي من مقتنيات شخصية.

وفي تلك الليلة أيضًا كان علي قد توجه إلى أهله الذين ولله الحمد قد أُفرج عمن تم احتجازه منهم باستثناء من اعتقلا قبل عملية الهدم كفاح وانتصار.

ودع علي أهله، أمه وأبوه وزوجه وإخوانه ليلاقيني ومراد، أعدت لعلي مسدسه.

بدأت مع مراد مواساة علي في مصابه بكلمات عفوية من كلينا نعلم أنها لن ترفع بيتًا ولن تؤوي طريدًا ولن تفك أسيرًا، خرج علي إلى قرية جبع، بعد أن تأكد أن أهله أووا إلى ركنٍ مستأجر حتى ينظر الله لحالهم.

مرت أيام وإذا بخبر يرد عن اعتقال نضال على طريق التفافية خلال توجهه لملاقاة علي في قرية جبع، كان الخبر صادمًا جدًا لي، وكنت أخشى أن يكون اعتقال نضال هذا بداية النهاية لعلي في كشف مكانه، رغم الخشية التي سكنتني على علي إلا أن حسبي ومن معي أننا نعمل ونعلم أن اللحاق بسفراء الشهادة مسألة أيام لا أكثر.

أصر عليَّ مراد بأن العملية التالية يجب أن لا تتأخر وأن منفذها موجود، وأخبرني باسمه وحدد لي موعدًا لملاقاته بعد صلاة المغرب في مسجد عباد الرحمن، كان محمد الأصفر الشاب الأشقر ينتظر ملاقاتي في زاوية من زوايا المسجد، فطلبت منه أن يعاود لقائي في صالون مراد بعد إنهائه لعمله الذي كان في محل بيع للحوم بالقرب من المسجد.

توجهت إلى صالون مراد، مرت ساعة، حضر الأصفر، أكملت معه الحديث الذي افتتحته في المسجد، بدا على الشاب التزامه الديني وقناعته بما يفعل وما يريد فعله، أخلاقه رفيعة في كل كلمة تخرج من مبسمه، قبل أن يغادر طلبت منه أن يبقى على حاله وأن يحرص على أن لا يثير شكًا للمقربين والغرباء بأن هناك شيئًا تغير عليه.

أرسلت إلى علي مواد كان قد أرسل في أنه بحاجة إليها، وأضفت إليه إشارة بأن منفذ العملية القادمة قد تم تجهيزه، وهو ينتظر حقيبةً من عندك أو حزامًا!

لم يطل رد علي على إشارتي، أتى سامر إلى مخيم بلاطة والتقى بي مخبرًا أن علي قد أطلعه على ما هي العملية القادمة للمجموعة، وأن دوره

الحالي سيكون في تصوير وصية الأصفر قبيل خروجه إلى قرية جبع لملاقاة علي.

حددنا موعدًا ومكانًا اتفقنا عليه أنا ومراد وسامر إضافة للأصفر لنخطو سويًا الخطوة الأولى في العملية القادمة.

حل الموعد الذي حددناه، التقى أربعتنا في غرفة على سطح بيت شقيق مراد الأكبر رياض، هناك أعد مراد الغرفة لتكون ستوديو تصوير لوصية محمد الأصفر، أما سامر فنصب الكاميرا ليبدأ التصوير فالأصفر أمامه لقراءة الوصية معلق على كتفه رشاش "كلاشنكوف" كنت قد استعرته من صديق لي.

دقائق وأنهى كلٌ منهم ما حضر لأجله، خرج الأصفر لإكمال بيعه، ومن ثم سامر بكاميرته وأنا بالرشاش المموه في كيس، أما مراد فبقي لتوضيب المكان وخلع راية النذير من على جدار الغرفة.

اتفقت مع الأصفر على موعدٍ سننطلق فيه معًا إلى جنين للقاء بعلي، قبيل ذاك الموعد بساعات أعلمت مراد عزمي على المضي بالأصفر لعلي، استاء مراد مما أخبرته به وطلب مني أن يكون بديلًا عني في هذه المهمة.

لم يجد مني مراد إلا عنادًا سرعان ما ألانه الله له، فما كان منه من إلحاح على أن يخرج هو بالأصفر إلى جنين هذه المرة يرغمني أن ألين معه وخصوصًا بعد حديثه المطول عما كان بعيد خروجي ببرهوم والشقور في المرة السابقة.

دقت ساعة الانطلاق، استأذن الأصفر من عمله ومراد أغلق

صالون الحلاقة الخاص به، التقى مراد والأصفر وأنا في المسجد بعد صلاة الظهر، أخبرت الأصفر أن مراد سينوب عني في نقله لعلي.

طلبت من الأصفر أن يذهب لتغيير ملابسه من بيته بمخيم عسكر، واتفق معه مراد أن ينتظره في بلدة عسكر القريبة من المخيم، ومن هناك سيبدأ المسير إلى قرية جبع حيث علي.

مرت الساعات حتى وردني اتصال من مراد يبلغني فيه أنهما وخلال دقائق سيكونان بصحبة علي، طلبت منه أن يبقى الاتصال مفتوحًا في هذه الدقائق حتى يتسنى لي الحديث مع علي.

انقضت دقائق ثلاث شعرت أن مراد مرتبك فيها، تحدثت مع علي قليلًا وأوصيته بضيوفه خيرًا واستودعتهم الله طالبًا من علي إعادة مراد لي صباح اليوم التالي.

ليلًا أعد علي للأصفر حقيبة متفجرة، وذهب به إلى البيت المهجور ذاته لمعاودة تصوير وصية الأصفر فيه.

كان علي قد أبلغ إبراهيم سلامة بموضوع العملية، وقد تم الاتفاق بينهما أن يأتي سلامة صباح اليوم التالي لأخذ الأصفر لمنطقة يمر خلالها إلى كيان العدو، والهدف هذه المرة مدينة الخضيرة المحتلة.

حلّ الصباح ومضى سلامة والأصفر لأمرهما، اتصلت بمراد ظهرًا وفي ذهني أنه في طريق عودته إلى المخيم، صدمت أنه ما زال في قرية جبع، أخبرني

أن علي بوضع صحي صعب فقد تردت حالته بشكل مفاجئ، وأضاف لي بأن هناك خبرًا قد بلغ علي بعد انطلاق الأصفر مفاده اعتقال سامر.

أقفلت الاتصال مع مراد الذي بدا منشغلًا بعلي المتعب، اتصلت بفارس وسألته عن خبر الاعتقال فأكد لي النبأ، وأوصل لي بأن سامر قد تم اعتقاله ليلًا خلال تواجده في منطقة المساكن الشعبية القريبة من مخيم عسكر.

بدأت تغزوني حاله لا تقدر أن تبوح بها الآن، ولا تسطرها الأقلام، لا أعي ما أفعل مراد الذي لم يرجع، علي المريض، الأصفر وسلامة، اعتقال سامر!

خرجت من مكان تواجدي إلى مقهى العاصي لأتتبع أخبار العملية التي أرسلنا الأصفر لتنفيذها، بدأت أقلب في المحطات الإخبارية فإذا بخبر عاجل يمر بإحداها يتحدث عن انفجار سيارة مفخخة في طريق قريب من أم الفحم بالداخل المحتل.

اتصلت بمراد أخبره ما تعجلت به محطات الأخبار التلفزيونية!، تحدث مراد معي بأنه لا علمَ له ولا لعلي بالحدث وأنهما ينتظران ورود إبراهيم سلامة إليهما، سألت مراد عن علي فأجابني أن علي بوضع صحي ينحدر للأسوأ في كل دقيقة.

اتصلتُ بإبراهيم وسألته عن العملية فأخبرني باحتمالية أن يكون الانفجار الذي أعلن عنه في طريق أم الفحم ناجمًا عن تفجير للأصفر وحقيبته، وبدوره يحاول التأكد، أخبرته عن الحالة الصحية لعلي، فأخبرني

أنـه سـيعمل عـلى إرسـال أحـد لمعالجـة الأمـر، بعـد سـاعة اتصـل بي مـراد وأخـبرني أن هنـاك مـن أتـى بوصايـة مـن إبراهيـم سـلامة وقـاده مـع عـلي إلى بيـت طبيـب سـيقدم لعـلي العـلاج الطـارئ الـلازم.

عشـاءً عـاودت الاتصـال بمـراد مـن خـلال هاتـف عمومـي، أخـبرني مـراد أن عـلي قـد بـدأ يتماثـل للشـفاء وأنهـما الآن ببـاب الكهـف لوحدهمـا، حمـدت الله عـلى سـلامة عـلي وطلبـت مـن مـراد أن يعطـي هاتفـه لـه كـي أتمكـن مـن الحديـث معـه.

تحدثـت مـع عـلي ولم أطـل عليـه فلقـد أحسسـت مـن نـبرة صوتـه أنـه يخطـف أنفاسـه خطفًـا.

عـدت لمـراد وأوصيتـه بـأن يبقـى مـع عـلي وأن لا يعـود للمخيـم إلا بعـد تأكـده مـن تعـافي عـلي كليًـا، تبادلنـا الحديـث حتـى سـمعا صـوت هديـر طائـرة اسـتطلاع صهيونيـة مـن بعيـد، أخـبرني مـراد أنـه سـيقفل الهاتـف خشـية أن تكـون تلـك الطائـرة اختصـت لهـما، ودعتـه وأخبرتـه أنـني سـأهاتفه صباحًـا.

أكملـت سـهري أتجـول بـين أزقـة المخيـم وحاراتـه إلى أن عطـف عـليَّ أحـد الأصدقـاء السـمار ببـاب بيتـه عارضًـا المبيـت في داره، سـهرت مـع صاحـب العطـف حتـى صـلاة الفجـر التـي صليتهـا معـه ونمـت عنـده بعدهـا.

اسـتيقظت صباحًـا مـن النـوم وإذا في وجهتـي صاحـب الـدار ذاك الـذي أذن لي باسـتخدام الحـمام وترتيـب نفسـي للخـروج.

صرت جاهـزًا للخـروج مـن البيـت، وقـد أذن لي بالخـروج صاحـب

الدار وأخبرني أنه ينوي التحدث معي بأمر هام، سألته عما هو، فبدا مرتبكًا وبعد عدة محاولاتٍ لاستنطاقه، قال لي:

- في إشاعات الصبح طلعت بتحكي إن مراد صاحبك صاير معاه إشي..... على الفور افترست هاتف البيت المسجى أمامي، وبدأت تلقيمه كل الأرقام التي سجلتها لعلي ومراد، وكل الأرقام كانت مغلقة.

اتصلت بإبراهيم سلامة، كان يتحدث بنبرة لا تفهم يجهش ويتنفس بثقل، سألته عن الأمر، ظننت أنه قد يكون حديثه بشأن الأصفر، عجلت له أنني تأكدت من خلال متابعتي للأخبار التلفزيونية أن الانفجار في طريق أم الفحم مصدره حقيبة الأصفر! وأتبعت حديثي ذاك بسؤالي عن مراد وعلي فأجابني أنه يتكلم عنهما، وأكد أن ما لم يفهم من حديثه هو البكاء الذي لا ينطق ولا يكتب! وأن علي ومراد قد استشهدا!

خرجت في عجل من البيت الذي آواني تلك الليلة وتوجهت لا أدري إلى أين حتى التقيت برياض (شقيق مراد) في سوق المخيم، عانقت رياض وشدّ هو في عناقي وبكى على كتفي، ثم انزوينا في أحد الأزقة، سألني عن أي أخبار لي عن الحادثة، بدأ يجري اتصالات مكثفة لغاية جلب الجثامين من جنين إلى نابلس، اتصالات بكل مؤسسة ذات شأن، الإسعاف، المستشفيات، الجهات الأمنية في السلطة الفلسطينية. تركت رياض لغايته وتوجهت إلى حيث المجهول الذي انتهى بي إلى غرفة الغسيل بسطح بيتي حيث أطلال الأحبة مراد وعلي، خرجت من صومعة الموت تلك إلى المسجد، وهناك انزويت مع المصحف بعد أن أقفلت هاتفًا معي،

هي ذاتها أيضًا الزاوية التي جمعتني يومًا ما مع برهوم والشقور وبالأمس القريب جمعتني بمحمد الأصفر، ها قد أمسى لي في كل مكان حكاية وفي كل حكاية رحيل وموت!

قبل توافد المصلين لأداء صلاة الظهر خرجت من المسجد، جلست بعتبة بيتنا، فتحت هاتفي وفي دقائق تشغيله الأولى وردتني عدة رسائل، وقبل أن أتصفح أيًا منها إذا باتصال لي من فارس، قال لي فيه إنه يحاول الاتصال بي من ساعات وإنه يبحث عني في كل مكان، أخبرته عن مكاني وطلبت منه أن يحضر لي وحده!

جاء لي فارس، أخبرني أن ذوي الشهداء يسألون عن إجراءات العزاء وعن ملصقاتٍ لأبنائهم.

صارحته بأنني لا أملك أي نقود، فأخبرني أنه سيعمل على جمع المال من الأصدقاء الذين يعرفهم وطلب مني أن أساعده في ذلك.

بدأنا جمع التبرعات للمساهمة في إجراءات العزاء وطباعة ملصقات النعي للشهيدين.

توجهت إلى إحدى المطابع ومعي صورهما، في المطبعة حددت للمصمم كيفية إخراج الملصق الذي أريد، وطلبت منه أن يبرز في التصميم صورتي عليّ ومراد، ويذيل الملصق بصور استشهاديي النذير الأربعة الشقور، برهوم، الأصفر، علاء.

عدت إلى المخيم ومنه إلى بيت عزاء مراد، خلال جلوسي هناك

اتصلت هاتفيًا بذوي علي في مخيم عسكر وأبرقت لهم تعازيَّ ومواساتي بفقداننا لعلي، وسألتهم عن الأخبار عندهم فأخبروني أن المخيم عندهم محاصر وأن هناك مخاطرة في الدخول إليه، وطلبوا مني أن لا أفكر في عيادتهم هذه الأيام تحسبًا من أي محاولة اغتيال غادر.

عصرًا دخلت سيارة الإسعاف إلى مخيم بلاطة تحمل في أحضانها مراد، أُخرج مراد وحمل على الأكتاف، الناس خلف النعش يسيرون وأنا أسير معهم، لكن قدمي بطيئتان، لم أركض إليه، أخشى أن أضعف أمام هذه الجموع، صار يمر أمام عيني شريط من الذكريات التي ربطتني بهذا الحبيب!

لم أر من مراد خلال حمله إلا الحذاء الذي يلبسه معفرًا بالتراب والدم، هذا الحذاء الذي شاركني بشرائه يوم أن رآني بحذاء ممزق فاصطحبني واشترينا سويًا زوجين من الأحذية لي وله! وصلنا المقبرة فأرسل إليّ رياض لأشاركه إنزال مراد إلى القبر فأبيت حتى الاقتراب من محيط القبر، فما زلتُ أخشى على نفسي الانهيار. بعد انتهاء مراسم التشييع ذهبت أنا وفارس وأحضرنا الملصقات من المطبعة وقاسمناها مخيمي عسكر وبلاطة، وبين أهلَيّ الشهيدين وجدران المخيم.

وفي ذات النهار أرسلت مع فارس صورة لمحمد الأصفر وطلبت منه أن يعطيها لمن هو أهل أن يعد بها ملصقًا لنعي الشهيد، فما جمعنا من تبرعاتٍ مالية قد نفذ في ملصق علي ومراد.

اتصل بي إبراهيم سلامة، وأخبرني أن هناك تركة خلفها علي لي ولأن الصهاينة على ما بدا لهم لم يقتربوا من جثمانه أو جثمان مراد، وتخلوا بذلك عن مصادرة عدة مقتنيات كانت بحوزة الراحلين ومنها مسدس علي، وواصل حديثه بأن هناك أمورًا خفية بدأت تتكشف وراء اغتيال علي سيطلعني عليها حالما ألتقيه.

انقضى العزاء واستعجلت أمر الميراث مع ما خلفه علي وراءه، أرسلتُ إلى قرية جبع رسولًا عني، وكان رسول لقاء إبراهيم صديق طفولة قديم لي هو خليل مرشود، ولم يلبث إلا يومًا أو بعض يوم في صحبة إبراهيم حتى عاد لي ومعه كيس فيه ما فيه من أوراق ثبوتية لعلي ومراد ومحمد الأصفر إضافة إلى الشريط الخاص بالأصفر ووصية الأصفر المكتوبة، ناهيك عن مسدس علي وراية تحمل شعار النذير، إضافة إلى ورقة كان قد كتب علي بها قيمة المبالغ المدين بها والتي يريدها الناس منه!

أضف إلى هذا كله بعض عدد التصنيع والمواد الأولية في صناعة المتفجرات.

أخفيت ما جاءني به خليل ليكون في مأمن عند حمودة العاصي عدا الأوراق الثبوتية التي سلمت إلى ذوي كل شهيد من الشهداء الثلاثة، إضافة للوصية المصورة والمكتوبة لمحمد الأصفر واللتين تم تسليمها هما أيضًا لذويه.

تعجل إلي إبراهيم وجاءني للمخيم، وأخبرني بتفاصيل عن حادثة الاغتيال وكيف كشف للعدو مكان تواجد علي، حدثني أن من أرسله ليأخذ علي ومراد إلى الطبيب قد تبين أنه وصاحب السيارة التي أقلتهما إلى

الطبيب قد اعترفا بجرمهما، وقد أقرا بأنهما متخابران مع العدو وقد طُلِبَ منهما أن يتظاهرا بانتمائهما إلى صفوف نشطاء المقاومة حتى وثق إبراهيم بهما، وصار يسيرهما ببعض أموره التي كان آخرها اصطحاب علي ومراد لمنزل أحد الأطباء.

أخبرني إبراهيم أن اعتراف المتخابرين كان على أشهاد عدد من عامة الناس، وسيجري عصر ذاك اليوم محاكمتهما شعبيًا أمام الناس في ميدان قرية جبع، وسيكون جزاؤهما الإعدام رميًا بالرصاص، عاد إبراهيم إلى بلده بعدما أزاح القليل من الهم عن صدري في كشف ملابسات ما جرى.

عصرًا اتصل بي إبراهيم وأكد لي أن المتخابرين تم إعدامهما، وطلب مني إصدار بيان بإعدام متخابرين كانا السبب في اغتيال علي ومراد وتوزيع البيان على الناس في مخيمي عسكر وبلاطة.

قبيل المغيب، كان البيان معدًا وتم نسخه قرابة الألف نسخة، أرسلنا نصفها إلى مخيم عسكر، وكلفت مجموعة هناك بتوزيعها.

أما أنا والخمسمائة نسخة التي بين يدي فنسقت لخروج بعض المطاردين معي لتوزيعها، كنا خمسة، جميعنا يحمل السلاح، وفي نصٍ من البيان أن إعدام المتخابرين هو أول القصاص وليس آخر الثأر من العدو وأذنابه!

ليلًا خرجت أنا وصديق قديم جديد لكتابة بعض الشعارات على الجدران ونعي للشهداء، كان ذاك الصديق هو محمود الخطيب الملقب بـ"الصخرة" والذي تجددت علاقتي به بعد استشهاد صديق مشترك لنا وهو إبراهيم الناجي، برهوم.

12

في هـذه الأوقـات التـي جـددت علاقتـي فيهـا بالصخـرة وخليـل؛ سعيت جاهدًا بـأن أكـون بديـلًا لعـلي، وأن أكمـل مـا كنـا قـد بدأنـاه سـويًا، توجهـت إلى أشـخاص كان عـلي قـد أخـبرني أنهـم وسـطاء لنـا مـع الجهـة الداعمـة للمقاومـة مـن الخـارج، لكـن للأسـف رفضـوا التعامـل معـي رغـم علمهـم المطلـق بأنني خليفـة عـلي، كانـت حجتهـم واهيـة بـأني لسـت صاحب تجربـة اعتقالية يثقـون خلالهـا بأنني لـن أعـترف عليهـم حالمـا أعتقـل، ومنهـم مـن شـك في نزاهتـي؛ لأنني لم أكـن في صفـوف أي مـن الشـهداء أو الأسرى الذيـن قضـوا تحـت اسـم "النذيـر".

صرت أحاول العثور على أي ممولٍ يستطيع على الأقل المساهمة في قضاء دين علي الذي ما كان لولا سلوكه هذا المسلك، ولكن للأسف اضطررت أن استدين لقضاء دين الراحل علي.

أيام مضت اتضح لي فيها تصور بأن أي عمل جدي سيندرج تحت اسم "النذير" ستتجه فيه أصابع الاتهام لي وحدي، فجميع أقطاب المجموعة قد استشهدوا وأسروا ولم يبقِ إلا أنا لم أمت، هذا يعني استعجال مقتلي أو اعتقالي عبر تكثيف الملاحقة لي من قبل العدو وعملائه، غباءٌ إذا مضيت بالعمل تحت اسم "النذير".

أما عن كتائب شهداء الأقصى فبعد رحيل الطيطي وحتى بحياته لم أكن لأصنف نفسي من كوادرها، وكنت اكتفي بصناعة المتفجرات للكتائب، ولذلك عدت حيث ما كان علي يحب أن يراني "تصنيع المتفجرات" حسب الطلب لأي مقاوم كان.

حلت ذكرى الأربعين للشهيدين الناجي وأبو عطا الله، ولم يكن بوسعي إصدار أي ملصق نعي لهما ولا لغيرهما، حاولت العمل بأجر مقطوع رغم ظروف الملاحقة التي تحيط بي، ولم أستطع إلا جمع ثلاثمائة شيكل فقط لا غير.

ذهبت إلى إحدى المطابع وطلبت منها طباعة مائة نسخة لكتيب صغير يحوي بعض السور القرآنية والأدعية، وطلبت من أصحاب الشأن أن يكتبوا اسم الشهيدين على ذلك الكتيب لكي يوزع كصدقة جارية!

عـاودت طباعـة مائـة نسـخة لـكل وصيـة مكتوبـة مـن وصايـا برهـوم والشـقور، وأخـذت حاصـل مـا أنتجـت بعدمـا أفرغـت جيـوبي للهـواء، أعطيـت الكتيبـات للصخـرة طالبًـا منـه اقتسـامها بـين ذوي الشـهيدين، أمـا الوصايـا فكانـت مـن نصيـب بعـض الفتيـة الذيـن تولـوا توزيعهـا بباب مسـجد المخيـم بعيـد خـروج المصلـين مـن صـلاة المغـرب.

مضـت أيـام كنـت خلالهـا أتنقـل مـن بيـت لبيـت في مطـاردة ليـس لهـا مـن دون الله كاشـفة.

عـلي الـذي عَبّـدَ لي هـذه الطريـق بالمـوت أخـبرني أن الـذي نمـشي عليـه دمٌ ولحـمٌ وشـوك وجمـر وزجـاج محطـم، لم يكـذب عليّ، لكنـه نسي أن يخـبرني أن أمـام هـذه الطريـق لا يرمـى إلا بـشرٍ كالقصـر أمطـاره حمضيـة كأنهـا السـحب التـي سـقفت جهنـم يـوم اسـودت. وعـلى الرغـم مـن ذلـك كلـه قطعـت عهـدًا بـأن لا أقبـل أو أبـدل حـارس العمـر الأصيـل، ومـا مـضى لـه عـلي هـو الفـوز الأكـبر!

لمـاذا خرجـت مـع عـلي؟ ولمـاذا ألحقـت مـراد بي؟ ولم أرسـلت عـلاء وبرهـوم والشـقور والأصفـر ليكونـوا أداة قصـاصٍ لمـن قضـوا النحـب قبلهـم مـن جمهـور شـعبهم الـذي أزهقـه العـدو؟ هـل عـلي ومـراد وأنـا مـن قصدنـا الله في كتابـه عندمـا قـال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:178] لمـاذا الانتظـار! أعـدوا حتـى نكـون قادريـن عـلى مواجهـة مبـاشرة مـع العـدو جيشًـا بجيـش أم أننـا اكتفينـا بمحفـز شرعـي أدركـه عـلي حينـما قـرأ في كتـاب الله: "وقاتـل في سـبيل الله لا تكلـف إلا نفسـك وحـرض المؤمنـين".

إنها الأسئلة التي كانت تهتز أمامي ولا تهزني، أنا خرجت لأني وجدتُ في نفسي إنسانًا مؤمنًا بعدل قضيته ومحفزًا بواجبٍ ديني تجاهها، أما الموت فلربما كان نتيجته ولكن لم يكن هدفًا، فهدفنا أن يعلم العدو أن استباحته لحقوقنا وأولها حقنا في الحياة سيرجعه لنفس الدائرة!، قد لا نستطيع رد الحقوق لأهلها ونحن من أهلها لكن يكفينا أننا أشعرنا متلصصي تلك الحقوق أن هناك من يجهد ويجاهد لانتزاعها منهم، وأنها في أيديهم لأجل سينقضي يومًا ما بيدنا أو بأيدٍ ستمتد وراءنا.

أيام تمر مر السحاب وأنا على حالي من مأوى لآخر، فعندما تُقفَلُ الأبواب في وجهي تَفتَحُ المقابر أحضانها لإيوائي حيًا بين الأموات الذين لم يتبنوني بعد!

رياض شقيق الراحلين علاء ومراد، كان يرسل دومًا في طلبي، مرة من خلال مقهى العاصي ومرة من خلال الصخرة وخليل، ومرات مع أهلي وأحيانًا عبر اتصالٍ هاتفي مباشر إن عثر لي من أحدهم على رقم عاملٍ معي!

كنت أحاول ما استطعت اتقاء اللقاء برياض، فقد استشعرت خلال العزاء بأخية مراد نيته الانتقام له! والانتقام الذي يريده سيكلفه روحه أيضًا، وبذلك تثكل العائلة الواحد بفقد ثلاثة من أبنائها، وأنا سببٌ مباشرٌ في هذا الفقد!

في إحدى الليالي المظلمة وبالصدفة لاقاني رياض منفردًا بقبرِ أخيه مراد في مقبرة المخيم، هناك عاتبني على تفاديَّ ملاقاته وتجاهلي طلب لقائه، وبعد أن فرغ وأنا صامت لا أرد أخبرني بهدوء يتخلله عاصفة أنه يريد الثأر

لأخيه مراد وصاحبه علي، وأطال رياض حديثه بأن كاشفني بأنه اتفق مع مجموعة من الجهاد الإسلامي على أن يأتيهم بمن يرغب في تنفيذ عملية استشهادية ثأرًا لمراد الذي سبق وحدثني عن علاقته بالجهاد الإسلامي؛ تلك العلاقة التي لم تمنعه أن يكون في صفوف "النذير" الأولى!

شرحت لرياض قلقي عليه وعلى والدته مذكرًا إياه أنه المعيل الوحيد لأسرته فهو متزوج وله أولاد.

كان رياض لحوحًا جدًا في طلبه، لم يدعني أذهب وشأني، استحلفني بدماء صاحب القبر الذي كنا عنده، لقد أصر عليّ حتى عدلني عن قرار الرفض المتحجر إلى التعامل معه.

أخبرته أنني سبق وأتى إليَّ شابٌ يرغب في الثأر لعلي ولكني رددته، وطلبت منه أن يمهلني يومًا أو يومين حتى أراجع الشاب وأتفحص شأنه هل ما زال على قراره أم أنه ركن إلى الدنيا.

أرسلت إلى "محمد المدني" أو "حمودة" من مخيم عسكر، كان هو الشاب الذي سبق لي وأن رددته، أبيض بطلعة بهية بعمرٍ صغير ما زال فتيًا، ولكن كان يتظاهر بأنه أكبر من عمره!

سألت حمودة كل سؤال خطر ببالي لأتأكد من صدق نواياه ومدى قناعته بما يريد الإقبال عليه!

كانت إجاباته دليلًا واضحًا على أنه سيكون خير من يقدم للمهمة التي ستنتهي باستشهاده لا محالة! لكن من يريد الثأر لن يسأل عن التكلفة!

رياض مرشود ومحمد المدني التقت أهدافهما، أما الأول فقدره أن يصحب الثاني إلى وسيط سيهيئه لضغطة الزر التي بها ستفتح أبواب جهنم لاستقبال صهاينة جدد عاثوا في الأرض فساد.

حددت مع حمودة موعدًا يلاقيني به مجددًا لينطلق مع من سيجهزه لما يريد، جاء الموعد وكان حمودة في ضيافتي، اتصلت برياض وأخبرته أن طلبه أصبح جاهزًا وأنني أنتظره للتسليم، حضر رياض وفي صحبته شاب آخر قدمت لهم واجب الضيافة سريعًا، تحادث رياض وصاحبه مع حمودة، ثم خرج ثلاثتهم من حيث كنا في سطح بيتي.

في نفس الليلة حاصرت قوات العدو بيت ذوي حمودة في مخيم عسكر، اقتحم جنود العدو البيت، أخبر الضابط الصهيوني والد وأشقاء حمودة بأن محمدًا موجود لدى فهد في مخيم بلاطة، وأن فهد سيرسله للموت لتنفيذ عملية "انتحارية"، طالبًا منهم الذهاب لمخيم بلاطة لاسترجاع ابنهم.

صباحًا حضر إلى بيت أهلي فارس ومعه والد حمودة وأحد أشقائه، أخبروني بما جرى ليلًا في بيتهم، بادرتهم بالقول بأنني لا أعلم أي شيء عن ابنهم، عادوا إلى بيتهم، وتكرر اقتحامه من قوات العدو، وأكد لهم الضابط ذاته أن محمد في ضيافة فهد، وفي حال فجر محمد نفسه حتى لو بنفسه فسينسف العدو بيت العائلة!

صباح اليوم التالي كرر ذوو حمودة زيارتي وأخبروني ما كان أنكر مجددًا عليّ بينهم، وبدأت أشككهم بكذب الضابط الصهيوني، وأفند أقواله أنها بهدف جري للاصطدام مع الأهالي!

صرت أبحث عن رياض لعلي أجد تفسيرًا منطقيًا لما يحدث، للأسف حتى عندما التقيته لم يفدني بشيء.

مساءً اتصل بي ضابط صهيوني عرفني بنفسه باسم مستعار "نمرود"، هددني بأنني إذا لم أعد محمد المدني لأهله فسوف يكون جزائي كعلي من هدم منزل وتشريد والديّ واعتقال إخوة، كنتُ مستغربًا جدًا في إجاباتي فهو يخوفني بما أنتظر، ولكنني حاولت إبعاد التهمة عني بأن أخبرته: أنني لا أعرف أي شيء بشأن الاسم الذي ذكره، وأنني لستُ بأعز أو أرفع من علي حتى أُعفى من جزاءٍ كجزائه، وليس أهلي بأعظم وأجل من ذوي علي حتى لا يعاقبوا بمثل ما عوقب أهل علي به.

أقفلت هاتفي، ومرت أيام أربعة حتى وردني خبرٌ مؤكد عن اعتقال محمد المدني وشاب آخر هو ذاته من صاحب رياض في زيارته الأخيرة لي، وكان اسمه رائد عبد الجليل إضافة إلى شاب ثالث يدعى محمد أبو ساري، أفرزت الجهاد الإسلامي شخصًا منها للتحقيق بالحادثة وتحديد مواطن الخلل وكان من أفرزته الجهاد شابًا يلقب بـ"الطهبوب" واسمه "محمود الكليبي".

جاءني الطهبوب للمخيم، رحبت به، ومن هناك توجهت معه إلى رياض الذي كان قد ورث صالون الحلاقة الخاص بمراد، جلسنا وتحدثنا، تكشف للطهبوب أن الاستخدام المبالغ فيه بالاتصالات من قبل المجموعة خطر أمنيًا.

غادرني الطهبوب وتمنيت أن يكرر زيارته لي صديقًا لا محققًا، طالبًا منه عودة أهل محمد المدني إلى مخيم عسكر، وأن يقدم لهم المساعدة إن أمكن!

بعيد أيام اتصل بي إبراهيم سلامة وأخبرني أنه خلال تردده على كهف علي عثر على رشاشين من طراز كلاشينكوف، راجعت ذاكرتي وتذكرت أن علي قد اقترض من صديق لنا في مخيم بلاطة رشاشي كلاشينكوف.

أخبرت إبراهيم أنني سأرسل من يأخذهما من عنده، وخلال أيامٍ كانا معي.

زيارة الطهبوب لي كانت وازعًا في أن أعبّر له عن إعجابي بالتنظيم الذي ينتمي إليه، لم يلمني إطلاقًا رغم أنني جلدت نفسي مرارًا على ما كنت أتوقعه، لكن تلك الحادثة عززت من توجه الثأر لعلي ومراد عندي، ليس من أحق وأولى مني بالانتقام لمقتلهما، وما كان من تهديدٍ لي من قبل الضابط الصهيوني عبر الاتصال الهاتفي يؤكد أن دوري في القتل قادمٌ وقريب!

ما إن حضر إلي من يخبرني نيته لمساعدتي في القصاص حتى رحبت وأهلت دون التدقيق في مصداقية نواياه، كان نسيم شاب مظهره يوحي الصدق لكن ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المنافقون: 4] أخبرني بأنه يستطيع اختراق تحصينات مستوطنة "ألون موريه" وبإمكانه إدخال استشهادي لاقتحام البيوت في المستوطنة، ولكن كل ما ينقصه هو سلاح ناري، أما الاستشهادي فهو وحسبما قال نسيم جاهز للاشتباك، لم يقع في ذهني تلك الساعة إلا الانتقام؛ لذلك عجلت إليه برشاش كلاشنكوف من الأمانات

التي كانت عند علي، كان كل همي نجاح العملية، بعد نجاحها بإمكاني تعويض صاحب الأمانة ولو بالكلمات الاعتذارية!

مرت أيام غاب فيها نسيم عني، بدأت بالإرسال إليه أن يأتيني لأعرف سبب تأخر ما اتفقنا عليه، كان يقابل كل طلب مني بالتهرب حتى أيقنت أنني وقعت في مكيدة نصب وسرقة! وأن الكلاشنكوف الذي قدمته لنسيم ليرسله مع استشهادي لاقتحام مستوطنة قد تم سرقته ممن أؤتمن على أخذ الدم به!

التقيت بصاحب الكلاشنكوف الأساسي وكاشفته بالحادثة فعاتبني بشدة متهمًا إياي بالإهمال، ومنهيًا الحديث معي بأنه من سيتولى أمر متابعة السلاح المسروق، ولكن الطين زاد بلة عندما بلغنا نبأ اعتقال نسيم من قبل العدو مما عرقل صاحب الأمانة في استرجاع أمانته!

مرت الأيام، حاول رياض استدراك ما خلفه بي من مصاب بعيد حادثة محمد المدني، فأرسل إليّ سلاحه الشخصي الذي في عهدته من السلطة الفلسطينية التي كان واحدًا من أفراد الشرطة فيها، وأخبرني عن إمكانية استخدامي للسلاح شريطة المحافظة عليه وتعويضه ببديل عنه حال حلّ به شيء ما، مضيفًا أن هذا السلاح في عهدته وفي حال علم عن تواجده مع أحدٍ غيره فسيتم محاكمته عسكريًا لدى السلطة الفلسطينية.

أخذت منه السلاح الذي كان من نوع كلاشنكوف، ووعدته أن يبقى الأمر سرًا بيننا، وأني سأكون أمينًا عليه ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وأنه سوف يكون بين يديّ بحقه ومستحقه! وهو قتل الجنود.

خلال ليلة، كنت فيها بباب العاصي وبرفقتي مهدي ويوسف ابن عمه الذي كان في صباه؛ إذا باتصال يردني من رياض مرشود وما إن قبلت الاتصال حتى همس لي بقوله متعجلًا:

- في جيش "إسرائيلي" بالمخيم، وفي جنود مشاه وقوات مستعربين دير بالك.

اعتقدت أن رياض يمازحني فلا صوت سمع لآليات عسكرية ولا هدير لطائرات حربية، فقط ضوء يلمع مع النجوم ينبئ عن طائرة استطلاع ليس إلا كنا قد اعتدنا عليها مع بدء الانتفاضة.

أخبرت مهدي بما جاء في اتصال رياض، ولكنني أكملت سهرتي دون أن ألقي بالًا لما جاء به ذاك الاتصال.

مرت دقائق وإذا باتصال آخر من الصخرة يؤكد ما جاء به رياض!

عاودت إخبار مهدي بالاتصال الثاني، فالمجازفة في بقائي جليس عتبات البيوت ستكلفني الاعتقال أو الاغتيال مغدورًا، وهو ثمن أكبر من ثمن المواجهة المباشرة مع مقتحمي المخيم مقبلًا غير مدبر.

ورغم أنه ما زال يراودني شك بأنه لا جنود صهاينة مشاة في المخيم إلا أنني اعتزمت الاشتباك معهم إن كانوا أو لم يكونوا، فلم يسبق أن تجول جنود صهاينة مشاة في المنطقة (مناطق السلطة الفلسطينية) دون إسنادٍ من آليات الاجتياحات العسكرية!

أخرجت رشاشي الكلاشنكوف من مخبئهما وأعطيت مهدي واحدًا منهما، وحملت الآخر، أصر يوسف أن يكون معنا أعطيته مسدس علي الذي كان تحت قميصي.

هجرنا عتبة البيت، وسرنا بهدوء حذر نلتصق بجدران البيوت حتى وصلنا لوسط المخيم حيث نصبٍ تذكاري أقيم لشهداء المخيم.

مقابل النصب التذكاري كانت تجلس مسنة كبيرة يعرفها كل أبناء المخيم، ورغم العتمة إلا أنها تبقى بباب البيت ليالي طويلة فابنها كحالنا طريد ومطارد لا يقر له قرار ولا يهدأ له إوار، همست لي (أم أحمد) التي تعرفني جيدًا وتعرف وضعي الأمني، أخبرتني أن هناك دبابة صهيونية في حارة "البدود".

تعجبت مما سمعت فلم نسمع ضجيجًا لحراك دبابة!

نظرت من زاوية تطل على "البدود" فإذا بالدبابة أمامي، صعقت مما رأيت، لكيفية وصول هذه إلى هنا دون صوت يذكر! أمعنت النظر في شريط السلاسل الحديدي الذي يلف مسننات الحركة فيها فإذا به مغطى بشريط مطاطي ليكتم الصوت المنبثق عن تحرك الدبابة!

إذن قطع الشك باليقين، ولكن أين الجنود المشاة! سلاحنا لن يرد هذه العملاقة ولن يؤثر حتى في طلائها!

استمررنا بالبحث عن مشاة العدو من زقاقٍ إلى آخر حتى وصلنا آخر حارات المخيم! وهناك رأيت ما لم يعجبني رؤياه!

ثلاث حافلاتٍ صغيرة سوداء اللون وحولها جنود بعتادهم الكامل، طلبت من يوسف أن يتوجه لزاوية يحمي ظهرنا فيها، وكان ملمًا بكيفية استخدام السلاح الذي في يديه رغم صغر سنه!

صوبت سلاحي تجاه الجنود، وبدأت بإطلاق النار عليهم طلقة طلقة، وبين كل طلقةٍ وأخرى أغيّر مكاني، وكذلك كان مهدي.

منذ الطلقة الأولى التي خرجت من سلاحي والرصاص الكثيف من بنادق الجنود الصهاينة يتجه إلى كل مكان تنقلنا فيه حتى حضرت لسماء الموقع طائرة هليكوبتر صهيونية، وبدأت هي الأخرى مشاركتهم في إطلاق النار!

نفدت ذخائرنا، ألزمنا أنفسنا الانسحاب مع أول قنبلة ضوئية خرجت لإنارة المكان.

قبيل الفجر انسحب جنود العدو وآلياتهم من المخيم، وطارت الطائرة هي الأخرى لمكان بعيد!، تبين لنا أن المستهدفين من قبل الصهاينة في هذا الاقتحام كان اعتقال شابين من المخيم يعدان لتنفيذ عملية استشهادية.

بدأت الأخبار ترد بين الناس عن الليلة المشهودة، فمنهم من كان يسترق رؤيتنا من نوافذ بيته أو أعلى سطحه.

رغم أن هناك عدة منازلٍ تضررت بفعل إطلاق النار العشوائي من قوات العدو إلا أننا حصدنا تأييدًا جماهيريًا واسعًا لما كان منا في الاشتباك

مع العدو وجرهم لذاك الإطلاق العشوائي!

صار لزامًا عليّ وعلى مهدي أن نمتهن إحباط أي عملية اقتحام قادمة للمخيم أو على الأقل عنصر المفاجأة منها!

مضت أيامنا الأولى في الرباط ليلًا بين زقاق وحارات المخيم نتعمد فيها لبس اللثام حتى خشيَّ علينا أحدهم من أن يشتبه الناس أننا المستعربين الصهاينة، فأثرنا خلع اللثام عن وجوهنا!

وفي هذه الأيام كان يتردد يوسف علينا يشاركنا حمل مسدس علي!

جاءت ليلة غُيِّبَ فيها القمر قسرًا وكأنه اتفق مع الصهاينة أن يستر أمر اقتحامهم هذه الليلة للمخيم، اتصل بي خليل مرشود الذي يسكن في بيت أهله في حارة آخر المخيم، أخبرني أن هناك حراكًا مشتبهًا به داخل السهل المجاور للمخيم.

توجهت مع مهدي إلى منطقة قريبة لتقصي ما اشتبه على خليل عن كثب!

صدر من السهل نباح كلاب!، لم يكن الأمر غريبًا في هذا الشيء، ولكن ظهور طائرة في السماء زاد في شبهة الموقف.

تراجعت إلى أحد الأزقة كان مقابلًا لمقبرة المخيم، نظرت يمنة ويسرة، بدا الأمر غير مألوف لي، هناك شيء يحدث لكن لا دليل واقعي على صدقه! كان مهدي يراقب هو الآخر من زقاق بجانبي.

فجأة إذا بجنود من قوات العدو يتسللون واحدًا تلو الآخر إلى المقبرة، وبين كل واحدٍ ومن سبقه قرابة ثلاثة أمتار! توجهت إلى مهدي وجعلته ينظر لما رأيت، لقمنا أسلحتنا لإطلاق النار واستأذنت مهدي أن أسبقه في إطلاقي!

مرَّ جندي يحمل على ظهره حقيبة كبيرة تحمل جهاز اتصالٍ لاسلكي كان غنيمة قيمة، صوبت سلاحي تجاهه ورميته بالرصاص سائلًا الله أن يسدد!، وما إن خرجت الطلقة الثانية من سلاحي حتى بدأ الرصاص ينفجر حولي!

بدأت بالتراجع من مكاني بعدما أطلق مهدي بضع طلقات اقتسمنا من خلالها ردُ العدو العشوائي! واستطعنا أن نفر من المكان بسلام.

فتشنا عن مكان تواجد آلياتهم، وهناك رصدنا رجوع الجنود المشاة إلى الآليات، وقبل أن يركبوها أطلقنا بشكل أوتوماتيكي ما تبقى معنا من رصاص لننسحب من المكان بعد ما تجددت النيران الصهيونية على المكان الذي أطلقنا منه آخر طلقاتنا، وشاركت في النيران هذه المرة الطائرة الحربية.

فجر ذاك اليوم تبين لنا أن المستهدف من عملية التسلل هذه هو اعتقال شاب أسعفه رصاصنا الذي أيقظه من سباته ومكّنه من الفرار من منزله حتى دخل الصهاينة البيت دونه!

تكررت تلك الاقتحامات وعملتُ جاهدًا ومجاهدًا مع مهدي حتى لا تؤتي أُكلها، مساء أحد الأيام التي كنا نرابط في لياليها توجه إليّ خليل

مرشود حاملًا معه كيس طحين، كنت قد أخبرته بتواجدي في بيت أهلي، هناك فتح خليل الكيس أمامي وإذا به ثلاث قطع من الأسلحة النارية من نوع برتا، أم بي فايف، وكلاشنكوف، سألته عن ماهية الأمر فأجابني: إنها تعود للواء كبير في السلطة الفلسطينية، وإن خليل مستأمن عليها ويود جعلها تحت تصرفي شريطة أن لا يعلم أحد بشأنها، وأن أعوضه حال تضررت إحداها!

لم أمانع في أخذ كيس الطحين وما حوى معطيًا خليل تعهدًا بأن لا أفشي سره، وسار خليل من بيتي مطمئنًا دون كيسه.

كان يتردد معي ومع مهدي خلال رباطنا في المخيم بعض الأصدقاء، ولكنني كنت أزهد في عودتهم لمشاركتنا حمل السلاح الذي أصبح متوفرًا بعد الذي جاءني به خليل! فقد صار واجبًا عليّ أن أوسع دائرة الرباط التي لا تحويني إلا أنا ومهدي، وأحيانًا الصغير يوسف!

كنت أخشى أن يستشهد شخص جديد بسببي، فبعض الناس ما زال يصر بأنني أرسلت للموت الناجي وأبو عطا الله والأصفر مقابل عرضٍ من الدنيا!

استمر الحال على ما هو عليه، اثنان وأحيانًا يوسف ثالثنا حتى أذن الله بأن يزيد العدد. جاءني "الصخرة" يطلب مني مشاركتي الرباط، فأعطيته سلاحًا مما توافر لدي وصار يشاركني مع مهدي الرباط بشكل يومي!

أيامٌ تمر واقتحامات سريعة، عمليات اعتقال خاطفة بعضها يوفقنا الله بإحباطها، وبعضها لم تسعفنا الظروف لنرده خائبًا، وبعضها كان يتم على أكمل وجه دون أن ندري بأمره.

التحق بصفي عديدون يودون أن يرابطوا معنا في مقاومة اقتحام المخيم، منهم من كان يأخذ السلاح مني ومنهم من كان يأتيني بسلاحه، لم أكن قائدًا على أحدٍ منهم، لكنني كنت أسبقهم إلى التجربة التي جعلتني على الدوام مصدر ثقةٍ في أي طرح أطرحه عليهم سواء بهجومٍ أو انسحاب.

خلال الأيام المباركة تلك كانت المسنة أم أحمد تأتينا بالشاي والقهوة أثناء مرورنا بباب منزلها، وأحيانا يحضر لنا بعض الأصدقاء والأهالي وجبات طعام خفيفة تعيننا على قضاء تلك الليالي الموحشة بظلمتها المؤنسة بما كنت أعتقد أنه سبيلٌ للحاقي بعلي ومراد كما يحبان لي.

ابتكر الاحتلال طريقة لتتبع خطانا ليلًا من خلال كشاف ضوئي يسلط ضوءه من أعلى جبل جرزيم تجاه المخيم حارات وأزقة وأسطح بيوت.

كانت تلك الطريقة رادعة لبعض ضعاف النفوس الذين التحقوا بنا مؤخرًا وعامل خشية في نفوس أهالي البعض الآخر منهم، فما إن يضاء الكشاف وينير مكان تواجد المرابطين حتى يباشر الطيران الصهيوني ونقطة المراقبة في جبل جرزيم إطلاق الأعيرة النارية الثقيلة التي إن أخطأتنا أفسدت جدران منازل أهالي المخيم.

طال شوقي للحبيب الذي عاهدته أن يكون لحاقي به قريبًا من رحيله (برهوم الناجي) قبل الوداع الأخير رددها لي: "أوعدني ما تتأخر عليّ يا فهد".

تأخرت، وتأخرت كثيرًا عنك يا برهوم.

كنت أرى صورهم خلال تنقلي بين زقاق المخيم وحاراته، تلاحقني ذكرياتي بهم على الدوام.

ذات يوم كنت نائمًا في أحد البيوت التي فتحت أبوابها لي حتى هزني صاحب البيت مخبرًا بفزع أن هناك قوة خاصة من مستعربي قوات الاحتلال قد اقتحمت صالون رياض للحلاقة، حملت سلاحي وخرجت أركض إلى محيط الصالون الذي كان قد سبقني إليه اشتباك مسلح استنفر فيه كل حامل سلاح بالمخيم، سريعًا انخرطت في صفوف المقاتلين الملتحمين مع قوات المستعربين.

دقائق فقط وإذا بالدبابات الصهيونية في المخيم سرعان ما فرّ عند وصولها بعض المقاتلين خشية أن يطوقوا المكان، كان الهدف من مجيء قافلة الدبابات الصهيونية إخلاء جنودهم المستعربين المحاصرين في محيط صالون رياض، ونجحوا في ذلك فرصاص البنادق لا يجدي نفعًا أمام تصفيح الدبابات الصهيونية.

اعتقل رياض وانسحب الصهاينة وآلياتهم عدا الحافلة الصغيرة التي استخدمها المستعربون في تسللهم لصالون الحلاقة الذي اعتقلوا منه رياض.

تـم سـحب الحافلـة الصغـيرة لبـاب المخيـم وعـلى مـرأى النـاس جميعًـا تـم إحراقهـا عـبرة لـكل قـوة مستعربة قـد تفكـر باقتحـام المخيـم بـأن الخـروج منـه لـن يكـون سـهلًا كدخولـه.

مسـاء ذاك اليـوم أعـددت في أحـد البيـوت التـي اسـتضافتني عبـوة جانبيـة، جهزتهـا وأعددتهـا لتكـون مجهـزة للتفجـير عـن بعـد.

في مسـاء أحـد الأيـام التـي تلـت اعتقـال ريـاض أخـذت العبـوة التـي أعـددت وبرفقتـي مهـدي إلى شـارع الخضـار المركـزي (الحسـبة)، وزرعتهـا هنـاك موجهًـا قوتهـا إلى طريـق عـادة مـا يستخدم في تنقـل الآليـات العسـكرية الصهيونيـة، وعـدت إلى المخيـم مـع مهـدي بعـد أن تركنـا عبوتنـا مموهـة مخافـة أعـين المـارة هنـاك!

اعتلينـا سـطح منـزل ذوي مهـدي المطـل عـلى الشـارع، كنـت قـد اسـتعرت مـن أحدهـم منظـارًا للمراقبـة، بـدأت بـين الفينـة والأخـرى أراقـب الشـارع الـذي ركنـا في أحضانـه عبوتنـا!

خـلال اسـتخدامي للمنظـار التفـت بـه تجـاه شـارع المسـلخ البلـدي، مـرّ جيـب مصفـح أبيـض اللـون، جيـب مخابـرات صهيـوني، خـرج منـه رجـلٌ بلبـاس مـدني يحمـل بندقيـة بكاتـم صـوت عـلى مـا بـان لي، وبـدأ قنصـه في الإنـارة المنتـشرة عـلى أعمـدة الكهربـاء بأطـراف الشـارع. لم يكـن المنظـار بالجـودة المثاليـة ولكنـه قـضى لي حاجتـي! كلفـت مهـدي بمتابعـة المراقبـة عنـي ونزلـت مـن عنـده أحمـل سـلاحي في كيـس وتوجهـت إلى آخـر نقطـة في المخيـم وأقـرب نقطـة عـلى منطقـة "المسـلخ البلـدي"، أخرجـت السـلاح وأطلقـت صليـة رصـاص تجـاه مـا

اعتقدت أنه الجيب الصهيوني الذي رأيته في محيط "المسلخ البلدي"!

عدت إلى مهدي أسأله إن كان لمح شيئًا، فأجابني أن هناك أضواء لسيارات تتجمع في المنطقة حيث المسلخ البلدي!

احترت لما رأيته وما أشاهده في تلك المنطقة، فالمنطقة هناك منطقة أشباح لا يصلها ليلًا إلا الصهاينة ثم لماذا يطفئون أنوارها؟ ولماذا الجيب الأبيض! وأضواء السيارات التي تظهر لنا وتؤكد أن مصدرها يخرج من سيارات مدنية لا عسكرية! أمرٌ محير جدًا؟ يجب الاستفسار عنه؟

لم يغفل مهدي عن شارع "الحسبة" بشارع المسلخ البلدي، فما إن رأى رتلًا عسكريًا صهيونيًا يصل أول الشارع الذي فيه عبوتنا حتى صرخ بي: "فهد جهز حالك هيهم أجو لنصيبهم".

التفت إلى الشارع الذي يقصده مهدي، جهزت هاتفي ضاغطًا أزرار رقم الهاتف المرتبط بصاعق التفجير، وعندما قابلت ناقلة الجند مكان عبوتنا الموجهة انفجرت بها، كان المنظر أبلغ من أي وصف يكتب كأن العبوة ممزوجة بحمم من جهنم، وقطعت الكهرباء عن المخيم بسبب الانفجار.

بعيد دقائق حضرت شاحنة نقل عسكرية كبيرة إلى شارع "الحسبة"، وتم إيداع الناقلة المعطلة فيها.

توجهت إلى حيثما كان بعض المرابطين، بشرت من أطلعته على السر بما كان، وطلبت منه أن يصدر بيانًا يتبنى إعطاب الناقلة مفضلًا أن يكون

إعلان التبني باسم مجموعة الشهيد "محمود الطيطي"، وثأرًا لعلي ومراد، وكذلك فعل من طلب منه، وكان هو ذاته أمير ذوقان.

رغم أن الساعة متأخرة من الليل إلا أن أمير عجّل في التبني والتواصل مع الإعلام، وما إن أنهى شأنه حتى اقتحم المخيم بشكل مفاجئ وسريع، وجرى تبادل لإطلاق النار بين من هم في صفي وجنود العدو الصهيوني.

كان الهدف من هذا الاقتحام اعتقال أحد الشبان من أقرباء مهدي نجا من الاعتقال بعدما أفشلنا عملية التسلل الحذر لقوات العدو.

لم يستمر التأييد الشعبي لرباطنا طويلًا فمع كل اشتباك مسلح كان هناك خسائر مادية للناس وأحيانًا يرتقي شهداء ويسقط جرحى منهم. ناهيك عن تواجد تيار خفي يحاول أن يزرع في عقول عامة الناس أن المرابطين عبارة عن مغامرين لا يبالون بمصاب من حولهم، ولا يعون النتائج الثانوية في صد أي اقتحام، كان ذاك التيار حريصًا على أن يظهرنا كمرابطين بمظهر سلبي لا يستحق أن يحترم في تضحياته، ولا على سهره لرد الغازين للمخيم.

لم أنسَ أن أخبر أمير بشأن الجيب الأبيض و"المسلخ البلدي"، وتبين لنا بعد أيام من الرصد والمتابعة أن ذاك المكان هو نقطة التقاء تجمع ضباط من المخابرات الصهيونية بالمتخابرين معهم من لقطاء المنطقة الشرقية في نابلس!

أيام وحضرني الطهبوب ومعه شابٌ أخر يدعى "ساري"، وأخبرني الطهبوب بحاجته لمأوى بضعة أيام حتى يخرجا إلى طولكرم، وكاشفني بعدما استقررت بهما في إحدى البيوت التي أخليت لي بأن ساري، هو استشهادي قد كشف أمره ويجرى البحث عنه من قبل العدو وعملائه، كان مع ساري حقيبة مفخخة أخذتها منه وخبأتها لدى حمودة العاصي.

مكثت والطهبوب وساري خمسة أيام أتنقل بهما من مبيتٍ لآخر لا يغيبني عنهما إلا رباط الليل أو أن أخرج جالبًا لهما الطعام والشراب.

في اليوم السادس كنت قد أمنت للطهبوب وساري طريقًا تحملهما فيه سيارة إلى طولكرم استقلاها وبلغا فيها مرادهما.

حضر لي بعض الثقات يحملون في كيس حزامًا ناسفًا من تركة الطيطي، أخبروني أن بإمكاني الاستفادة منه، أخذته منهم وعملت على تفكيكه واستخراج المواد المتفجرة منه.

قمت بتصنيع ثلاث عبوات ناسفة من المواد المستخرجة من الحزام وأعطيتها لمجموعة شبان يشتهرون بسوء السمعة والصيت بعدما كنت قد أقنعتهم بضرورة تنزههم عن تصرفاتهم المعيبة، فأطاعوني وبدؤوا يطلعونني يومًا بعد يوم على أخبار استخدامهم للعبوات الناسفة ضد أهداف صهيونية، بعد تلك اللفتة تجاه أولئك الزعران بدأوا يجهدون في تحسين انطباع الناس عنهم وتغيير ما أذيع عنهم من صيتٍ سيء حتى انتهى بهم الأمر للاعتقال في سجون العدو.

قبيل اعتقال "الزعران" حدثت أول عملية تسللٍ لصهاينة متطرفين دينيًا لزيارة قبر يوسف، خلسة دخلوا المدينة دون أي غطاء أمني من قوات الاحتلال الصهيوني.

لم نكن لنعلم عن تواجد صهاينة في المنطقة الشرقية بنابلس لولا تسليط كشاف الإنارة من جرزيم تجاه قبر يوسف ومحيطه.

توجهت مع الصخرة إلى نقطة بإمكاننا ترهيب المستوطنين الذين تسللوا للقبر، لم نستطع الاقتراب كثيرًا فالإنارة أحاطت مساحة واسعة من محيط القبر! ومع ذلك أطلقنا رشقات من رشاشينا تجاه الجدران المحيطة بالقبر وانسحبنا من المكان تجاه المخيم، خلال دقائق بدأت الآليات الصهيونية تتحرك باتجاه القبر تبغي إخلاء المستوطنين الزائرين لقبر يوسف خلسة! يتخلل قافلة الآليات تلك حافلة صغيرة أكدنا أنها لنقل المتسللين. كان بعض المرابطين في انتظارنا بباب المخيم منهم نادر أبو ليل، إياد المسيمي، محمد عويص، خليل مرشود، محمد الخطيب إضافة إلى أمير ذوقان، كلٌ منهم يحمل سلاحًا، توجهنا جميعًا لمنطقة مقابلة لشارع نجزم أنه سيكون طريق خروج من المدينة للآليات الصهيونية وحافلة المستوطنين.

مرت قرابة نصف ساعة حتى مرّ العسكر و"الحرامية"، جميعنا جّهز نفسه لاستهداف الحافلة التي كنا نعتقد أنها غير مصفحة، فما إن وصلت صوب فوهات بنادقنا حتى بدأنا بالرمي، ألا إن القوة الرمي.

لم تتوقف القافلة العسكرية، ولم تبادلنا إطلاق نيرانها هذه المرة، ردة فعلهم قضت فقط بزيادة سرعة الآليات والحافلة!

انسحبنا من المكان على الفور، خشية أن نكشف للطيران الحربي، وعدنا إلى المخيم حيث أكملنا رباطنا فيه.

عصر أحد الأيام التي تلت تلك الحادثة؛ بلغني أن هناك جيبات عسكرية صهيونية توقفت بالقرب من مدخل المخيم، توجهت ومعي مهدي العاصي لاستيضاح البلاغ وكنا مسلحين، كان قد سبقنا للموقع بعض الفتية الذين هموا برشق الجيبات المصفحة بحجارتهم.

انزوينا أنا ومهدي في منطقة يمكننا إطلاق النار منها تجاه الجيبات، وكلفنا أحد الشبان بإبعاد راشقي الحجارة من مكان تواجدنا خشية أن يصاب أحد الفتية إذا ما رُدَّ على إطلاق نيراننا بنيران الهمجية الصهيونية العشوائية، بدت الفرصة سانحة لاستخدام السلاح الذي بحوزتي وبحيازة مهدي، أطلقنا صليات نارية تجاه الجيبات بعد أن سمينا ووجهنا البنادق صوب أهدافها، وغيّرنا مواقعنا على الفور.

رد الجنود الصهاينة على مصادر إطلاق النار، وكانوا يخرجون بين اللحظة والأخرى بنادقهم من أبواب ونوافذ الجيبات!

بدأ يتوافد إلى الموقع رفاق لنا في الرباط الليلي ومعهم أسلحتهم، وكان من بينهم الصخرة ونادر أبو ليل وإياد المسيمي، كلٌ معه سلاحه.

بدأت حدة الاشتباك تشتد مما استوجب على الصهاينة استدعاء تعزيزات عسكرية لإسنادهم فحتى نقطة المراقبة في جرزيم لم تردنا عن الاشتباك معهم.

وصلت لسماء المنطقة طائرة حرب وتوافدت لأرض المواجهة دبابات وناقلات جند، أغلقت كل الطرق المؤدية لمداخل المخيم، كان الاشتباك على حاله، لم يهدأ رصاصنا ولم يتوقفوا هم عن الرد.

بدأ جنون الرد الصهيوني يطال الأهالي العزل ممن انزووا لانتظار لحظة تمكنهم من الانتقال لمناطق آمنة.

ترجل "الصخرة" محمود الخطيب لإطلاق نيران رشاشه من منطقة مفتوحة، كانت تلك الخطوة مغامرة غير محسوبة التكاليف لذلك سقط الصخرة بطلق ناريٍ في الرقبة نقلناه على إثرها إلى عيادة خاصة لأحد الأطباء في المخيم.

إلى العيادة حضرت أم محمود الخطيب للاطمئنان على وحيدها، كانت إصابة الصخرة بالغة، حاول طبيب العيادة بكل استطاعته أن يساعد في علاجه ولكن للأسف صارح جميع المرافقين بأن حال ابنهم صعبة تستوجب نقله إلى مستشفى خاص وبسيارة إسعاف مجهزة، كان هذا الأمر يعني اعتقال الصخرة من سيارة الإسعاف! فالمخيم مطوق بشكل كامل وأي إسعاف ستدخل أو تخرج منه ستفتش والصخرة مطلوب للمفتشين.

أخبرنا والدة "الصخرة" بأن الاعتقال لابنها أمرٌ مفروغٌ منه، كانت أم الصخرة تفضل أي شيء دون استشهاد ابنها، أخبرت أنها لا تمانع في

اعتقاله مقابل حياته، فحتى الاعتقال اعتادت عليه بغياب زوجها المتواصل لعشرين عامًا في سجون العدو، حضرت سيارة الإسعاف استرددت السلاح من الصخرة وفككت عنه جعبته، قبلتُ رأسه ودعوت الله راجيًا أن يعمي أبصار العدو عنه!

عاودت أرض الاشتباك، وكان قد انحسر تدريجيًا حيث انسحبت الجيبات وبقيت الآليات الثقيلة في الموقع.

انسحب مرابطو الليل إلى أزقة المخيم التي تخفوا في بيوتها، لجأت أنا ومهدي إلى بيت الصخرة حيث نتبع أخباره من هناك، كانت سيارة الإسعاف التي تقل الصخرة قيد التفتيش والتدقيق جارٍ في هوية المصاب حتى أبلغنا رسميًا من والدة الصخرة أن الجنود الصهاينة قاموا باعتقال نجلها، ونقلوه من الإسعاف إلى جيب عسكري!

كانت إصابة الصخرة وما تبعها من اعتقالٍ له دافعًا قويًا لزيادة ضغط الأهل على أبنائهم المرابطين معي عدا ارتداع بعض منهم شخصيًا بمصاب الصخرة.

بدأ عدد المرابطين في يتناقص، كلٌ وله حجته في أن يتخلف عن مقعده في الرباط حتى استقر الحال بي وحيدًا وأحيانًا يصاحبني مهدي إلى أن ضاقت واستحكمت حلقاتها، وألزمت أنا الآخر في أن أكون بأحضان أحد البيوت الآمنة عند كل اقتحام.

استوجب عليّ ذاك الضيق أن أرد كل سلاحٍ إلى أهله حتى عدت وليس في حيازتي إلا مسدس علي!

ليالٍ قليلة مرت وإذا بالجنود الصهاينة يصولون ويجولون بحارات المخيم وأزقته بلا حسيبٍ ولا رقيب! خروجي لهم بالمسدس مغامرة خاسرة ستنتهي بي إلى موتٍ مجاني!

والمصاب الأكبر هو أن مبادرتي في الاشتباك مع العدو الصهيوني في حارات المخيم مخالفة لرغبات العديد من أهله، ومبرر لأي انتقام عشوائي قد يصدر من العدو!

حبستُ نفسي وكتمت جمر غيظي داخل أحد البيوت الذي تضامن أهله معي وقرروا إيوائي الليلة عندهم، وخضعت لرغبة الأهالي وقررت اعتزال الاشتباك مع العدو داخل حارات المخيم أو بمحيطه!

فتحت هاتفي قبيل الفجر لأتابع أخبار الاقتحام العدواني للمخيم، اتصلت بخليل مرشود أسأله عن الأوضاع التي تحيط بسكناه، فصدمني بقوله إن الجنود الصهاينة قاموا بإخلاء بيتي "برهوم والشقور" من السكان تمهيدًا لنسف البيتين مع الفجر!

عاودت إقفال هاتفي، بدأت العذابات تشد رحالها إليّ للحظة فبعض من أفراد عائلتي الشقور والناجي يظنون بي سوءًا أنني تلقيت أموالًا طائلة مقابل استشهاد ابنيهما في العملية التي نفذت في "تل أبيب"!

المصاب الأعظم هو أن نسف المنازل يعني تشريد الأهالي الذين أوصاني أبناؤهما بهم خيرًا، وهل يملك متسول مثلي مكانًا لتوفير مأوى لعائلتين كاملتين؟!

إنني أعمل خلسة هنا وهناك من أجل توفير بعض الطلقات، وأحيانًا يتبرع لي أخي وأصدقائي بمبالغ مجموعها لا يسمن مسدسًا بطلقاته! خلال انهيار تلك التساؤلات عليّ دوى صوت انفجار سرعان ما تبعه آخر، كانا انفجارين قويين تنبأت أنهما نتيجة نسف منزلي "برهوم والشقور"، ومعهما نسفت كل آمالي بأنني قد ألقى رضًا من أهالي المخيم بعد اليوم!

صباحًا لم أتجرأ على الخروج من البيت الذي آواني تلك الليلة المشؤومة، فأنا لا أقوى على مواجهة ذوي الشهيدين اللذين تعهدت لابنيهما أن أحل مكانهما حتى يأذن الله لي باللحاق بهما.

عاودت تشغيل هاتفي ووضعته بالقرب مني وحاولت أن أنام، عيناي رغم اعتذاري لجفونهما لم تحظيا حتى بغفوة مؤقتة، رن هاتفي، كانت المكالمة الواردة من خليل الذي أخبرني أن ذوي الشهيدين يبحثون عني!

كل ظنوني أصبحت واقعًا، وصرت مطاردًا أيضًا لذوي الشهداء!، قررت مغادرة المخيم فلست على القدر الذي أستطيع من خلاله مواجهة رغبات الأهالي أو إتمام استحقاقاتهم مني.

كم هو صعب ذلك الشعور الذي يتخللك عندما تعجز أن تؤدي عهدًا قطعته أمام حبيب راحل! لا الشهداء يعودون لطلب الصفح منهم ولا ذووهم يعذرون حقيقة موانعك لإتمام عهد أبنائهم!

هاتفت إبراهيم سلامة، أخبرته ما حلَّ بي والضيق الذي يحاصرني، فطلب مني معاودة الاتصال به بعد دقائق لعلّه يجد لي مخرجًا من ضيقي في المخيم.

عـاودت الاتصـال بـه، فأرسـل إليّ رسـالة تحـوي رقـم مطـارد يتنقـل في البلـدة القديمـة بنابلـس، وطلـب مني الذهـاب إليـه لعلـه يسـاعدني عـن قـرب.

في نفـس اليـوم خرجـت إلى البلـدة القديمـة هنـاك اتصلـت بالمطـارد الـذي حمـل للتعريـف عـن نفسـه كنيـة "أبـو رمـوش"، حـضر لمكاني وأخـذ يقـودني إلى حـوش "العطعـوط"، وهنـاك أدخلني إلى بيت يؤويني، أعلمني أن هـذا البيـت تـم اسـتئجاره لغـرض إيـواء مـن هـم في حالنـا، وأن هنـاك زمـلاء يشـاركوننا غـرف هـذا البيـت وغالبهـم مـن الجهـاد الإسـلامي، أمـا أبـو رموش فقـد صرّح لي أنـه لا يعمـل تحـت أي مسـمى للمقاومـة، ولكنـه ينتمي لمجموعة في كتائـب شـهداء الأقـصى.

حـضر لمجلـس أبـو رمـوش أفـراد الجهـاد الإسـلامي فهـم يعلمـون أن بيتهـم لا يدخلـه إلا الأشـقى، كان غالبهـم يظهـر بمظهـر يؤكـد التزامـه الديني فـلا قـزع في الـرؤوس، واللحـى مهذبـة لـدى الجميـع، كلامهـم رطـب وناعـم، تعارفهـم سلس ومميز، ذكـرت بهـم لحظـة تعارفـت مـع علي على الشيخ أسـعد في طولكـرم، كان في جلسـتنا الأولى كلٌ مـن أنـس شريتـح، أحمـد بسيسي، رامي أبـو بكـر، مهنـد أبـو عيشـة، أمـين بشـارات، حـل الظـلام وكان روتـين أهـل ذاك البيـت يقـضي بـأن تكـون بيوتهـم سـكن نهـارٍ فقـط، أمـا ليلتـه فيقضونهـا قيامًـا وقعـودًا خـارج البلـدة القديمـة أو متفرقـين في بيـوتٍ وأزقـة أخـرى فيهـا.

خرجـت مـع أبـو رمـوش، وتجولـت بـين طرقـات البلـدة حتـى حـلّ الصبـاح، وعـدت معـه إلى البيـت الـذي جمعنـا عـصر الأمـس!

13

كان تأثير أفراد الجهاد الإسلامي عليّ يزداد يومًا بعد يوم، فقد لاحظت عليهم روحانيات ملائكية، غالبًا ما كانوا ينادون بعضهم بمسمى "مجاهد"، يناجون ربهم بعد كل صلاة، نهارهم صيام وليلهم قيام، وبين ذاك وذاك إعداد لعمل ضد أهداف صهيونية!

كنت أجد في نفسي حرجًا أن أقبل إليهم بعد أن لفظتني النذير بتفرق أهلها بين شهيد وأسير. هل أطلت الانضمام لأولئك المجاهدين؟ مشاركتي معهم الصيام والقيام قربتني جدًا لدائرتهم الروحانية على الأقل!

أيام مرت حتى تفاجأت أن الطهبوب واحد من أفراد المجموعة التابعة للجهاد الإسلامي التي تبيت معي في البلدة القديمة، كان الطهبوب قد غيبته مهمة ما خارج المدينة، والآن عاد إلى المجموعة متفاجئًا هو الآخر بتواجدي بين زملائه!

عصر ذاك اليوم الذي جمعني بالطهبوب مجددًا؛ اتصل بي حسين أبو ليل صديق رباط ممن كانوا معي في المخيم، طلب مني حسين أن أحضر للقائه في محيط دوار الشهداء في مركز المدينة، التقيته بعد دقائق، كان معه في سيارة أجرة كيس أخبرني أن فيه ثلاث قذائف هاون وقاذف هاون عثر عليهما في سهل المخيم، سائلًا إن كنت في حاجتها أم لا، أخذت الكيس منه ولم أقلق، فذاك الصديق هو صديق رباطٍ وطفولة من الحجارة إلى السلاح، وعدت بها إلى بيت المطاردين في حوش العطعوط.

في البيت تفحصت بدقة القاذف، كان يدوي الصنع وللأسف لم يكمل أصحابه تصنيعه بالكامل، وكان الأمر واضحًا بأن ما جاءني به حسين كان مدفونًا بالأرض منذ فترة طويلة فالرمال عالقة في أطراف القذائف والقاذف!

أعلمت أبو رموش بالأمر، بعد أيام طلب مني أن أجهز من القذائف حقيبة متفجرة.

لم يكن الأمر بالصعب علي، بدأت مباشرة تحويل قذائف الهاون إلى عبوات ناسفة وتخزينها داخل الحقيبة، جهزت لها صواعق تفجيرية وزر أمان حتى لا تنفجر بضغطة زر واحدة فقط، وفي تمام الأمر وزنتُ الحقيبة

بما فيها لتزيد عن 25 كيلو غرامًا، والمواد المتفجرة كلها مواد أصلية من خارج قذائف الهاون، وليست من صنع يدوي!

خلال إعدادي للحقيبة المتفجّرة كان المجاهدون من أفراد الجهاد الإسلامي يمرون إليّ ويسترقون النظر لكيفية عملي، ملاحظًا إعجابهم بجرأتي _المبالغ فيها_ بالعمل مع المتفجرات.

أخذ الحقيبة أبو رموش وغاب عني يومين ثم عاد ليخبرني أن الحقيبة أخذها شابٌ من مخيم عسكر وتوجه بها إلى تل أبيب، وعندما وصل هدفه سكنته الخشية على روحه وعاد إلى أهله الذين سلموه لقوات العدو ومعه الحقيبة المتفجرة.

بدأت مع أبو رموش إعداد المواد المتفجرة يدوية الصنع وتبادل الخبرات معه، مرةً أشاركه صناعة المادة المتفجرة من اليوريا ومرةً يشاركني هو صناعة "أم العبد".

طلب مني مجاهدو الجهاد الإسلامي أن أجهز لهم بعض الكحتات، فكان أن أهديتهم عشرين كحتة خلال يومين، وكان في طلبهم ما وراءه، قد كان في ذلك الطلب وتجاوبي معه بليونة بداية انضمامي إليهم.

بعد أيام طلب مني أن أجهز عبوة جانبية أيضًا لمجاهدي الجهاد الإسلامي، بدأت تجهيز العبوة وساعدني في إعدادها أمين بشارات، كان وجود أمين معي يعني يقينًا أنني أصبحت في عداد مجاهدي الجهاد الإسلامي رواد البيت، بعد إنهائي وأمين تجهيز العبوة الموجهة، هز كتفي

رامي أبو بكر وكان يلقب حينها بـ "الأشقر" طالبًا مني أن أشاركه ومهند كمينًا مما أعددت أنا وأمين.

بقي أمين في البيت أما أنا فوافقت على طلب رامي ورافقته مع مهند والعبوة!، كان رامي قد أعطاني بندقية من طراز (M16)، وكان هو يملك واحدة مثلها، أما مهند فكان يحمل كاميرا إضافة لبندقية (M16) هو الآخر!

ورغم أنني أحمل (M16) إلا أن مسدس علي ما زال ملتصقًا بي، توجهنا إلى شارع كان رامي أبو بكر قد رصد فيه تحركات لآليات العدو، هناك زرعت العبوة ومددت أسلاكها إلى منطقة مشجّرة، وكان الهدف تفجير آلية عسكرية وتوثيق العملية بتصوير مرئي.

مرت الساعات وزيد في حلك الليل، كان رامي أبو بكر قد اشترى بطارية جديدة لغرض استخدامها في تشغيل صاعق التفجير بالعبوة، وصلت قافلة عسكرية مكان العبوة، تهيأ مهند لتصوير الانفجار، وضع رامي طرفي الأسلاك على قطبي البطارية لكن دون انفجار!

مرت القافلة بسلام دون تفجير للعبوة، انتظرنا حتى طلوع الفجر لتفكيك الكمين وفحص الخلل.

أخذنا العبوة، وعدنا للبيت، هناك تبين لنا بأن البطارية التي جاء بها رامي من السوق أحد أقطابها ما زال مغطى باللاصق الشفاف الذي منع توصيل الكهرباء منها.

مصادفة في ذات اليوم، اتصل أمير ذوقان بي وأخبرني حاجته لعبوة موجهة بشكل عاجل، أخبرت رامي بطلب أمير، فبادر بعدم ممانعته أن أعطي أمير عبوتنا التي لم تنفجر! أرسلت العبوة لأمير الذي كان برفقة خليل حينها، أخبروني أنهما سيكمنان بالعبوة في مفترق طرق قريب من المخيم، في الليلة التالية علمت أن أمير وخليل قد فجّرا العبوة بدبابة صهيونية كانت تمر بالقرب من مطعم "الغاوي"، مضت أيام صرت متيقنًا أن مراد كان ذكيًا في توجهه عندما كان يشارك الجهاد الإسلامي في أمورهم، وبت أرى أنني وعلي لم نكن لنختار العمل باسم منفرد لو توافر لنا الإمكانيات التي وضعها الجهاد الإسلامي لأبنائه!

لقد عانيت وعلي الأمرين ونحن نعتصر جيوبنا يوميًا من أجل الارتقاء فيما خرجنا لأجله!، لم نكن مقتنعين بالعمل تحت اسم (كتائب شهداء الأقصى)؛ لأننا رأينا للكتائب مستقبلًا لا نرضاه ولا نرضى أن نسخر جهادنا وجهدنا لأجله!، فاخترنا أن يكون ذاك الجهد يقبل القسمة على الجميع ولا يقبل الانقسام من أحدٍ، أما "النذير" فكانت بوابة لعبور الاستشهاديين والاستشهاديين فقط.

الأن صرت مجاهدًا ولو كان علي معي لما تأخر للحظة هو الآخر في أن يكون بصف الجهاد الإسلامي رغم أنه من أشبال فتح وكتائب شهداء الأقصى، لكن علي كان يرى أنه ولد يتيمًا لا يرى أمامه إلا جهاد العدو ومقاومته، وذاك ما كانت تعمل على تحقيقه الجهاد الإسلامي لحظة بلحظة دون أي التفات لهدنة ولا لحدٍ لها.

كان الجهاد الإسلامي يسخّر كل أموال الدعم التي يحصلها من أحرار العالم لخدمة المجاهدين من أفراده في فلسطين وحتى من هم دون أفراده طالما انتهجوا خيار الجهاد ضد العدو!، الأموال التي لو حصلنا على جزء منها أنا وعلي لاستطعنا أن نزيد في كل شيء من منتوج ومجهود، دائمًا ما كان علي _رضوان الله عليه_ يؤكد لي بأن هناك من سوف يجلب لنا الدعم المالي الذي يعزز إمكانياتنا حتى رحل، وبقيت أنا حبيس دينه! ومطاردًا لمن كنت سببًا في هدم بيوتهم لا أستطيع حتى أن أقدم لهم إيجار غرفة تؤويهم!

غالبًا ما يخرج المقاتلون دون أن يلتفتوا للحظة خلفهم، مبتغين رضى ربهم، لا يمكن أن يكون المقاتل مغامرًا وحسب، يجب أن يعقلها ويتوكل، ويجب أن يتأكد أنه قد ترك وراءه من سيصبر على الأقل على نتائج قتله ومقتله! الصبر على الأقل! وهل يطيق صبرًا من هدم بيته وشرد أهله، ربما لو كان النذير حقًا قادرًا على تبني جراح عائلات مقاتليه لما كان عدد استشهادييه أربعة فقط!

"وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم" أما المال والله لم نكن لنملك إلا ما قد كان، وأما النفس فها نحن يا الله جعلناها في كل ميدان، خذ منا حتى ترضى!

صرت أتنقل مع المجاهدين يومًا في كمين وأيامًا في اشتباك، مرةً أُعلمهم التصنيع ومرات أتعلم منهم، من خلالهم كنت أقدم الذخائر الحية لمطاردين من المخيم أعلم أن حالهم المادية لا تسمح لهم باقتناء الرصاص

في كل وقـت، فالهـدف واحـد أيًـا كان المسمى الـذي يعمـل تحتـه أولئـك المطـاردون، والمجاهـدون لا يمانعـون أن يقتسـموا ثرواتهـم العسـكرية مـع مـن حسـنت ثورتـه!

ليـالٍ تمـر وأيـام تمـضي، طلـب مني الطهبـوب أن أخـرج معـه خـارج مدينـة نابلـس لإنجـاز بعـض المهـام، أراد مني أن أحمـل معـي العـدد اللازمـة لتصنيـع المتفجـرات، جهـزت حقيبـة ملأتهـا بالعـدة إضافـة لكميـة جاهـزة مـن أم العبـد، في انتظـار لحظـة الانطـلاق مـع الطهبـوب.

بعـد يومـين مـن تهيئـة نفسي للسـفر المفاجـئ، حـضر إليّ الطهبـوب مخبرًا أنـه الوقـت الملائـم للانطـلاق، ودعـت أبـو رمـوش ورفـاق السـكن وخرجـت مـع الطهبـوب لا ثالـث لنـا إلا عنايـة الله التـي نحتسـب، توجهنـا إلى منـزل يعـرف أهلـه الطهبـوب في منطقـة زواتـا، ومـن هنـاك بعـد تفحـص الطـرق الالتفافيـة التـي سنسـلكها للخـروج مـن المدينـة انطلقنـا.

توجهنـا إلى عصـيرة الشـمالية ومنهـا إلى قباطيـة، ذكرتنـي تلـك الرحلـة بترحـالي مـع مـرادٍ وعـلي. فأنـا قـد سـلكت بعضًـا مـن هـذه الطـرق معهـما ومـع الحبيبـين "برهـوم والشـقور"!

بعـد أن وصلنـا قباطيـة أنـا والطهبـوب ذهبنـا لمنـزل أحـد معارفـه، ومـا إن اكتحلـت الليلـة بالسـواد حتـى حـوصرت البلـدة مـن قبـل قـوات العـدو. ظننـا أن الحصـار الـذي فـرض عـلى المنطقـة نحـن المسـتهدفين بـه، أجبرنـا عـلى الانتظـار حتـى تضيـق دائـرة الحصـار ضـد الهـدف الـذي يريـده العـدو! حتـى لا ننصهـر فيـما يعيدنـا عـن هـدف الخـروج مـن نابلـس.

دقائق وتبين لنا من صاحب الضيافة أن هناك منزلًا محاصرًا في حي من أحياء قباطية، ما إن مضت دقائق أخرى حتى بدأ صوت لتبادل إطلاق النار، كانت نفسي تواقة للاشتباك مع العدو المحاصر للبيت الذي لا أعلم، لكن ما أبعدني عن تلك المواجهة جهلي بمعالم المنطقة التي يدور فيها تبادل إطلاق النار، أو حتى جهلي والطهبوب بجغرافية بلدة قباطية ككل. تلاشى صوت الرصاص وبدأت ترد لنا الأخبار أن المستهدف من حصار المنزل كان الشيخ حمزة أبو الرُب وهو الشخص الذي جاء الطهبوب للقائه في قباطية. دقائق أخرى وأكد لنا أن الشيخ قد استشهد بعد تبادل لإطلاق النار مع المحاصرين، دقائق مضت وبدأت الآليات بالانسحاب وتخفيف الطوق الأمني عن البلدة.

توجهنا إلى بيت العزاء أنا والطهبوب وقمنا بمواساة أهل وأحباء الشيخ حمزة، وهناك التقى الطهبوب بمجاهد يعرفه مسبقًا وتبادلا الحديث عن سبب زيارة الطهبوب لقباطية وعن مكان مبيتنا.

قبيل المغرب حضر المجاهد إلى الطهبوب وأعطاه حزامًا ناسفًا قديمًا مخبرًا عن الحزام أنه كان من تركة الشيخ حمزة.

أخذت أنا الحزام، وبدأت بتفكيكه فحسبما ظهر لي فإن الحزام قديم ولا يصلح للاستخدام، وأفضل استفادة منه هي استخراج المواد المتفجرة من داخله.

أصبح أمر وجودنا في قباطية مجرد استنزاف وقت دون جدوى رغم أننا استحوذنا على بعض المواد. توجه بي الطهبوب لقرية الزبابدة المحاذية

لقباطية، وهناك بتنا في منزل قيد الإنشاء، ومن الزبابدة انطلقنا عبر الجبال والسهول ليقر قرارنا في قرية صيدا القريبة من مدينة طولكرم.

في صيدا التقينا بمجاهدين من أصدقاء الطهبوب، زاهر الأشقر، رائد عجاج وأحمد فني الملقب "بالحصان"، كان الطهبوب يريد مني أن أعلم زاهرًا بعضًا مما علمني الله.

علمتُ زاهرًا كيفية صناعة صواعق تفجير بألية عمل حديث، وإعداد عبوات شديدة الانفجار بواسطة أنابيب غاز الطهي مقدمًا له بعض عدتي الخاصة كهدية مني لما لاقيت من مجاهدي صيدا من حسن ضيافة طوال أربعة أيام ولياليهن.

غادرنا أنا والطهبوب صيدا متجهين لمخيم طولكرم مسقط رأس الطهبوب، هناك عرفني الطهبوب على أحمد أبو ساري وهو شقيق (محمد) الذي اعتقل منذ فتره مع حمودة المدني ورائد عبد الجليل بالقرب من قباطية.

كنت أتنقل مع أبو ساري والطهبوب بين بيوت المخيم وأحيائه، كان يتركنا الطهبوب لزيارة أهله، جّهزت في حضرة أحمد أبو ساري خمس عشرة كحتة وعبوتين ناسفتين، وأبقيناهما في حيازته، ومن ثم غادرنا أحمد، وعدنا إلى بيت المطاردين في نابلس، سالكين للعودة طرقًا تدمي الأقدام وتستمطر الحياة.

بعد العودة بأيام طلب مني الطهبوب أن أعد حزامًا ناسفًا وحقيبة مفخخة، وأوكلّ إلى أمين بشارات ورامي أبو بكر أمر مساعدتي في الإعداد.

ربطنا الليل بالنهار لنعد المطلوب للطهبوب حتى صار جاهزًا.

أسر لي الطهبوب بأن المنتج _الحزام والحقيبة_ لغرض استخدامهما في عملية استشهادية مزدوجة.

كان الطهبوب على علم مسبق بسبقي له للعمليات الاستشهادية ومنها المزدوجة! ولي خبرة كافية تمكنني من مساعدته في تحقيق غايته، بدأت أسأله ويجيب عما توافر من أركان نجاح العملية لديه، فأدركت أنه لا يمتلك منها إلا نصف ركن وهو توافر منفذ واحد من اثنين فقط لا غير.

أخبرت الطهبوب بأنني سأجند له استشهاديًا آخر، وسأحاول تأمين طريق لعبور المنفذين للداخل المحتل.

كنت أخشى العودة لتجنيد الاستشهاديين، ولكن بعدما انتميت إلى الجهاد صارت حجتي داحضة، فالآن هناك مؤسسة تنظيمية ستعمل على سد أي حاجة لذوي الاستشهاديين، ولن أكون بموضع مساءلة عن أي استحقاقٍ أخلاقي سأقصر في أدائه.

بكل ترقب وحذر توجهت إلى مخيمي حيث التقيت فيه بصديق قديم لي يدعى "إبراهيم أبو سريس" ويكنى بـ"أبو شفيق"، كان أبو شفيق قد أخبرني مسبقًا خلال رباطي في المخيم أن هناك شابًا خلوقًا متدينًا قدم إلى أبي شفيق طالبًا منه المساعدة في أن يكون المنفذ القادم لأي عملية استشهادية تحت أي مسمى.

بعد أسئلة الاطمئنان والتطمين المتبادلة ذكرت أبو شفيق بما كان منه من خبر عن ذاك الشاب، وطلبت من أبو شفيق أن أعوده الزيارة في اليوم التالي حتى يتأكد من الشاب إن كان على رأيه أم غير وبدل.

عدتُ لأبي شفيق ظهر اليوم التالي ليصطحبني أبو شفيق من مقهى العاصي إلى مصنع الزرافة للحلاوة والطحينة، جلست في زاوية من زوايا المصنع وضجيج الآلات يحاصرنا، دخل أبو شفيقٍ بين الآلات ليعود لي بصحبة شاب ذي وجهٍ نوراني!

عرفني أبو شفيق بصاحبه الذي كان اسمه "مصطفى حنني"، وبدأنا نتبادل الحوار حتى أيقنت أنني في صحبة من يستحق أن يكون رفيقًا لبرهوم والشقور والأصفر ومن قبلهم علاء.

تأكد لي أن مصطفى قد عقد في عقله وقلبه قرار العملية الاستشهادية، وكان شديد الإصرار أن يكون منفذ العملية القادمة التي أخبرته أنها: "أصبحت في مرحلة متقدمة للتنفيذ"، ودخلت الآن حيز التنفيذ!

عدت إلى بيت المطاردين وأبلغت الطهبوب ما كان معي، وحددت معه موعدًا ومكانًا للاجتماع بالاستشهاديين!

أبلغت أبو شفيق بالموعد والمكان الذي سيجمعني بصاحبه مصطفى طالبًا منه أن يخبر مصطفى بالأمر، وأن ينهي علاقته بالشهيد المرتقب.

كانت أيامًا مليئة بالروحانيات في ثلث رمضان الأول، حان الموعد وتوجهت إلى نقطة الالتقاء التي سأصطحب منها مصطفى الذي وجدته قد سبقني إليها، أخذته من هناك وتوجهنا معًا إلى مكانٍ حددته مع الطهبوب.

كان المكان الذي اتفقت مع الطهبوب عليه عبارة عن شقة قيد التجهيز لكنها بدون أبواب، ليس بمدخلها أو حولها أي إنسان.

بـدأت أنـا ومصطفـى نعـد سـويًا واحـدة مـن الغـرف لتكـون زاويـة تصويـر لوصايـا الاستشـهاديين واللذيـن مصطفـى واحـد منهـما.

انتظـرت قـدوم الطهبـوب وصاحبـه حتـى حضـر، تفاجـأت أن مرافـق الطهبـوب هـو أحـد شـبان المخيـم الـذي أعرفـه جيـدًا.

"إيـاد حـرب" سـبق أن طلـب منـي أن أجهـزه ليكـون استشـهاديًا مـن استشـهاديي "النذيـر" لكننـي كنـت أرفضـه دائـمًا، كنـت أخشـى عليـه مـن أن يفجـع أهلـه بفقـده بعـد استشـهاد أخيـه!

سألت الطهبوب: ليش إياد معك؟

فأخـبرني أنـه سيكـون مـع مصطفـى في العمليـة الاستشـهادية التـي تُعـد! تناجيـت مـع الطهبـوب مخـبرًا أننـي أعـارض وجـود إيـادٍ في العمليـة، وأننـي أرى أن أهـل إيـاد يكفيهـم مصابهـم بفقـد واحـدٍ مـن أبنائهـم.

توجـه الطهبـوب إلى إيـاد ليخـبره معارضتـي لمشـاركته في العمليـة، كان رد إيـاد انفعاليًـا إلى الحـد الـذي كان سـيجعله يمـضي بسـلاح الطهبـوب الشـخصي دون إذن منـه.

بـدأ الطهبـوب حـصر انفعـالات إيـاد الـذي بـان لنـا بأنـه لـن يتراجـع عـن قـرار المضي للعمليـة الاستشـهادية، لـذا طلبنـا مـن مصطفـى وإيـاد أن يقـرأ كلٌ منهـما وصيتـه، وفي خلفيتهـما رايـةٌ لسرايـا القـدس الجنـاح العسـكري للجهـاد الإسـلامي وقـد حمـل كلٌ منهـما سـلاحًا مـن نـوع (M16)، أنهينـا التصويـر، وطلبنـا مـن مصطفـى وإيـاد أن يتوجهـا لقـص شـعر رأسـيهما حتـى ينخرطـا

بـدون أي شـك بمسـتوطني المكان الـذي سـينفذان عمليتهـما فيـه!

توجهـت بسـيارة مسـتأجرة يقودهـا الأشـقر إلى مـكانٍ طلبـت مـن إيـاد ومصطفـى انتظـاري فيـه بعـد حلـق رأسـيهما.

اسـتقل إيـاد ومصطفـى السـيارة معـي، وخـلال قيـادة رامـي أبـو بكـر لهـا عرفتهـما عـلى الأخـير، أخبرتهـما أن دور رامـي أبـو بكـر سـيكون إيصالهـما إلى مـا بعـد الحاجـز العسـكري الصهيـوني في قريـة جـت، وهـو حاجـز مـن الحواجـز العديـدة التـي تحيـط بمحافظـة نابلـس، وهنـاك سـيتولى أمـر نقلهـما من قريـة عـزون إلى الداخـل المحتـل شـخص مجهـول لي كنـت قـد اتفقـت مـع (أبـو القاسـم) صديقـي مـن المخيـم أن يتبـع أمـر نقلهـما مـن خـلال ذلـك المجهـول الـذي يعرفـه أبـو القاسـم ولا أعرفـه أنـا، المعلومـة الوحيـدة التـي أملكهـا عنـه هـو أنـه يعمـل كهربائيًـا للعمـل مـن الضفـة إلى كيـان العـدو!

انزويـت مـع إيـاد ومصطفـى في منطقـة خاليـة إلا مـن الأشـجار الكثيفـة، هنـاك علّمـتُ إيـاد ومصطفـى كيفيـة اسـتخدام الحـزام الناسـف والحقيبـة المفخخـة، اسـتودعتهما في يـد رامـي أبـو بكـر وسـيارته، وعـدت مشـيًا إلى بيـت المطارديـن في البلـدة القديمـة.

عـصرًا بلـغ رامـي أبـو بكـر بمصطفـى وإيـاد مـا بعـد الحاجـز العسـكري في قريـة جيـت، وفارقهـما متصـلًا بي محدثًـا أنـه قـدم لإيـاد هاتفًـا محمـولًا كنـت قـد كلفتـه بإعطائـه لـه قبـل الافـتراق، وبذلـك انتهـت مهمـة رامـي أبـو بكـر واسـتأنفت مهمتـي!

توجهت على الفور لأبي القاسم وأخبرته أن إياد ومن معه قد وصلا، وبدأ اتصالاته بصاحبه المجهول، ولكن دون جدوى، الخطوط مقفلة، استمرت محاولات الاتصال مع المجهول حتى رد مخبرًا عن حاله بأنه محتجز لدى الشرطة الصهيونية لتجاوزه السرعة القانونية أثناء قيادته السيارة الخاصة به!، وأنه سيحاول أن ينهي إجراءات المخالفة ويؤدي مهمته مع العاملين اللذين ينتظران في عزون.

كان ذلك الخبر صادمًا لي، فاتصلت بإياد على الفور طلبت منه أن يفطر هو ومصطفى فموعد الفطور حان، وأضفت له أن هناك ظروفًا قاهرة أخرت مستقليكما عنكما.

حاولنا الاتصال بالناقل المحتجز لدى الشرطة الصهيونية ولكن دون إجابة. كانت الأمور تزداد توترًا، أنفاسي تزداد حرارتها، خشيت أن يكون هناك خرق أمني في عملية تهريب مصطفى وإياد لكيان العدو.

أبو القاسم رغم أنه يعلم أن اتصالاته المتكررة مع صاحبه هو بشأن نقل استشهاديين إلى داخل الكيان الصهيوني إلا أنني أحمل له ثقة عمياء، ثم إن صاحبه لا يدري ماهية عمل من ينتظران في "عزون" فالنقل إلى داخل الكيان الصهيوني هو لأجل العمل فيها، وتحصيل الأموال لا الأرواح!

اتصلت بإياد أعلمته أن هناك مشكلة وأن الحديث بشأنها عبر الهاتف مشكلة أعظم، طلبت منه أن يتوجه مع مصطفى لضيافة أقربائه من ساكني المناطق القريبة هناك!

وبينت له أن دخوله لكيان العدو سيؤجل لصباح الغد، استفز إياد من أخباري، وكان يحاول التأكد من وجود مشكلة حقًا أم لا، لاحظت من كلماته بأنه يشكك في أخباري ظنًا منه أن هناك من يضغط عليّ لثنيه عن قرار تفجّير نفسه، صرخت في إياد آمرًا إياه إقفال هاتفه والذهاب إلى حيث أخبر، أنهيت المكالمة بعدها وعلى عجل توجهت لملاقاة الطهبوب والأشقر في واحدة من الشقق وقبل أن أصلهما، رن هاتفي بمكالمة من إياد.

سألته مباشرة: ليش ما سكرت تلفونك؟ وصلت عند قرايبك ولا لسا؟

رد مخبرًا عن نفسه ومبادرًا عن مصطفى أنهما في طريق عودتهم من نابلس لمخيم بلاطة مموهًا أنه قادم إلي، ومضيفًا أن هناك سيارة سينقلهما صاحبها للمخيم، أخبرته أن في الأمر مخاطرة، رد إياد بأنه يريد التحدث معي عن قرب وبشكلٍ عاجل، عاودت طلبي له بأن يقفل هاتفه ويفصل البطارية منه وقبل أن أنهي معه تمنيت له ولمصطفى السلامة حتى نلتقي، فالليل وحده حجة قتل لعابري الحواجز الصهيونية.

وصلت الطهبوب والأشقر، أخبرتهما بالتطورات المتسارعة للساعات الأخيرة، صعق الأشقر وأخبر أن اجتياز حاجز جيت ليلًا يعد مستحيلًا دون تفتيش دقيق لمن يود عبوره، وصرخ بي بوجوب منع وصول إياد ومصطفى للحاجز!

حاولت الاتصال بإياد ولكن الهاتف مقفل، بدأت حالة التوتر تضيق بثلاثتنا، كررت محاولات الاتصال عدة مرات ولكن دون فائدة. اتصل بالطهبوب أحدهم يخبره أن هناك أخبارًا عاجلة ترد شاشات التلفزة

مفادها انفجار على حاجز جيت العسكري! الله أكبر، صدح صوت التكبير من الطهبوب وأقبل إلى التلفاز يقلب بين محطاته حتى وصل إلى قناة إخبارية منها، وشاهدنا الخبر دون أن نتأكد أن إياد ومصطفى هما أصحاب التفجير أم أنهما في مأمنٍ منه.

مرت الساعات فجرًا، ظهرًا، عصرًا، تأكد لنا أن مدبري التفجير على حاجز جت الصهيوني هما مصطفى وإياد وإنهما اختارا تفجير نفسيهما بجنود الحاجز على ألا يرضخا للتفتيش الذي سيكشف أمريهما ويحقق اعتقالهما.

واجهت نفسي جالدًا لها: لماذا لم يبقيا ليومٍ واحد حتى يعودا إلينا سالمين! سيكون لهما ما رغبا فيه لكن في الوقت والمكان المناسبين.

حسبي الله ونعم الوكيل، رحمهما الله ورافقتهما السلامة، أنا والطهبوب والأشقر ثلاثتنا عدنا إلى بيت المطاردين في البلدة القديمة، ومن هناك بدأت اتصالات واسعة تخرج من المجاهدين لتأمين بيوت العزاء وإعلان استشهاد إياد ومصطفى بشكل رسمي وكُلِف مجاهد منهم بتسليم الوصايا المصورة لذوي الشهيدين.

في ذاك الوقت علم ذوو إياد بأنني أقف خلف عملية ابنهم، وبلغني أنهم مستاؤون جدًا مني، وتحرك مجددًا ما كنت أحسبه قد انقشع فما زلت مطاردًا لذوي برهوم الناجي، والشقور وأبو عطا الله، ومؤخرًا بدأت تردني أن أنصارًا لذوي "الأصفر" يودون مقابلتي لمقاتلتي، والآن أنا عرضة لأن أضاف في القائمة السوداء لعائلة جديدة، لكن حسبي الآن أن هناك مؤسسة تنظيمية ستتولى الأمر إن لحق بذوي إياد أو مصطفى أي ضرر.

لم تطل بي حالة الإحباط طويلًا، فلقد اعتدت على حالات النجاح والفشل، وما كان ليس فشلًا! اجتمع إياد ومصطفى على الصواب، أنا أردت لهما الأصوب.

إياد ومصطفى حالة تمرد جديدة، تمرد ضد سياسة التفتيش الإذلالي عبر الحواجز الصهيونية المنتشرة في مناطق الضفة الغربية بل لنقل إنها حالة تمردٍ على وجود تلك الحواجز أصلًا.

خرجت مع الطهبوب إلى مخيم طولكرم، بتنا ليلتنا الأولى في ضيافة أحمد أبو ساري، ظهر اليوم التالي طلب مني الطهبوب أن أتوجه لمقابلة شاب يدعى "فؤاد برهوش" في قرية كفر لبد القريبة من طولكرم، هناك سيكون "برهوش" في انتظاري وسيأخذني إلى مكان لأبدأ معه في التجهيز للعملية القادمة!

كان الطهبوب قد وصف لي نقطة في كفر لبد سيأتيني برهوش إليها.

وصلت كفر لبد منتظرًا في نقطة اللقاء، مرت قرابة نصف ساعة حتى حضر برهوش إلي بالملامح التي أخبرني عنها الطهبوب، توجه بي برهوش إلى مرآب سيارات مغلق ومعزول لا يحوي إلا سيارة واحدة بيضاء اللون من نوع "مرسيدس" بلوحات أرقام صهيونية، كانت مهمتي تقضي بتحويل السيارة البيضاء إلى "سيارة موت"، سيارة مفخخة بالعبوات.

بدأت العمل وحدي وأحيانًا يأتي برهوش لمساعدتي! ستة أيام بلياليهن عملٌ مكثف لا ينقطع إلا لصلاة أو لطعام أو غلبة نوم!

تم تجهيز العبوات وباشرت بالخطوة الثانية في تكديس العبوات داخل السيارة وربطها جميعًا في دائرة كهربائية واحدة، وأعددت الدائرة لتكون جاهزة للتفجير من خلال "مؤقت".

أخبرت برهوش بأن سيارته أمست جاهزة ويجب عليه الآن أن يملأ خزان الوقود فيها، ركبت مع برهوش السيارة متوجهين بها إلى محطة محروقات، ملأنا الخزان بالوقود ومن ثم ذهبنا لملاقاة شخص يعرفه برهوش!

عند لقائنا ذاك الشخص، طلب مني برهوش أن أُعلم صاحبه كيفية تشغيل "المؤقت"، لبيّت طلبه وقمت بذلك على أكمل وجه شارحًا له كل تفاصيل التشغيل والأمان، ومن ثم خرجت أنا وبرهوش، وابتعدت السيارة المفخخة عنا يقودها صاحب برهوش الذي لم أعلم له اسمًا.

عاد برهوش إلى بلدته بعد أن وفر لي سيارة أجرة تنقلني إلى مخيم طولكرم حيث الطهبوب وصديقه أحمد!

في مخيم طولكرم، بدأت تنهال عليّ طلبات الطهبوب وأحمد أبو ساري لصناعة العبوات، واحدة منها كانت من أنبوبة غاز الطهي لتكون من نصيب أمين بشارات الذي حضر لنقلها إلى بلدة طمون مسقط رأسه.

تحول بيت أبو ساري في مخيم طولكرم إلى بيت مطاردين كقرينه في البلدة القديمة بنابلس، ليله اقتحام وصبحه منام، والمتاع خفيف فقط عدد التصنيع والمواد المتفجرة والتي تعبأ في عبواتها أولًا بأول، إخلاء في الليل ومصنع في النهار، وأحيانًا إجلاء طوارئ إن سمع هدير طائراتٍ في الأجواء أو وصلتنا أنباء عن تسلل قوات مستعربين صهاينة لمكانٍ قريب.

أصبح البيت الذي يؤوينا خطرًا جدًا علينا مكشوفًا بشكل واضح لأي متخابرٍ يعمل مع مخابرات العدو، يتردد إليه المطاردون من كل فجٍ عميق.

ذات يومٍ بلغ الطهبوب نية متخابر مع مخابرات العدو التوبة، وأن هذا المتخابر مستعد لتنفيذ عملية استشهادية لتأكيد توبته.

حدثني الطهبوب بأمر المتخابر ذاك، بدأت الفكرة ترد الأدمغة في أن نتبنى نحن أمر الإعداد لتلك العملية الاستشهادية التي ينوي صاحب التوبة تنفيذها.

صحيح أن العملية الاستشهادية مع متخابر تائب مغامرة كبيرة، وقد تكون غبية في نظر الكثير، تصديق نوايا متخابر شيء يشبه تصديق نبوءة مسيلمة الكذاب، وقد يكون القصد من الانجرار وراء ذاك المتخابر هو طعم لأجل اغتيالي مع الطهبوب.

جلست مع الطهبوب، أخبرته أنه لا مانع لدي بأن أعد حزامًا ناسفًا لذلك المتخابر الذي إن نجح بأداء العملية فسوف يصادق شعبٌ كاملٌ على توبته! وإن صدق الله فسيصدقه! بدأت إعداد الحزام الناسف دون أن يعلم المتخابر التائب أنني والطهبوب بصدد تبني ما استعد لأجله.

أخبرت الطهبوب بأن الحزام أمسى جاهزًا، وأن البيت الذي سنصور فيه وصية ذاك المتخابر سيكون بيت أبو ساري المكشوف للعدو أصلًا بأنه مركز اجتماعٍ وتصنيع لنا، واشترط عليَّ الطهبوب بأن لا أشارك أي مخلوقٍ بشري في أي ركن من أركان العملية الخاصة بذاك المتخابر.

تعامل المتخابر سيكون فقط مع شخصين مطلوبين لرصاص العدو ومخابراته لا شيء يخشيانه إطلاقًا، وما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ.

أحضر الطهبوب ذاك المتخابر إلى بيت أبو ساري، كنت قد جهزت غرفة لتصوير وصية "المتخابر التائب" الذي أخبره الطهبوب بعلمه إمكانية دخول متخابر مناطق العدو الصهيوني، لذلك هو من سيتولى شأن توصيل نفسه بنفسه لمكان يختاره هو لتفجير حزامه بنفسه طالما كان الهدف بين الأعداء الصهاينة، صورنا الوصية وأعطينا "التائب" حزامه الناسف، علمته كيفية اللبس والاستخدام، وقدّم له الطهبوب مبلغًا من المال ليتمكن به من الوصول لمكان العملية الذي سيختاره ويحدد موعده!

ودعت الطهبوب والمتخابر "التائب" على أمل أن تصدق نيته في تنفيذ العملية التي تظاهر باستعجاله لها!

كان الاتفاق مع الطهبوب أن نغادر طولكرم مباشرة فور مغادرة المتخابر لنا، وكذلك فعلنا حتى لا نقع في فخ المخابرات الصهيونية بعيد تجنيدنا لمتخابر معهم! عدنا لنابلس وكان بيت المطاردين في البلدة القديمة قد أُخلي جزئيًا بعد اقتحام القوات الصهيونية له بشكل مكثف وشبه يومي مما اضطر أصحابه إلى هجره والبحث عن بديلٍ له، وكان بديلهم في أن استأجروا شقة في تسوية أرضية لأحد البنايات السكنية بمنطقة رفيديا، وإليها توجهنا أنا والطهبوب.

رامي أبو بكر، مهند أبو عيشة، أنس شريتح، أحمد بسيسي، كلهم كانوا متواجدين في الشقة هناك، تلك الشقة التي تعود ملكيتها لامرأة

تكنى بأم علي، حتى صار "سكن أم علي" الاسم المتداول بين المجاهدين للتعريف بمكان تواجدهم فيه في أحضان سكن أم علي، أنحتُ والطهبوب مكانًا، ولبينا رجاء جسدينا في الراحة فسير الأقدام استوجب المنام!

بعد أيام توجه الطهبوب إلى مخيم بلاطة قاصدًا تاجر سلاح فيه، وبعد أن أكدت له أن ذاك التاجر همه المال فقط عاد الطهبوب من مخيم بلاطة إلى سكن أم علي ومعه صاروخ ضد المدرعات من نوع "لاو" كان قد اشتراه من تاجر السلاح هناك.

أعجب رامي أبو بكر بالصاروخ الذي يعتبر نادرًا بالنسبة لنا، وأصر رامي أبو بكر أن يكون هو صاحب التجربة الأولى في إطلاق الـ "لاو"، وما كان من الطهبوب إلا أن عهد رمي الصاروخ لرامي!

بدأ رامي أبو بكر البحث عن هدفٍ لصاروخه حتى جاء إلينا في سكن أم علي مخبرًا أنه عثر على هدفٍ مناسب لاستخدام الصاروخ.

كان الهدف الذي قصده رامي أبو بكر قريبًا من مسقط رأسه في منطقة الجنيد والتي كان في أحضانها ساحة قد بدأ فيها مؤخرًا مشروع لإنشاء حرم جامعي عطله اجتياح الصهاينة للضفة، وحُوّلَ الحرم الجامعي المرتقب إلى ثكنة عسكرية للآليات الصهيونية، يقضي كمين رامي أبو بكر بأن يتسلل إلى أحد التلال المقابلة لموقع الآليات في تلك الثكنة ومن ثم استخدام الصاروخ ضد واحدة من الآليات تلك!

خرج أمين بشارات بصحبة رامي أبو بكر لإنجاز المهمة، وما هي إلا ساعات حتى كنا خلالها في سكن أم علي نترقب سماع دوي انفجار

الصاروخ في الآلية الصهيونية وإذا برامي أبو بكر وأمين يدخلان من الباب، سألناهما عن سبب عودتهما دون إنجاز فأخبرنا رامي أبو بكر أن الصاروخ لم ينطلق، وأنه حاول مجتهدًا أن يستخدمه لكن دون فائدة!

ذهبت إلى رامي أبو بكر وأخذت منه الصاروخ، بدأت أتفقد تفاصيله كان على أحد جوانبه بعض النصوص المكتوبة بالعبرية، وطلبت من أنس شريتح ترجمتها فهو ملّم بالعبرية ولكن الترجمة لم تفد شيئًا! فالنصوص تحذيرية فقط!

توجهت إلى المجاهدين أن يوكلوني أمر تحويل الصاروخ لعبوة ناسفة فرفضوا الفكرة، وجدد رامي أبو بكر طلبه في فرصة جديدة لاستخدام الصاروخ، وأخبر عن نفسه أنه سيسأل من كان به خبيرًا! حتى يتعلم منه كيفية الاستخدام، عدة أيام وعاد رامي أبو بكر ليأخذ الصاروخ ويطلب من أحدنا مرافقته للكمين الذي سيستخدم فيه صاروخه، فلقد صرّح لنا أنه تلقى من بعض معارفه معلوماتٍ عن الـ "لاو"، وشرحوا له كيف يكون استخدامه وإطلاقه!

برزت أنا وأخبرته بأنني لا أمانع في الخروج معه، ومن ثم لحق بي مهند أبو عيشة طالبًا من رامي أبو بكر أن يكون الموثق لعملية إطلاق الصاروخ الأول من هذا النوع ضد الآليات الصهيونية.

اصطحبني رامي أبو بكر وثالثنا مهند أبو عيشة إلى جنيد، كنت أحمل بندقية (M16) وأبو عيشه يحمل الكاميرا، أما رامي أبو بكر فيحمل بندقية (M16) إضافة إلى القاذف الذي ابتلع صاروخ الـ "لاو" في جوفه!

كانت خطة الكمين هذه المرة تقضي بأن ننتظر ثلاثتنا خروج أي آلية عسكرية من الثكنة الصهيونية، ومن ثم يقوم رامي أبو بكر بإطلاق صاروخه وبعده نخرج أنا وإياه للاشتباك مع أي شخص يخرج حيًا من تلك الآلية الحصينة! كل ذلك سيكون موثقًا بالطبع من خلال كاميرا مهند التي ستعد عدستها حيث ما قر الصاروخ والرصاص من بنادقنا، مرت الدقائق تلتها ساعات، وقبل أن يتسلل لنفوسنا ملل الانتظار، خرجت قافلة عسكرية يتقدمها جيب، استعد رامي ليرمي رميته، ضغط زناد صاروخه لكن دون فعالية! حاول مرة أخرى ولكن لا فائدة، مرت القافلة بسلامٍ من أمامنا! وعدنا نحن لقاعدتنا سالمين مجهدين دون جهاد!

عند العودة وخلال اجتماع المجاهدين عاودت تكرار طلبي في أن أحول الصاروخ لعبوة ناسفة فلقد باءت محاولات إطلاقه بالفشل، ولكن رامي أبو بكر قاطعني كالمرة الأولى وحدث أنه سيبحث عن آخرين ليسألهم عن كيفية إطلاق هذا النوع من الصواريخ.

مرت الأيام وحضر إلى سكن "أم علي" فؤاد برهوش الذي حدثنا بأنه أمسى مطاردًا بعد كشف أمر السيارة المفخخة مع سائقها في منطقة شويكة القريبة من طولكرم، كان الطهبوب على دراية بأمر السيارة المفخخة وما حل بها، ولكنه آثر أن يخفي شأن مصادرتها واعتقال المسؤول عن إدخالها للكيان عني حيث علم الطهبوب أن هناك خرقًا أمنيًا نتج بفعل الاتصالات غير المسؤولة بين أقطاب عملية توصيل السيارة لقلب الكيان الصهيوني، ناهيك أن غالبية الاتصالات كانت ترد من أسرى في سجون العدو حيث رقابة المخابرات الصهيونية تَعدُ الأنفاس الصادرة والواردة لكل أسير!

نكسة جديدة قرابة الـ 400 كيلو غرام من المواد المتفجرة والمواد المشتعلة التي كدست في السيارة البيضاء ذهبت مع الريح!

عاودت انخراطي بالحديث الدائر بين المجاهدين حيث طُلب مني أن أبدأ مع برهوش دورة مكثفة لتعليمه صناعة المتفجراتِ وإعداد العبوات، واستجبت للطلب دون أي نقاش تاركًا موعد المباشرة في الدورة للتقادير الإلهية.

بدأت دورتي في تعليم برهوش صناعة المواد المتفجرة، وخلال البدايات معه اقتحم فصلي للتعليم رامي أبو بكر طالبًا مني أن أخرج معه ليلًا لعملية إطلاق صاروخ "اللاو" مؤكدًا لي أنه في هذه المرة قد استفسر من عقيد كبير في السلطة الفلسطينية عن الكيفية التي يطلق بها صاروخ "اللاو"، وكنت مشغولًا في تعليم برهوش وإنجاز طلبات المجاهدين من عبوات ومواد متفجرة وصواعق مقدرًا أن مرافقتي لرامي أبو بكر قد تكون مضيعة للوقت كسابق التجارب التي خاضها مع صاروخه!

لم أوافق على الخروج مع رامي أبو بكر، أخبرته بانشغالي، فور رفضي لمشاركة عمليته ترجى برهوش رامي أبو بكر أن يكون بديلًا عني في كمين الليل.

بعد الإفطار الرمضاني في "سكن أم علي" غادر رامي أبو بكر وبرهوش السكن، وأخذ كلٌ منهما بندقية (M16) إضافة إلى صاروخ "اللاو" الذي بقي في أحضان رامي أبو بكر، وتوجها بسيارة استأجرها الأخير إلى منطقة جنيد، وهناك أعدا خطة عاجلة بينهما بعيد ساعات،

وخلال إعدادي لصاعق تفجيري في غرفة من "سكن أم علي" سمعت دوي انفجار، تبسمت وعجّل لساني بالحمد بعفوية وارتياح مبالغ فيه.

الحمد لله، شكلها زبطت مع رامي هالمرة.

مرت دقائق وإذا بطرقات قوية بباب السكن توجه على إثرها أنس شريتح لفتح الباب.

دخل برهوش بيننا والدماء قد ملأت ثيابه ورأسه قد شُج، وقبل أن يتكلم بكلمة سقط مغشيًا عليه، وتكلمت بندقيته بأن أطلقت رصاصة واحدة دون إذنه وبطريق الخطأ. سحبت الـ (M16) من يدي برهوش وقمت بتأمينها ووضعها جانبًا، بدأنا إيقاظ برهوش من حالة الإغماء التي كانت به حتى استيقظ.

سألنا برهوش عن ماهية الأمر؟ فأجاب بتلعثم المرضى وزعيق البكم "رامي، استشهد" وأضاف بأن الدماء التي في أسفل جسده هي دماء رامي أبو بكر التي غاص فيها.

توجهنا ببرهوش إلى أحد المشافي، وبدأنا اتصالاتنا مع الجهات المختصة لإحضار جثمان رامي أبو بكر من المنطقة التي قصفها العدو حسبما كان يعتقد برهوش.

في الصباح بعدما جاءت سيارة الإسعاف بجثمان رامي أبو بكر تبين لنا خلاف اعتقاد برهوش فقد كان استشهاد رامي أبو بكر بضغطة زناد ذاتي!، الصاروخ الذي ألّح رامي أبو بكر أن يكون مطلقه كان معدًا لأن ينفجر بمن ينوي إطلاقه!

صاروخ مفخخ تم تعطيل المواد الدافعة فيه فانفجر في ظلمة قاذفه دون أن يبصر حقيقة حامله!

استشهد المجاهد رامي أبو بكر، وبدأنا بالإعداد لإجراءات الدفن والعزاء، أما برهوش فقد آويناه في بيت لأحدِ الثُقات حتى يحين الوقت الذي يستطيع فيه برهوش استئناف عمله معنا. انتهى العزاء الذي لم أشارك فيه إلا في ساعةٍ من يومه الأول. حزنت جدًا لفقد رامي أبو بكر، كان مميزًا جدًا وعنيدًا جدًا، كان المجاهدون يمضون معظم أوقاتهم في صحبة ذوي رامي أبو بكر في بيت العزاء، أما أنا فاكتفيت بساعة واحدة، عودتُ نفسي ألا أجعلها في مواطن ترغمها أن تضعف!

قبيل مغادرتي بيت العزاء أخبرني أحمد بسيسي أنه استأجر شقة جديدة لغرض الطوارئ معطيًا إياي مفتاحها وعنوانها للاطلاع عليها.

توجهت للشقة وهناك جلست وحيدًا، أحرك أمام عيني صور من قضوا نحبهم واشتقت اللحاق بهم!

كان متاعي إلى تلك الشقة بندقية (M16) وحقيبة العدة والمواد إضافة لمسدس علي!

حلّ الليل، سمعت هدير طيرانٍ حربي، ومن ثم وصل أذني صوت آلياتٍ عسكرية صهيونية!، تلفّت يمنة ويسرة من النوافذ استطلعت الأمر خلسة، كانت الآليات في طريقها للمنطقة التي بها شقة إيوائي! إذن هي عملية تطويقٍ لي!

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: 84]، استعجلت أن أكون التالي خلف رامي أبو بكر، قلبتُ في زوايا الشقة باحثًا عن أي شيء أعد منه عبوتي فلم أجد إلا وعاء طهي "طنجرة" وإناء لغلي القهوة "ركوة"، أعددت من "الطنجرة" وبشكل سريع جدًا عبوة موجهة أما "ركوة" القهوة فحولتها إلى "كحتة".

ووضعتُ العبوة بباب الشقة لاستقبال المقتحمين ومددت سلك صاعق تفجيرها إلى حوض الاستحمام "البانيو" في حمام الشقة، وهناك بدأت أنتظر لحظة بدء الاشتباك! مرت الساعات، وتبين لي أن المستهدف من حصار تلك الآليات في المنطقة هم أناس في العمارة السكنية المجاورة للبناية التي فيها شقة إيوائي!

انسحبت الآليات الصهيونية من المكان، وانسحبت أنا إلى النوم، فلا اشتباك معي ولا مع غيري، وتم اعتقال المستهدفين دون أي مقاومة!

صباحًا حضر إلى الشقة أمين بشارات والطهبوب، ورأوا عجائب ما صنعت يداي مستطرفين أفعالي رغم الحزن الذي يسكننا جميعًا بفقد رامي أبو بكر.

فككت عبوة "الطنجرة" تلك "وركوة" القهوة، وخرجت والطهبوب عائدين لسكن أم علي لنقف هناك على أطلال الحبيب رامي أبو بكر!

غبت طويلًا عن أهلي، وصار حقًا عليَّ زيارتهم، توجهت لزيارتهم، وعشت في حضن أمي دقائق ضعف بعدما أصبت بمرض كتم العاطفة.

أمضيت مع أهلي ليلتي تلك مستيقظين جميعًا، فقط كلٌ يود أن يشبع ناظريه برؤيتي حيًا بعد كل هذا العراك وهذه المعارك.

كنت قد اتفقت مع الطهبوب أن تكون زيارتي لأهلي قصيرة، لم أصطحب فيها إلا مسدس علي.

طلع الصباح وأصرت أمي أن أحضر معها طعام الغداء، فأختي زوجة الشهيد رائد لم ترني بعد؛ فقد كانت في بيتها، وزيارتي لمنزل أهلي كانت مفاجئة ودون معرفة أي مخلوق بالأمر سوى الطهبوب.

حضرت أختي مجلس الغداء، اطمأننت عليها وعلى أطفالها، وبذلك استوجب عليّ الرحيل وخصوصًا بعد تكرار الطهبوب اتصالاته هاتفيًا بي!

خرجت من المخيم إلى مركز المدينة في نابلس، خرجت من سيارة الأجرة هناك، وبدأت سيري على الأقدام متجهًا إلى نقطة ستجمعني بالطهبوب.

خلال سيري عيناي تتقلبان لليمين والشمال للأعلى والأسفل، للوراء والأمام، أحاول اصطياد إن كان هناك متتبعٌ لي أم لا؟

خلال سيري والتفات عيني لليمين اصطدمت بحاجز بشري، حركت عيني لأرى من صاحب هذا الصدر؟ فإذا بأحد أعمام الشهيد "برهوم"! التففت عن ذاك الحاجز واجتزته دون أي تبادل لكلمة أو لنظرة، أكملت مسيري للقاء الطهبوب وإذا بعم الشهيد يلحق بي! تابعت المسير محاولًا أن أضيع خطاه في تتبعي، لكن للأسف كان محافظًا على المسافة التي بيننا!

في المقابل كان الطهبوب يستعجل لقائي! فأخبرته أن هناك مشكلة طرأت لي وأنني أعمل على حلها خلال اللحظات القادمة، حان وقت الحسم مع عم الشهيد، التفت إليه، فإذا به يحدق بحقدٍ بي، فتح سترته وأخرج منها صحيفة! وبعرضٍ بطيء بدأ يفك طيات الصحيفة مخرجًا من أحضانها سكينًا كبيرة، على الفور أخرجت المسدس من بين ثيابي.

بدأ يحرك العم السكين بيديه حتى عكس نصل السكينة أشعة الشمس في عيني، تجمهر الناس حولنا، لكن لم يكن منهم أحد يعلم من نكون! حتى مرَّ المُخَلِصْ والصديق المُخْلِص، خليل مرشود بالصدفة بالقرب من ميدان المواجهة الباردة!

حضر خليل لصفي، فأخبرته بالحادثة وخلال دقائق من المفاوضات المكوكية التي كان الوسيط بها خليل وأصدقاء له استدعاهم على عجل، غادر عم الشهيد إلى أهله وذهبت أنا إلى الطهبوب، ومضى خليل لشأنه وتفرق بذلك جمهور النزاعات.

أخبرت الطهبوب بحادثة المطاردة التي أخرتني عنه، وتوجهت معه إلى البلدة القديمة، وبلغنا منها بيت المطاردين الذي آوانا أسابيع وأيامًا وما زال يحتضن أبو رموش وأحيانًا يتردد المجاهدون عليه، وها نحن نقرُ فيه بعد طول غياب ولليلةٍ ويوم حسبما أشار لي الطهبوب!

حلّ الظلام، خرجنا من البيت، كنا أربعة لا خامس معنا، بدأنا سهرتنا بالقرب من مأوانا في حوش العطعوط، أنا، الطهبوب، أبو عيشة وأبو رموش، كان أبو رموش وأبو عيشة يتبادلان الحديث سويًا مستذكرين

الشهداء والأسرى من رفاقهما، أما أنا والطهبوب فكنا مجرد مستمعين، انتصف الليل، كنت أتوكأ على بندقية من نوع كلاشنكوف، فجأة بلغنا أن هناك اقتحامًا لجنود صهاينة للبلدة القديمة، قررنا بالإجماع أن ننقسم لفريقين يتوزع كل فريق منا في جهة مخالفة للآخر، وكان في فريقي الطهبوب.

هجرنا حوش "العطعوط"، وبدأنا مسيرنا للمجهول كالعادة، كنا ملتحمين في جدران البلدة القديمة، نمشي بحذر، خطوة تخلو من النفس ونفس يخلو من أي خطوة، الطهبوب يحمل سلاحه الشخصي الذي كان من نوع (M16)، أما أنا فأحمل كلاشينكوف إضافة لمسدس علي مخبأ تحت ثيابي.

لا تتمنوا لقاء العدو! ولكن سرعان ما تفاجأنا به في تقاطعٍ للحارات التي كان فيها الجنود يسيرون إلينا ولا يرغبون بلقائنا كما سرنا إليهم دون توقع للقائهم بهذه السرعة!

تراجع الجنود الصهاينة خطوات إلى الخلف بعدما رأوا تواجد مسلحين أمامهم، باشرتهم بإطلاق بضع طلقاتٍ عليهم وقد سبقوا في الانبطاح أرضًا.

بدأ يدور بيننا تبادل لإطلاق النار، الطهبوب وأنا في طرف وجنود العدو الثلاثة في الطرف المقابل، لكن وكالعادة بدأت التعزيزات تصل طرفهم؛ ولذلك اضطر من هم في طرفي وهو واحدٌ فقط أنا ثانيه للتراجع لحارات متأخرة في البلدة القديمة! التزمنا الحارة التي لم تصِلها قوات العدو حتى أشرقت الشمس بصبحها، وتأكدنا من نشور الناس في البلدة القديمة أن الصهاينة قد انجلوا منها.

رغم أنها ليلة عنيفة إلا أنها كانت أقل وقعًا علينا من ليلة استشهاد رامي أبو بكر.

عدنا أنا والطهبوب للقاء الفريق الثاني، فوجدناهما قد سبقانا لباب البيت في حوش العطعوط، اطمأننا عليهم وغادرنا البلدة بعدما أخذنا من أبو رموش بعض العدد والأدوات والمواد التي ملأت بها حقيبة لي!

استقرت بنا أقدامنا إلى حيث الشقة السكنية التي استأجرها أحمد بسيسي مؤخرًا، ألقينا متاعنا في أرضها، وانطلقنا منها للقاء أحد تجار السلاح، ولكن هذه المرة لشراء مواد أولية تستخدم في صناعة المتفجرات!

خلال خروجنا من نقطة الالتقاء مع تاجر السلاح ذاك وبعد أن خرجنا من عنده حاملين لما اشتريناه من عنده، التقيت بشابٍ من رفاق علي الذي شاركونا أحداث الاجتياح في مخيم عسكر، توجه إلي ذاك الشاب بعدما صرخ باسمي، وقفت للقائه، وصلني وطلب إذنًا من الطهبوب أن يتحدث معي على انفراد، انزويت معه مذكرًا إياي باسمه الذي لم أكن لأنساه "ياسر أبو حبيس"، أخبرني ياسر بأنه أنشأ مجموعة عسكرية مؤخرًا مع رفاقٍ له، وأنه يحسن إعداد بعض العبوات، ولكنه يجهل صناعة العبوات الموجهة.

لم يكن بوسعي أن أشرح له كيفية صناعة هذا النوع من العبوات، فأنا وإياه نتوسط منطقة مفتوحة بين المارة، بادرت إليه وطلبت منه رقم هاتفه مخبرًا أنني سأعد له عبوة موجهة تكون تحت تصرفه، وسأعمل على أن أحدد له موعدًا لأعلمه كيفية صناعتها عن قريب.

شكرني ياسر وعاد إلى وجهته، ومضيت أنا والطهبوب بمشترياتنا إلى الشقة التي تركنا بها متاعنا صباحًا!

وصلنا الشقة وآوينا إلى النوم نبتغي راحة لجسدين قلما يحظيان بفرصة نومٍ هانئ.

استيقظت والطهبوب ليلًا، وبدأنا بقضاء ما علينا من ديونٍ في الصلاة، ومن ثم غادرني الطهبوب لإحضار الطعام وبدأت أنا بإعداد المادة المتفجرة من سماد اليوريا بما عدنا به من مشتريات.

انتهينا من الطعام وحضر أمين بشارات ليكون ثالثًا بيننا، أخبرت الطهبوب بشأن ياسر، ولم يمانع في أن أقدم له المساعدة، أما شأن تعليمه فعارض الطهبوب عليه لانشغالنا المستمر!

ساعدني أمين في إعداد العبوة الموجهة، وبعدما أنهينا شأنها طلبت من أمين وضعها في نقطة ميته سيأخذها من هناك ياسر أبو حبيس.

اتصلت بياسر ورمزت له بالمكان الذي سيلبي حاجته منه.

بعيد ما تأكدنا أن "ياسر" أخذ بضاعته، طلب مني الطهبوب أن أجهز حقيبتين مفخختين بشكلٍ عاجل وتسليمهما إلى نشطاء من كتائب شهداء الأقصى!

بدأت تنفيذ ما طلب مني، أنهيت إعداد الحقيبتين خلال يومين من العمل، في اليوم الثالث ذهبت لتسليمهما في منطقة دوار الشهداء بمركز المدينة، وبعد عملية التسليم عدت إلى الشقة مجددًا. لم يكن أمر تواصلنا

وتنقلنا من مكان لآخر حتى لو قصرت المسافة أمرًا سهلًا أو بالسلاسة التي يعيشها الناس، إنك إنسان تحاول أن تؤهل حواسك الخمس لاستقبال أي ذبذبات خطر تحيط منطقة تواجدك.

أما الهواتف النقالة فعلى الدوام يتم تغييرها أو تغيير شرائح أرقامها مما يستنزف المال دون مقابل والمكالمات الهاتفية منها قليلة فعندما نضطر مرغمين أن توضع فيها حاجاتنا من الطرف الآخر تكون كلماتنا محدودة ومرمزة بالقدر الذي يلقى تجاوبًا من ذاك الطرف، ولابد أن تسوقك الأقدار للاتصال مع أصحاب العقول المتواضعة التي ترغمك لمسلك خاطئ تتخطى عنده أي حدٍ أمني كنت قد أحطت عقلك به!

في الشقة أخبرني الطهبوب بأن دوري في المهمة القادمة سيكون تجهيز سيارتين مفخختين، ولكن الأمر سيتوجب إنهاء الطهبوب لبعض الالتزامات التي فرضها على نفسه قبل بدئنا في المهمة الجديدة!

اقتضت التزامات الطهبوب خروجنا من مدينة نابلس بعدما أعددنا العدد اللازمة لمهمتنا المستقبلية.

ذهبنا معًا إلى بلدة قباطية حيث التقينا هناك بمجاهد من أصدقاء الطهبوب، هناك توجهنا إلى بيت من بيوت الأهالي في قباطية، وانعزلنا ثلاثتنا في غرفة من ذاك البيت.

طلب منا المجاهد أن نعد له عبوتين ناسفتين قبل خروجنا من ضيافته، فنفذنا طلبه وتأخرنا في محطتنا تلك مدة يومين، ومن ثم ودعنا المجاهد ووجهتنا بلدة صيدا.

في صيدا عاودنا لقاء زاهر ورائد و"الحصان"، خلال ذاك اللقاء أعطينا "الحصان" كلاشينكوف وثمانية مخازن ذخيرة بعد أن أخذنا منه بندقية (M16)، ثم بدأت أنا مع زاهر دورة سريعة أعلمه فيها كيفية إعداد العبوات الموجهة منهيًا دورتي معه بأن قدمت له بعض المواد المتفجرة وبعضًا من العدد التي حملتها في حقيبتي، وكان ذلك كله خلال صحبتنا لمجاهدي صيدا لأيامٍ أربعة متواصلة أمضيناها معهم بين الجبال ليلًا وفي أحضان البيوت نهارًا، وخلال تلك الأيام الأربعة وردني اتصال من إبراهيم سلامة طالبًا مني أن أزوده بحقيبتين فلديه طالبان سيدخلان المدرسة هذه الأيام، ووضع والدهما المادي سيء جدًا، أخبرت إبراهيم أنني حاليًا منشغل، ولكن سأحاول تأمين احتياجاتهم في أقرب فرصة ممكنة!

حدثت الطهبوب باتصال إبراهيم وما طلبه مني من حقائب مفخخة ينوي الإعداد لعملية استشهادية مزدوجة بها!

رد الطهبوب أنه لا مانع لديه في إنجاز طلب إبراهيم، ولكن بعد إتمام ما خرجنا لأجله من نابلس!

ودعنا صيدا نهار اليوم الخامس من زيارتنا، وقادني الطهبوب معه لزيارة أهله في بلدة شويكة، وبعد ساعةٍ من الزيارة خرج الطهبوب إلى أحد البنايات في حي من أحياء طولكرم.

في البناية تلك شقة استأجرها لنا صديق للطهبوب كان ينتظرنا بباب البناية التي كان توصيفها بأنها مناسبة لأمثالنا فهي سكنية وتجارية، الطابق

الأرضي منها عبارة عن مخازن ومحال، والطابقان الأول والثاني عبارة عن مكتب وشركات، أما الطابقان الآخران فبهما أربع شقق سكنية، واحدةٌ منها هي الشقة التي ستؤون هذه الليلة والليلة التي بعدها حسبما قرر الطهبوب.

كان صديق الطهبوب ذاك كريمًا معنا فقد أحضر لنا أكياس الطعام، وجهز لنا داخل الشقة فراش نوم جديدًا ومميزًا يحررنا من البرد الذي استعمر عظامنا في ليل جبال صيدا، ناهيك أننا أصلًا في فصل الشتاء والسماء تفتح صنابير أمطارها بين الساعة والأخرى، أما الريح فهي صرصرٌ عاتية! إذا أقلعت السماء غضبت الريح وتحركت لتحرك من يضعف أمامها.

استودعنا صديق الطهبوب شقته طالبًا أن لا نستخدم الإضاءة فيها حتى لا نثير شكوك الجيران أو المارة بأن هناك نزلاء في الشقة، ودخل الطهبوب للاستحمام ومع خروجه دخلت أنا، وبعد خروجي من الحمام صلينا المغرب في جماعة، فرغنا من الصلاة، بدأت على الفور إخراج عدتي من الحقيبة وباشرت العمل في إعداد صواعق التفجير التي سنستخدمها في العبوات الناسفة التي سنكدسها في السيارتين المفخختين اللتين جئنا لتجهيزهما في طولكرم.

خلال عملي كان الطهبوب منشغلًا في مراجعة الرسائل التي كانت ترد أرقام شرائح الاتصال غير المفعلة والتي لا يعرفها إلا المجاهدون العاملون معه والموزعون في شمال الضفة ككل.

اتصل الطهبوب بصديق آخر له من سكان المناطق المجاورة للمبنى الذي يحوي شقتنا، وبعد تبادل أسئلة الطمأنينة الكلاسيكية رمّز الطهبوب لصديقه أنه متواجد بالقرب منه وبين له رغبةً جامحة باللقاء العاجل والفوري.

أبلغت الطهبوب بضرورة الابتعاد عن استخدام الهاتف النقال في هذه الظروف، وبادرني بأننا لن نطيل البقاء في هذه الشقة، فلربما ستكون مغادرتنا لها مساء الغد، فلا مدعاة للقلق!

دقائق مرت أذّن العشاء بعدها، وخلالها وصل صديق الطهبوب إلى شارع تطل شقتنا عليه، أرسلني الطهبوب لاصطحاب صديقه إليه، وخلال نقلي له إلى مدخل البناية لاحظت أن هناك عيونًا تتبعنا، ولكن لا وجود لأصحابها، التفت برأسي ولم أبصر أحدًا، ولكن قلبي ذو بصيرة؟!

جلس الطهبوب إلى صاحبه واختليت أنا مجددًا مع عدتي فليس هناك داعٍ للقلق ففي الغد سنغادر هذه الشقة حسبما صرح الطهبوب!

غادر صديق الطهبوب الشقة، وعاد الطهبوب لمجلسي الذي كنت قد أنهيت فيه إعداد الصواعق، وباشرت إعدادي لدوائر إلكترونية ستلزم هي الأخرى في إتمام مهمتي بشكل مميز.

اكتفيتُ من منجزات هذه الليلة وتوافقت مع الطهبوب أن تؤخر صلاة العشاء إلى ما بعد العشاء، فأكياس الطعام ما زالت في انتظار آكلي محتواها.

استلقيت على الفراش الذي كان غيابي عن مثيلٍ له قد طال كثيرًا، صرخت بالطهبوب فرحًا بما تحتي:

– صار لي زمان مش نايم ع فراش مثل هاد!؟

جاء الطهبوب إلى فراشه المقابل لي وشاركني البهجة في الفراش الجديد، مضى وقتٌ طويل علينا دون أن نشعر به، لكن بطوننا قرعت كساعة منبه تذكرنا باستحقاقها في تناول الطعام، هرعنا إلى أكياس الطعام ملبين نداء البطون التي لا تحظى بأكثر من وجبة واحدة من الطعام طيلة اليوم.

فجأة جمد فك الطهبوب قاطعًا طعامه، تفاعلت مع تفاجئه سائلًا إياه عن الأمر فأخبرني أنه يسمع صوت تقدم آليات عسكرية، ذهبت إلى نافذة من نوافذ الشقة فلم أبصر من خلالها إلا امرأة تحمل طفلها، وتركض هربًا من الأمطار الغزيرة في الخارج، إضافة إلى سيارة أجرة تعبر الشارع بشكل طبيعي.

رجعت إلى مائدة الطعام التي كان الطهبوب قد غادرها إلى نافذة أخرى، ناديته قائلًا:

– تعال بكفي تهيؤات!

لبى دعوتي فلقد تأكد هو الآخر أن لا من غريبٍ حولنا!

دقائق مرت وإذا بصوت كوابح سيارات شديد، افترق كلانا كلٌ إلى نافذة من الشقة، ناظراي يحملان لعقلي الصورة بشكل أوتوماتيكي، حافلات صغيرة سوداء اللون يخرج ركابها "المجندون" بلمح البصر، يتوزعون خلال لحظات بين البنايات المجاورة.

عدت لأخبر الطهبوب بحاصل ما رأت عيناي واستبقني لأن يخبرني أنه رأى جيبات عسكرية صهيونية في طريقها لمحيط العمارة التي نستقل إحدى شققها!

بدأت المشاعر تشتبك في باطن الأجساد! كل ما نملك من سلاح للمواجهة بندقية (M16) ومسدس علي ومخزن ذخيرة واحد فقط، رغم وجود موادٍ متفجرة بين أيدينا إلا أنه لا يصلح استخدامها دون عبواتٍ تنسف ما فيها!

حمل الطهبوب البندقية، هيأت المسدس ليكون مسدسًا للاشتباك مع القوات الصهيونية المحاصرة لنا!

أخبرت الطهبوب أن المواجهة ستكون رغم قلة الإمكانيات، فطلب مني التريث قليلًا لعل المستهدفين من هذا الحصار أناسٌ على شاكلتنا آوتهم إحدى الشقق في البنايات المحيطة بنا كما سبق وأن حدث معنا!

انتهينا من الحوار بيننا واعتكف كل واحد مستندًا إلى جدار يحمل فوقه نافذة ألسنتنا تتمتم بالقرآن وقلوبنا بين رجاء ودعاء.

14

المروحيات الصهيونية الحربية وصلت الأجواء، وأصوات الآليات تصاعد ضجيجها حتى تأكدنا من وصول دبابات وجرافات عسكرية للموقع!

تجاوزنا ساعة وأكثر ونحن بهذا الحال إلى أن بدل الله حالنا عندما سمعنا مكبرات الصوت تصرخ بصراخ جندي من قوات العدو:

"إلى كل المتواجدين داخل العمارة التي بطابقها الأرضي محلات الحاج أمين الأحمد عليكم بالخروج فورًا قبل اقتحام العمارة".

تكررت النداءات التي تحمل نفس المضمون.

سألت الطهبوب أين تقع محلات الحاج أمين الأحمد هذه؟ فأجابني إنها في الشارع المجاور لنا! قلت متهكمًا:

يعني مش إحنا المستهدفين!

ذهبت لأكمل عشائي، أما الطهبوب فرجع لمراقبة الأوضاع في الخارج من خلال النافذة، وقبل أن أضع اللقمة الخامسة في فمي إذا بانفجارٍ قوي يهز البناية ويضيء للحظات الشقة على ساكنيها السلام.

تراجع الطهبوب إلي محدثًا أن باب العمارة قد تم تفجيره، متيقنًا أننا نحن من اعتلينا إحدى الشقق فوق محلات الحاج أمين الأحمد، ومتأكدًا دون أدنى شك بأننا نحن الهدف لهذه القوات!

وجهنا سلاحينا تجاه باب الشقة ننتظر لحظة الاقتحام لنا، لكن النيران باغتتنا فالطلقات وشظاياها تدخل أسرابًا وآحادًا من النافذة، وتتوزع في أرجاء الشقة مما استدعانا للجوء إلى المطبخ والانزواء بأسفل طاولة غسل الأواني الجرانيتية (المجلى)، وكان أن جلبنا الفراش ليقينا وصول الشظايا لجسدينا!

كررت النداءات الصهيونية الجازمة بإخلاء البناية من كل قاطنيها.

أخليت العمارة تمامًا من السكان، ومضت الساعات وموجات الرصاص الصهيوني على حالها بين مدٍ وجزر تلطم شقتنا يتخللها تكرار النداءات التي كنا عندها نترجل لنطلق رصاصة أو رصاصتين خلال

النوافذ لنؤكد للمتواجدين في أرض البناية أننا لن نسلم أنفسنا، وعند كل طلقة منا نستفز رشاشات العدو الثقيلة ضد الشقة، ونحن نكرر اللجوء إلى المطبخ والمجلى فيه!

تكرر ذاك المشهد أكثر من مرة إلا أن المرة الأخيرة كانت فيها الردود أعنف؛ فلقد تم استخدام قنابل حارقة دخلت الشقة وتوزعت حممها في الأرجاء، ولكن الله سلم، فالشقة مستأجرة للتو خالية من أي غرضٍ قابل للحرق إلا المواد المتفجرة التي كنا قد أمنّاها معنا تحت "المجلى"!

طَعَّم المنادي نداءاته بتهديدٍ بقصف العمارة بصواريخ الطائرات الحربية، هرولت إلى نافذة مطلقًا ثلاث طلقاتٍ من المسدس تجاه الآليات، وعدت بسرعة نوعية إلى أحضان المجلى، وبدأ الرد الصهيوني مجددًا على إطلاقي للطلقات الأخيرة.

بقي علينا أن ننتظر صعود الجنود الصهاينة إلى الشقة، فلم يبقِ في جوف سلاحينا إلا بضع طلقات والمشهد في الخارج لا يسمح بالمجازفة بهما، فلا جنود خارج آلياتهم والآليات الموجودة عالية التصفيح دبابات وجرافات وجيبات "همر"، رصاصنا الخفيف لن يؤثر أبدًا في تصفيحهم الثقيل، بدأنا نقنع أنفسنا بضرورة التهيؤ للأسوأ، أتلفنا الهواتف النقالة وتوابعها، أما الأوراق التي كانت في متاعنا فذهب الطهبوب وأحرقها داخل دورة المياه!

المكبرات ما زالت تنوب عن العدو الصهيوني في نداءاتها التي تطالبنا بالخروج من العمارة مضيفين هذه المرة بأنهم لن يعرضوا أي جندي منهم للمواجهة المباشرة! ولن يدخل أي فرد منهم داخل العمارة.

أرسل العدو لنا نساءً وشيوخًا من ساكني العمارة لإقناعنا بتسليم أنفسنا، سمعنا بكاءهم بباب الشقة ومطالبتهم لنا بالخروج من العمارة، وتسليم أنفسنا للصهاينة أحياء!

العمارة تهتز، صوت الجرافات ينبئ بتدميرها للعمارة! استرقنا النظر للخارج فإذا بالأهالي في طريقهم إلينا مجددًا، والجرافات تخلي بطريقتها العنترية السيارات الراكنة في محيط البناية!

عاد الأهالي لباب شقتنا وبدؤوا يبثون شكواهم لنا، "هددوا بقتل زوجي، سينسفون بيوتنا، احموا أنفسكم وارحمونا، ابني مريض بين أيديهم لن يفلتوه إلا إذا سلمتم أنفسكم، أخي، زوجي، أبي، بيتي" عبارات هزت قرار الموت الذي لم نكن لنفكر للحظة من خشية الموت بعد كل هذا المشوار الجهادي الطويل!

عاد الأهالي أدراجهم بما اقتسموا فيما بينهم الدعاء لنا والدعاء علينا.

التفت إلى الطهبوب مفتتحًا الحديث:

- شو نعمل؟

رد الطهبوب عليّ بأنه وطالما لن يصعد الجنود إلينا ولن نستطيع فك الحصار أو إيذاء المحاصِرين فيجب علينا تقليص الخسائر وتجنيب الأهالي هدم العمارة وشققهم فيها، أما أمر الموت والشهادة فهو وارد وبنسبة تؤكد وقوعه بحتمية، فكم وردتنا روايات عن إعدامات تنفذ بعيد الاعتقال بدقائق لمن حالهم كحالنا.

صمتنا قليلًا، الشهادة محتمة، ولكن بامتيازات أقل نتجنب فيها ألاّ يحرم الأهالي مساكنهم.

اتفقنا على رواية ما بيننا سنستخدمها حال حقق معنا ميدانيًا قبل التصفية المؤكدة لنا.

في الخارج صوت المكبرات ما زال على هيئته يتخلله إطلاق نار تحذيري تجاه شقتنا.

طلب مني الطهبوب أن أصرخ في القوات أسفل البناية، وأخبرهم بنيتنا النزول إليهم، وكذلك فعلتُ بعدما اتجهت إلى النافذة مكررًا خلالها صرخاتي.

صدحت مكبرات الصوت بعبارات عربية منسلخة عن العرب!

اخرجوا بدون أسلحة، أبقوا السلاح في أرض الشقة عند وصولكم بوابة البناية، ارفعوا أيديكم.

في ذلك الوقت كتمت الرشاشات أنفاسها، خرجنا سويًا من الشقة، وكلٌ قد ترك سلاحه في أرضها.

وإلى أن أنهينا الدرج سويًا، استبقت أنا باب العمارة، سلّط على وجهي ضوء شديد الإنارة أجبرني على إغماض عيني، صرخ صاحب المكبر:

ارفع إيديك!

رفعت يدي ببطء شديد ولعلوٍ منخفض، شعوري تلك اللحظة كأنني ألبس نفسي بنفسي حبل المشنقة، أسوقها للتهلكة! شعور صعب لمن كان يحتسب في كل ثانيةٍ أن يتوسم بدمائه مقبلًا غير مدبر!

تمادى من خلف مكبر الصوت وطلب مني أن أخلع ملابسي ولكني لم أجبه، كرر طلبه فلم يلقَ مني تجاوبًا على الإطلاق، أطلق رصاصتين تجاه المنطقة التي أقف في أرضها وكرر طلبه، صرختُ شاهقًا بمرارة الموقف:

بديش أشلح فش معي إشي!

خضع صاحب النداءات لرغبتي، قال: "ارفع عن بطنك فقط واستدر لنرى إن لّف خصرك شيء أم لا؟

أجبته لما قال، ودرت دورة صوفيٍ يرتجي ربه رفعه للسماء السابعة، تأكد أنني خالٍ من أي شيء، طلب مني التقدم إلى مصدر الصوت فالعينان معطلتان بفعل الإضاءة الشديدة، خلال سيري لحتفي انقض علي جنديان وطرحاني أرضًا، ثم اجتمع عليّ عددٌ من الجنود وانهالوا عليَّ بالضرب ركلًا بأرجلهم وضربًا ببنادقهم إلى أن أحكموا تقييدي وتعصيب عيني، واقتادوني إلى زاوية تبعد عن مدخل العمارة، واستخدموا جثماني كأريكة لثلاثة منهم، إضافة إلى جنودٍ آخرين يصوبون بنادقهم تجاه رأسي!

سلك الطهبوب مسلكي، وصلتني ذبذبات آهاته خلال ضرب الجنود له.

حملني الجنود إلى ضابطهم بعدما تأكدوا من هويتي، كان الضابط قد

لّف نفسه بالآليات العسكرية صانعًا لذاته مربعًا أمنيًا يستطيع أن يتحدث فيه معي دون أي قلق، أخبرني أنه سيبدأ معي تحقيقًا ميدانيًا متمنيًا أن أتجاوب معه دون أن أُلجئه لاستخدام الأساليب العنيفة.

تجاوبي معه كان دون المستوى المطلوب فكل إجاباتي بالنسبة له ساذجة، لذلك اضطر إلى استخدام العنف الذي أبدعت فيه كلابهم البوليسية!

ملّ الضابط من التحقيق معي، فلا معلومة قيّمة تفوهت له بها! قادني مع جنوده إلى الشقة التي أدخلوا كلابهم لتأمينها قبلهم، فكّ العصاب عن عيني بعد دقائق، التفت حولي فإذا بكاميرات تصورني بجانب ما عثر عليه في زوايا الشقة، "راياتٌ للجهاد الإسلامي، بندقية (M16)، مسدس علي، صواعق التفجير، عدد التصنيع والمواد المتفجّرة".

عاود الجنود عقد العصاب على عيني وجروني حتى انزلقت على درج العمارة وكأنني كبشٌ عصى جزاره، حملوني إلى آلية عسكرية انطلقت بي إلى معسكرٍ صهيوني قريب من المدينة ليؤرخ في 14/ 02/ 2003م تاريخ اصطياد "الفهد" الذي وقع في فخ العدو ومخابراته!

في المعسكر أُدخلت إلى غرفة يتواجد فيها عددٌ من الضباط، أسئلة منهم دون أجوبة مقنعة مني _حسب رأيهم_.

- من أين أتيتم؟

- لماذا أتيتم؟

- ما هي نواياكم؟

- من الذي تودون لقاءه في طولكرم؟

- كيف وصلتم من نابلس إلى طولكرم؟

- من "الانتحاري القادم"؟

- أين ستكون العملية التخريبية القادمة؟

- أين يختبئ أصحابك؟

أخرجني الجنود من الغرفة بعد أن غادرها الضباط، واقتادوني إلى حفرة من طين، أُغرقت بها والمطر ينهمر عليّ بغزارة، وكلاهما تنهشني فيها من حين لآخر، جسدي يرتعش، أسناني تصطك، قلبي يناجي يا رب!

ساعاتٌ فارقت عمري وأنا في هذه الحفرة إلى أن حان الوقت الذي استوجب عليهم انتشالي من الوحل ليقتادوني بعدها بجيب عسكري إلى معسكرٍ داخل مستوطنة قدوميم.

في قدوميم، أُخرجت من الجيب العسكري لأدخل إلى مربع مسيج لا سقف له! دخل الجنود عليّ وبدأوا يركلون جثماني بين أقدامهم.

المطر ينهمر بغزارة، الركلات مستمرة، السباب يزيدُ من وجعي، لساني لا يستطيع النطق حتى بالآه، جسدي مخدرٌ تمامًا.

استمر المشهد لأكثر من ساعة، حتى أذن الله لأخرج من براثن ذاك المربع، فُك عصاب عيني ومن ثم قيد يدي، وبعد ذلك فتح باب لأدفع إليها.

تلك الغرفة كان قد سبقني إليها ثلاثة معتقلين سرعان ما أغمي عليَّ بينهم.

استيقظت مرتعشًا لا أعلم كم لبثت ساعة أو بعض ساعة، كان المعتقلون الثلاثة قد هموا بنقلي إلى فراشٍ رغم ثيابي المبللة، فُتح باب الغرفة، وأتى جنود ليحملوني في حافلة صغيرة مقيدًا ومعصوب العينين.

توقفت الحافلة التي كانت من نوع "جيمس" بعد ساعة من تحركها، وجدت نفسي أمام طبيبٍ شرع بتقليب جسدي وتشخيص حالتي الصحية.

أنهى الطبيب عمله وأعاد الجنود العصاب لعيني ليقتادوني بعدها إلى غرفة ويجلسوني على كرسي قيدوني به.

بعد ساعة من مغادرة الجنود لتلك الغرفة، حضر شخصٌ إليّ أزال عن عيني العصاب، ومن ثم جلس على مقعدٍ خلف المكتب الذي يقابل كرسيّ!

سكت قليلًا، دار بكرسيه كطفل يلهو، التفت إليّ مبتسمًا وبكل وداعة مصطنعة، قال:

أهلًا وسهلًا بالقائد البطل فهد صوالحي، أنت الآن في مركز تحقيق بتاح تكفا، وأنا مُحقق الشاباك "الإسرائيلي" الموكل بك، طال انتظاري لك! صدقًا لا أعرف من أين أبدأ معك التحقيق من الحجارة، أم من المليشيات المسلحة، أم مساعداتك لكتائب شهداء الأقصى، أم النذير يا مؤسس، أم الجهاد الإسلامي! سيكون مشوارنا طويلًا جدًا، من خلال الاعترافات الثابتة عليك فأنت مدانٌ بجرائم تضمن لك الحكم المؤبد مدى الحياة في

ضيافة سجون دولة "إسرائيل"، لن أبدأ التحقيق معك الآن! الآن سوف أطلب من السجانين اصطحابك إلى الحمام، تستحم وتبدل ملابسك وتأكل ومن ثم سنبدأ.

أخرجت من غرفة مكتب التحقيق إلى زنزانة الاستحمام، استحممت ومن ثم نُقلتُ إلى زنزانة بمقاس فراش لشخص واحد فقط، قُدم لي الطعام فيها، وتركت حبيسها لساعةٍ تقريبًا.

حضر السجان، قيّد يدي بهدوء، وضع قطعة بلاستيكية على عيني حجبت إبصارهما.

بدأ يحرك فيَّ السجان بين طرقات مركز تحقيق بتاح تكفا، جلست على الكرسي الذي أعيد تثبيت قيدي فيه، رحلت القطعة البلاستيكية عن رأسي!

دخل لمكتب التحقيق المحقق الذي وكلَّ أمري، جلس أمامي خلف مكتبه، فتح جهاز الحاسوب الخاص به!

تجاهل المحقق وجودي لدقائق طوال، كلما حاولت أن أحظى بغفوة يأتي هو بإصدار ضجيج يتوجب يقظتي أمامه!

صرخ المحقق بي قائلًا:

– فهد أنت الآن في ضيافة الشاباك الصهيوني، يجب أن تبقى قويًا، أنت في أول أيام التحقيق معك! أين البطولة والرجولة وعشق الموت يا رجل؟!، أين المطالب بحرية وطنه؟!

قاطعته قائلًا:

اختصر، هات أعطيني شو عندك؟

بكل برودة أعصاب مبتذلة قال المحقق:

فهد يا حبيبي، سأعطيك رؤوس أقلام في كل جلسة لتحكي لي تفاصيل كل حكاية منها، فأنا أعشق التفاصيل كالنساء، أخبرتك أن ملفك مكتمل لدينا، وبقي عليك أنت أن تقدم لنا مساعدةٌ أخيرة نتجنب فيها مزيدًا من الضحايا الأبرياء من شعب "إسرائيل".

بالكاد أستطيع أخذ أنفاسي، هو متأكدٌ تمامًا بأنني مرهق حد الموت، ولكنني حاولت أن استنطق نفسي ردًا عليه بما يلهيه عن محاورتي باستطالة.

احكي شو بدك؟

بدأ المحقق استعراض ما لديه من اعترافاتٍ عليّ كنت أتوقعها ومعلوماتٍ تفاجأت بمعرفتها، لقد قتل ضابطٌ صهيوني في عملية علاء الاستشهادية، وأصيب رجال شرطة في عملية محمد الأصفر، أما إياد ومصطفى فلقد أصابا بشظايا جسديهما الطاهرين أعدادًا من حراس العدو على الحاجز العسكري، بينما عملية تل أبيب المزدوجة قد قتل فيها وأصيب عشرات الجنود والمستوطنين من شعب الله المختار حسبما وصفهم المحقق.

إجاباتي على أسئلة المحقق لم تكن إلا لتقييد القضايا ضد من استشهد فقط، ومحاولة تخفيف وقع الاعترافات السابقة على المطاردين في الخارج.

اكتفى معي المحقق ذاك اليوم، نادى السجان ليردني لزنزانتي، وقبل أن غادر وضع يده على كتفي قائلًا:

إنك لا تتعاون معي كما يجب، سترضخ للاعتراف بكل ما كان وما سيكون قريبًا، الآن انزل إلى زنزانتك، كل واشرب ونم، وغدًا ألقاك.

أربعون يومًا وأنا بين الزنازين ومكتب التحقيق، يدخل عليّ أحيانًا بعض المعتقلين ولساعاتٍ محدودة، لم أتكلم مع أحدٍ منهم إطلاقًا، لساني قد خرسَ تمامًا في حضورهم فلقد لاحظت الشبهة في تعاملهم.

صبيحة اليوم الواحد والأربعين جلست أمام المحقق وكالعادة مقيدًا بكرسيٍ حديديٍ يأكل لحم مؤخرة جليسه.

تحدث المحقق بأسلوبٍ يدل على عدم رضاه عن أدائي في التحقيق:

يبدو أنك عنيدٌ جدًا وذكيٌ جدًا بالقدر الذي جعلك تتنبأ بأن جزءًا ممن دخلوا زنزانتك ليسوا بمعتقلين مثلك، أنت فطن وذو فراسة استطعت استخراج العصافير من الصراصير أمثالك!

لاحظ غضبي بما قال، وقبل أن أهم برده، واصل حديثه:

فهد، أعتذر منك لكنني كنت حريصًا على مساعدتك، ستنقل اليوم إلى مركز تحقيق لن تنال فيه ظروفًا رحيمة كالتي نلتها في بوابة الأمل "بتاح تكفا".

نقلت بواسطة حافلة "جيمس" إلى مركز تحقيق جديد، وبنفس الطريقة التي أدخلت بها بتاح تكفا، دخلت إلى مكتب التحقيق في المركز الجديد، سألت سجانًا استلمني من جنود الحافلة عن مكان تواجدي، فأخبرني أنني في مركز تحقيق "كيشون، الجلمة".

في الجلمة تم تصويري من قبل أحد ضباط التحقيق الذين كان يسهل تمييزهم بأنهم الوحيدون الذين يلبسون ثيابًا مدنية داخل مراكز التحقيق!

تم زجّي في زنزانة، مرت الساعات لحقتها الأيام، ثقتي بأن الله يكوّر الليل والنهار خارج هذا المركز، لكن لا علامات تدل على أنه هناك حياة في الخارج إلا عند دخول وجبة الطعام إليّ ولثلاث مراتٍ يوميًا هي وجبة واحدة قسمت على ثلاث مراحل حتى يُتقى فيها الشبع أو الخمول، أما عن الصلاة فصلها كيف شئت ومتى شئت والله غفورٌ رحيم، فهو يرى أنك لا تلحظ الوقت لتكون الصلاة عليك كتابًا موقوتا!

أمضيت في تلك الزنزانة ثلاثة وعشرين يومًا حتى أخرجت منها مقيدًا لأول مرة إلى واحدٍ من مكاتب التحقيق الذي سبقني إليه المحقق الذي صورني خلال استقبالي في الجلمة.

جلست على الكرسي الذي لا يختلف إطلاقًا عن نظيرة في "بتاح تكفا"، أسلوب وطريقة التحقيق هو ذاته الذي عايشته أربعين يومًا في مركز التحقيق الأول!

بدأ المحقق بطرح ما لديه من اتهامات ضدي، والتي كشفت لي بعضًا مما كنت قد تناسيت السؤال عن مصيره!

المتخابر الذي أعلن توبته بحزامٍ ناسفٍ من إعدادي قد تم اعتقاله، واعترف للشاباك الصهيوني بأني أنا والطهبوب من نقف وراء توبته!

رحت في مراجعة ذكرياتي وما تحدث به ذاك المحقق، تغيبت بفكري عن مكتب التحقيق، عدت إلى علي ومراد! إلى الأصفر وعلاء! إلى إياد ومصطفى! إلى برهوم والشقور! إلى رامي أبو بكر! كم ظلمت نفسي عندما أطعتها بأن تقبل الحل السلمي الذي جنبني موتًا مقابل موتٍ تدريجي!

قطع المحقق خلوتي مع ذاتي:

فهد، فهد أين تسرح؟ يبدو أنك تريد التهرب مجددًا من الإجابات على أسئلتي، إنك تراوغ، ستنزل الآن إلى زنزانتك ولن يتم نقلك إلى السجن إلا عند اعترافك الكامل بكل شيء وخصوصًا أين يختبئ أصحابك ومن هو الانتحاري القادم! ستذهب إلى زنزانتك الآن وعندما تريد الاعتراف لي أخبر السجان بالأمر!

ألقيت نفسي داخل الزنزانة، ما من خروج إلا لزنزانة أخرى أو للاستحمام إن عُطِف عليّ.

مرت ثمانية عشر يومًا عليّ بهذه الوضعية حتى تم استدعائي إلى مكتب ضابط في الشرطة الصهيونية، أخبرني الضابط أنه يود إفادة مني بما تحدثت به مع محققي الشاباك في كلا المركزين "الجلمة" ومن قبله "بتاح تكفا".

أعطيت لجابي الإفادة إفادته، وأُخرجت أنا إلى زنزانتي، وهناك بلغني أمرٌ بتهيئة نفسي، فحافلة "البوسطة" تنتظرني لنقلي إلى سجن الرملة!

كان سجن الرملة كما باقي سجون العدو مقسمًا لعدة أقسام في كل قسم عدة غرف، ينزل في كل غرفة أسرى ممن ينتمون لنفس الفصيل

الفلسطيني الواحد، كل غرفة تحكمها قوانين ولوائح تحدد الواجبات والحقوق لكل نزيلٍ فيها، وهناك تفاهمات أجمع عليها ممثلو الغرف تحدد منظومة العيش المشترك داخل القسم ككل!

حضر في اليوم التالي الطهبوب إلى سجن الرملة، وأدخل إلى غرفتي، واساني مجيئه لمرافقتي هذا الاعتقال الذي لم نصدق أنفسنا بعد أننا وقعنا فيه!

لم يكن بالأمر السهل شأن اعتيادي المعيشة تحت تلك اللوائح والقوانين التي رغم أنها تنظم الحياة المعيشية داخل السجن وبين الأسرى إلا أنها بنظري على الأقل تزيد من ضيق الأسر حولي!

أنا والطهبوب الآن في غرفة يحكمها نظام وُضع لأسرى الجهاد الإسلامي هم نفسهم من أعدوه! ممثلنا أميرٌ للمجاهدين ينتخب بشورى منهم وبشكل دوري.

أيامٌ قليلة على وصولنا لسجن الرملة، حلت ذكرى النكبة اتفقت مع الطهبوب أن لا نقف على العدد الذي يتكرر لثلاث مراتٍ يوميًا، ويتوجب به الوقوف لضباط السجن مقابل أن تبقى الأوضاع هادئة بين السجانين والأسرى!

حلّ موعد عدنا المسائي، دخل ضابط السجن الغرفة، لم نقف لا أنا ولا الطهبوب رغم أن باقي المجاهدين من نزلاء غرفتنا قد وقفوا فلم يكن الاتفاق إلا ثنائيًا بيني وبين الطهبوب، توجه أحد الضباط بالسؤال لنا عن سبب تمردنا عن الوقوف فبادر الطهبوب:

اليوم يوم نكبتنا، احنا محتجين!

ومن ثم أتبعته أنا بقول:

احنا بنوقفش إلا لربنا!

خرج الضباط من غرفتنا بعد أن نكسوا رؤوسهم لنا، وخلال دقائق أتى السجانون لإخراجي أنا والطهبوب إلى زنازين السجن.

نقلت أنا والطهبوب إلى الزنازين، وهناك أمضينا عقوبة تقضي بعزلنا لواحدٍ وعشرين يومًا عن باقي الأسرى، وبعدما أنهينا عقوبتنا تم نقلنا من الزنازين إلى قسم مغايرٍ للقسم الذي خرجنا منه في السجن ذاته.

لم تطل إقامتي في القسم الجديد، فبعد ثلاثة أيام من مبيتي فيه عثر في غرفتي على خريطة مرسومة يدويًا للسجن، وتم اتهامي مباشرة بمحاولة هرب نقلت إثرها إلى زنازين السجن مجددًا، وخلال يومين تمت إدانتي بمحاولة هرب، ومنحت بعيد تلك الإدانة لقب "سجاف" وهو لقبٌ عبري يُثقِلُ حامله بمزيدٍ من القيود خلال تنقلاته عبر "البوسطة"، أضف إلى ذلك أن "السجاف" هو بمثابة إنذارٍ دائم بأن هناك احتمالًا قائمًا على الدوام يحذر من محاولة هرب من يحمله!

أمضيت يومين في زنازين سجن الرملة، وفي اليوم الثالث تم نقلي إلى سجن شطة الذي لم يحبذ الضباط فيه استقبالي، فقرروا قمعي بعد أربعة أيامٍ من دخولي عندهم ليتم نقلي إلى قسم عزل من سجن هداريم.

15

في هداريـم كانـت الغـرف معـدة لاسـتقبال ثلاثـة أسرى فقـط لـكل منهـا، بـدأت تمـر علـيّ الأيـام والأشـهر التـي قـررت خلالهـا أن أعيـش الظـروف كيفـما كانـت حتـى ينظـر الله في أمـري.

بعـد ثمانيـة أشـهر مـن اعتقـالي، حـلّ يـوم المحكمـة، عرضـت أمـام ثلاثـة قضـاة في محكمـة سـالم العسـكرية، حـضر أبي وأمـي جلسـة المحكمـة.

بـدأ القضـاة اسـتعراض التهـم المنسـوبة إلي والتـي أدانـني الشـاباك الصهيـوني بهـا!

كان القارئُ مُستَفَزًا من كل حرفٍ يقرأه، المحامي يترجم لي كل التهم الموجهة لي!

المشهد لا يكاد يحسن وصفه، فالقضاة ذاتهم هم المدعون ضدي.

لائحة الاتهام مكونة من تسعٍ وعشرين صفحة، بعدما أنهى قراءتها القاضي نظر إليّ قائلًا:

أنت مخرب كبير ولائحة جرائمك عبارة عن كتاب كامل.

غادر القضاة المحكمة، توجه إلي المحامي، أخبرني أنه عقد صفقة مع الشاباك الصهيوني تنص أن أقبل بالحكم في هذه الجلسة دون طلبٍ لأي تأجيل، في المقابل تخفض أحكام خمسة أسرى ممن هم دون قضايا المؤبد، الذي أؤكد لي بأنني سأكون محكومه!

رجع القضاة لقاعة المحكمة، تكلم كل قاضٍ بما لديه من حديث، والمحامي يترجم لي مقالاتهم.

توجه لي أحد القضاة سائلًا إن كنت أرغب بقول شيء قبل إصدار الحكم بحقي، فعبّرت له عن رغبتي بالحديث، وترجلت بالقول والمترجم العسكري ينقل للقضاة كلماتي بحِرَفية:

أنا بأفتخر وبأعتز بكل الذي قمت فيه، هذا شرفٌ وفخر لي، أنا أشعر بالخجل لأني أحاكم على عدد قليل من القتلى أمامكم!

غضب القضاة من كلماتي تلك، وبدأوا يتبادلون عبارات الإساءة لي، والمحامي يترجم!

"مجرم، مصاص دماء، مسخ، حقير، قذر، نجس"، وغيرها من الكلمات الثقيلة على النفس.

هدأ القضاة قليلًا مصدرين بالإجماع قرارًا يقضي بأن أمضي سبعة مؤبدات وخمسين سنة داخل سجونهم!

رجعت إلى سجن هداريم عبر "البوسطة"، وفي طريق العودة أضحك مع ذاتي هل سأمضي سبع مؤبدات داخل السجن، ومن ثم أبدأ عدًا لخمسين سنة من عمري حتى أتحرر!

سبع مؤبدات هل هناك فرق بين المؤبد الواحد والمؤبدات السبع، أم أنها من باب التأكيد على أنه لو أعطي المعتقل منا أرواحًا سبعًا فيجب أن يبقى حبيس السجون الصهيونية!؟

إذن هذا العدو الغاشم يَدَّعي التحضر، يريد للفهد أن يعيش عمره كله في أقفاصها إلى أن يتوفاه الله فيها! ولكن حسبي الله ونعم الوكيل!

الأخبار تتحدث عن وجود ثلاثة جنود صهاينة وضابط في قبضة حزب الله اللبناني، احتمالية إبرام صفقة تبادل للأسرى واردة في أي لحظة!

وصلت إلى سجن هداريم، كان غالبية نزلاء القسم ممن هم على حالي! إما أنهم حوكموا بالمؤبد أو ينتظر بعض منهم حكمًا بعشرات السنين.

أكملت في سجن هداريم سنتين ونصف السنة لأنقل بعدها إلى سجنٍ في بئر السبع وإلى قسمٍ من أقسام سجن هوليكدار، لم تكن أيام

السجن تمر عليّ بسلامةٍ دائمًا، فأحيانًا يطل المرض ضيفًا ثقيلًا على جسدي، يُجبَر السجانون فيه على نقلي إلى المشافي المدنية وبالتأكيد طيلة فترة العلاج القيد موثوقٌ بي بأطراف السرير.

وخلال تلك الشهور الغابرة كانت ترد لي في كل يومٍ أخبارٌ تفيد باستشهاد صديق أو اعتقال آخر حتى إبراهيم سلامة فهو يجاورني في أقسام السجون وحوكم بسبع مؤبدات ولكن دون خمسين سنة!

الحقيبتان المفخختان اللتان سبق وطلب مني إعدادهما كان يود إرسال شقيقه قصي وربيع ملايشة لتنفيذ عملية استشهادية فيهما.

أما قصي فقد لجأ إلى تنفيذ عملية باقتحام مسلح ضد ثكنة عسكرية واعتقل بعيد نفاد ذخيرته، وأما ربيع فاعتقل في ذات الكمين الذي جاء باعتقال إبراهيم.

انتقلت إلى سجن جلبوع، وبعد أن مكثت فيه أشهرًا تم نقلي إلى سجن نفحة الصحراوي لأمضي فيه بضعة أشهر أيضًا حتى أخرجت منه لأقر في سجن جلبوع مجددًا.

لحقت بصفقة تبادل الأسرى بين حزب الله والعدو الصهيوني عدة صفقات أخرى منها السياسي، كنت أتأمل أن أحظى بنصيب في أن يفرج عني خلال واحدة منها! ولكن قدّر الله وما شاء فعل!

إضرابات جماعية عن الطعام، لا طعام! الماء يكفي مع قليلٍ من الملح مقابل إلزام إدارة السجون بتحسين ظروف الأسرى المعيشية!

تحررت غزة، وبعد قرابة العام تتمكن المقاومة فيها من أسر جندي صهيوني ليجدد الأمل ويبشر بصفقة تبادل جديدة! التنقلات لي ما زالت مستمرة من سجن لآخر فبعد عودتي من جلبوع قررت الإدارة هناك نقلي إلى سجن ريمون، ومن ريمون إلى سجن نفحة مجددًا.

بعد خمسة أعوام وبضعة أشهر من أسر الجندي الصهيوني، عقدت المقاومة في غزة صفقة تبادل مع العدو الصهيوني بواسطة مصر، قضت الصفقة أن تطلق المقاومة الفلسطينية الجندي الصهيوني المحتجز لديها مقابل أن يفرج العدو الصهيوني عن 1047 أسيرًا فلسطينيًا من سجونه!

تمت الصفقة، ولم أكن من الرابحين فيها، رغم أن هناك قرابة خمسمائة أسير محكومين بأحكام عالية ومنها المؤبدة قد قضت لهم صفقة التبادل بالحرية!

أي الأزمان في السجن تلك التي يعيش فيها الأسير زمنين، يلي كل واحدٍ منهما شعورٌ ينقض الآخر، لعل كل ما حييناه في السجن إن وثق بثوانيه أصبح من البلاغة أن يدعى "عصر الجنون"، زمنان في عمرٍ واحد لشخصٍ واحد، الزمن الأول هو الزمن الحالي الآني ثقيل بطيء جدًا، كل دقيقة تنظر لساعتك حتى ينقلب فيها تقويم اليوم إلى يوم جديد، أما الزمن الثاني فهو الزمن الماضي، ما مضى من أيامٍ وشهور وسنين داخل السجن، زمنٌ خفيف سريع تنفيه فجأة لتتساءل مع ذاتك: يا إلهي كيف مضى على أسري سبع سنوات، ثماني، تسع، مضت السنون بهمها وغمها، مضت السنون بمرها وعلقمها من عمري دون أن أشعر بها، كيف لها أن تمضي هكذا بسرعة البرق؟

تفكر جيدًا بالأمر فترى أن ذلك نتج عن تزاحم التفاصيل المكررة بشكلٍ شبه يومي، أنت تعيش سني أسرك كرهين عصي جلادٍ، تخدرت أطرافك من صفعات عصاه ما عاد يعنيك أن تعد أول الصفعات لتنهي آخرها! كل همك أن تعتق من هذا الرهن! وكذلك داخل السجن غايتك الأجمل موعد مع الحرية فقط لا غير! لئن حرضت نفسك لعد الأيام وتوثيقها بثوانيها أبشر بالضعف والجنون، ها قد مرَّ على اعتقالي أكثر من تسع سنوات خلالها كانت تردني أخبارٌ يسوؤني سماعها وأخبار أتمنى لو كنت حرًا لأشارك في صنعها، أخبار باعتقالٍ وشهادة، أخبارٌ باجتياحات وحروب، تطورات سياسية وجهودٌ مكثفة أنهت الانتفاضة، حروبٌ على غزة المحاصرة، وهباتٌ جماهيرية في الضفة لم ترق إلى مسمى الانتفاضة!

حمودة العاصي قد استشهد ليلحقه بعد أعوام يوسف ابن عمه، إبراهيم أبو سريس استشهد، خليل مرشود استشهد، الصخرة أُفرج عنه واستشهد، أمير ذوقان سُجن وأبعد من السجون الصهيونية إلى غزة! نضال أنهى محكوميته ليتزوج بعد الإفراج عنه، سامر ألاقيه بين الفترة والأخرى خلال تنقلاتنا بين السجون، حمودة المدني أُفرج عنه بعد سبع سنوات ونصف من اعتقاله، الطهبوب حوكم بالمؤبد، أمين بشارات استشهد، أحمد أبو ساري اعتقل، أبو رموش حوكم بالمؤبد لخمس مرات بعيد اعتقاله، أبو عيشة وأحمد بسيسي ليسا ببعيدين عني إنهما في أقسام السجون التي أمر بها، حسين أبو ليل تم محاكمته بالمؤبد هو الآخر ناهيك عن مقتل إخوةٍ أربعة له برصاص قوات العدو، مجاهدو صيدا زاهر ورائد قضيا نحبهما خلال اشتباكات مسلحة مع العدو، أما "الحصان" فقد اعتقل

بعد نفاد ذخيرته خلال اشتباك آخر، تم هدم منزل ذوي مصطفى حنني وسلّم الله بيت ذوي إياد من الهدم، مهدي العاصي تم اعتقاله وأُفرج عنه وبعد قرابة السنتين أعيد اعتقاله مرة ثانية، أنس شريتح فقد ذاكرته خلال عملية اعتقاله وبعد أشهر من الاعتقال أُفرج عنه، فؤاد برهوش تم اعتقاله، أخت علي الكبرى انتصار وأخوها كفاح تم إبعادهما إلى غزة بعد فترة من اعتقالهما، أخبار تعصف، طيران يقصف ودماء تنزف، تصعيد مع شهيد، وهدوء يسبق عصفًا مأكولًا.

ما زلتُ في سجني رغم كل خبر يرد لا أستطيع أن أغير في كلماته موضع حرف أو حتى حركة وسكون، لقد نفدت كل ورقة ضغط قد تستخدمها المقاومة الفلسطينية ضد العدو الصهيوني لإطلاق سراح المزيد من الأسرى؛ لذلك قرر الأسرى جميعًا وفي كل سجون العدو الصهيوني من خلال مراسلاتٍ بينهم أن يباشروا بإضراب جماعي عن الطعام لتحسين ظروف معيشتهم، غاية إضرابهم الأسمى هي تمكن المحرومين منهم من الزيارة إضافة لإنهاء عقوبة العزل الانفرادي وإخراج المعزولين من زنازين عزلهم ودمجهم داخل غرف الأقسام في السجون!

أُجمع من قبل الأسرى أن يكون بدء الإضراب في تاريخ 17/ 04/ 2012م يوم الأسير الفلسطيني.

بدأ الإضراب، جسدي النحيل أدرك أنه مقبلٌ على مواجهة مفتوحة، عتاده فيها الصبر والصبر فقط، فحتى الملح هذه المرة سيكون عملة نادرة جدًا.

أيام أنهكت فيها أجساد الأسرى، مفاوضات يومية بين ممثلي الأسرى وإدارة السجون الصهيونية، النصر مع الصبر، لمن ستنتهي مواجهة عض الأيدي هذه؟ كل الأمل أن تنتهي لصالحنا نحن من لا أيدي لنا، فالأيدي معطلة تمامًا لا تحمل لا سلاحًا ولا حتى درع وقاية!

كان هذا الإضراب مغايرًا لسوابقه، إنه إضراب كرامة، إدارة السجون صادرت غالبية حقوق الأسرى التي ليس آخرها عزل البعض منهم انفراديًا ومنع زيارة عدد منهم بحجج واهية!

تجفيف الخواصر سيضع حدًا لانتهاك السجانين المتواصل لحقوق المأسورين!

ثمانية وعشرون يومًا من الإضراب المستمر عن الطعام، صبيحة اليوم التاسع والعشرين فك الإضراب بعدما عقد اتفاق بين الأسرى الفلسطينيين لممثليهم من جهة وإدارة السجون الصهيونية واستخباراتها من جهة أخرى! وبوساطة من دولة مصر!

بدأ الاتفاق يطبق تدريجيًا وببطء رويدًا رويدًا قضى الاتفاق بإعادة الحقوق المسلوبة إلى أهلها، تم إفراغ العزل الانفرادي من نزلائه، الزيارات استأنفت لمن حرم منها دون تحفظٍ أمني، ظروف المعيشة تحسنت إلى حد ما!

جسدي غث هزيل من يوم ميلادي، أما بعد الإضراب فيا لها من صورة جعلت ذاتي هيكلًا عظميًا طليَّ ببعض اللحم وغطيَّ بلصاق شبيه

بالجلد الآدمي! لكنْ هناك مقابل وإن كان المقابل لم أتلقه لذاتي، لكن ما من يومٍ فكّر من هم على شاكلتي بأن يقدموا ليأخذوا منجزًا يخصون به أنفسهم، منذ الحجر الأول إلى العبوة الأولى مرورًا بالحزام حتى السيارة المفخخة ثم الاعتقال، وما بين الاعتقال من إضراب عن الطعام وعراك مع السجانين، وليس انتهاء بما سيكون حتى بعد الاعتقال!

تحسنت الظروف المعيشية داخل الأسر إلى حدٍ قنع به بعض الأسرى واقعًا حتى إنهاء محكومياتهم أو أعمارهم فيه، أو إلى أن يأذن الله لهم بالفرج، لكن للحظة لم تكن تلك الظروف المحسنة لتوها بديلًا عندي عن الحرية التي طال جدًا انتظاري لها!

أمضيت في سجن نفحة مدة كفت حسب إدارته بأن يعاد نقلي لسجنٍ آخر، كان ذاك السجن ريمون، سبق وعشت في غرفه وأقسامه مرتين! ومنه كان مجيئي إلى نفحة، نظام الأقسام فيه لا يختلف أبدًا عن أقسام سجن جلبوع الذي عشت فيه هو الآخر مرحلتين من أسري! أذن الله أن أعيش فيه مرحلة ثالثة بعد الذي كان مني ومن زملائي بعيد إعلان استشهاد الأسير ميسرة أبو حمدية في قسمٍ من أقسام ريمون تمردٌ على الإدارة، رفضنا قرارها بإخلاء الساحة والدخول إلى الغرف، حرقنا علَمَ العدو الصهيوني، فوضى عارمة سببناها للسجانين، احتجاجًا نعلن فيه أننا لن نرضى بأن تكون هنالك حالة وفاةٍ جديدة داخل السجون، ميسرة أصيب بمرضٍ خلال اعتقاله يحتاج فيه لعناية صحية مكثفة، لكن إدارة السجون أهملت علاجه وتهمل علاج كل الذين على حاله، عوقب الأسرى المتمردون على قوانين السجن، أدخلنا الغرف بالقوة لقد تم رشنا بالغاز حتى فقد الوعي

كثرٌ منا، حوّلت غرفنا زنازين دون خروج إلى ساحة القسم، الغرف خالية إلا من فراش النوم والنائمين عليها من الأسرى!

أيامًا مرت ونحن بهذا الحال، تم تخفيف العقاب عنا تدريجيًا، بدأت إجراءاتٌ تعسفية من قبل الإدارة ضدنا، قضت بنقل البعض منا خارج سجن ريمون، أما أنا فاعتدت على هذه التنقلات فأنا أحمل لقب "سجافٍ" كل إدارة سجن أدخله تخشى أن أكون على ذمتها حال نجحت بالفرار.

وصلت سجن جلبوع، أُدخلت إلى قسم رقم (2)، تم استحداث قرار يقضي بأن تُفَرغ غرفتان فيه لاستقبال أسرى ينتمون للجهاد الإسلامي، كنت أنا من أوائل المجاهدين الماضين إلى ذاك القسم الذي كان فيه عدد من الأسرى الذين أعرفهم مسبقًا ومن أصحاب الانتماءات الفلسطينية الأخرى، ناصر عويص كان واحدًا من قيادات حركة فتح داخل ذاك القسم.

وحركة فتح كانت تمثل النسبة الأعلى هناك، أسراها يتوزعون في تسع غرف من أصل خمس عشرة غرفة، أما أسرى حركة حماس فيعيشون في غرفتين، وغرفتان لفصائل اليسار الفلسطيني.

بمجرد وصول عددٍ كافٍ لغرفتين من أسرى الجهاد الإسلامي الذين كنت واحدًا منهم؛ تم عقد انتخابات داخلية بيننا لإفراز ممثلٍ عنا داخل القسم!

كنت أنا ذاك الممثل (أمير المجاهدين) حيث تم تكليفي بإجماع من المجاهدين بأن أتولى أمرهم أمام إدارة السجن وممثلي الفصائل الأخرى في داخل قسم رقم (2).

كان عويص وممثلو الفصائل كريمين في ضيافة المجاهدين الجدد لقسمهم، تفضلوا علينا بأن نختار أي الغرف التي نريد أن نسكن فكل غرفة تمتاز بشيءٍ ما، غرفة رقم (1) مثلًا أقرب الغرف لغرفة الإدارة التي يتردد منها السجانون إلى داخل القسم، غرفة رقم (9) وغرفة رقم (8) متقابلتان لصيقتان بالجدران المحيطة بغرف القسم، وكوني صاحب سابقة في محاولة هرب _مزعومة_ يمنع منعًا باتًا من قبل الإدارة أن أكون نزيلًا في أيٍ من هاتين الغرفتين بعد تفكير عميق وقع اختياري على غرفة رقم (7)، وغرفة رقم (12) لتكونا غرف أسرى الجهاد الإسلامي في قسم رقم (2)، كل غرفة منها تتسع إلى ثمانية مجاهدين، اخترت أن أكون من نزلاء غرفة رقم (7) التي لا تبعد عن جدار القسم إلا غرفة واحدة تحدُ شمالها!

رغم أن "السجاف" الذي نلته في شهور اعتقالي الأولى لم يكن بقصدٍ مني، لكن كل الإحداثيات التي كانت بعده عمقت بي قرارًا يجبُ اتخاذه اليوم أو الغد من أجل الحرية! الهرب السبيل الوحيد لها في هذه الفترة الزمنية على الأقل! وبما أن "السجاف" موجود فهل يضير الشاه سلخها بعد ذبحها.

نضج قرارُ الهرب عندي بعد لقائي بـ"سجاف" آخر وهو الأسير مهنا زيود حيث لاقيته في سجن ريمون، كان مهنا قد نجح في اعتقالٍ سابقٍ له بالفرار من سجن عوفر الذي لم يكن بحصانة السجون هذه الأيام.

تواعدت أنا ومهنا بأن نعمل لإتمام مشروع الحرية حالما نلتقي في سجن جلبوع، السجن الذي يعد أقرب السجون إلى مناطق سكنانا وليس ببعيدٍ عن بلدات يعيش فيها فلسطينيون لم ينكبوا بتأسيس كيانٍ للعدو على أراضيهم!

تفرقنا أنا ومهنا من سجن ريمون، أنا حيث أنا في جلبوع، وهو إلى سجن هداريم، الآن أنا أمير الجهاد الإسلامي في القسم بإمكاني أن أعاود الاجتماع بمهنا زيود كخطوة أولى للإعداد لمشروعنا الذي تواعدنا عليه يومًا.

ماجد المصري كان ممثل القسم بالتوافق من أسرى كافة الفصائل أمام إدارة السجن وهو من أسرى حركة فتح! طلبت من المصري العمل على نقل مهنا زيود من هداريم إلى جلبوع من خلال جلسات المفاوضات الدورية التي ينوب فيها عنا أمام إدارة السجن. لم يقع طلبي في أدراج منسية في المكاتب، فلقد حضر مهنا بعيد أيامٍ من محادثتي مع المصري.

أُدخل مهنا لغرفتي، وبدأنا التخطيط للمرحة القادمة التي كانت نقطة الانطلاق فيها دورة المياه (مرحاض الغرفة)!

جهزنا العدة اللازمة التي لم تكن إلا برغيًا تم تثبيته على قابض ملعقة طعام، دخلت وإياه المرحاض، الفكرة التي في أذهان المجاهدين نزلاء غرفتنا أنني ومهنا نعد مخبأ لهاتف خليوي ننسق لتهريبه قريبًا من الخارج.

بدأت أتناوب أنا ومهنا على دخول المرحاض واستخدام أداتنا المصنعة يدويًا التي شرعنا العمل بها بنحت محيط القاعدة الحديدية المثبتة بأرض المرحاض التي عادة ما يقرفص أحدنا فوقها إن أراد الغوط أثناء العمل!

بعد أيامٍ من النحت المتواصل وإخفاء نتيجة نحتنا بالماء والصابون، الذي عادة ما يكون في أرضية المراحيض والحمامات؛ خُلعت القاعدة التي كان تحتها مساحة إذا حفرنا فيها فمًا لنفق سنجتاز خلاله مقبرة الأحياء للحياة. ذاك الفم سيبتلع من هم بحجمي وحجم مهنا ومثلنا ليخرجهم يومًا ما إلى بلاد الحرية، تلك البلاد التي من أجلها قاتلنا وقتلنا ونقتل يومًا تلو يوم داخل هذه السجون!

بداية النفق ستكون بحفرة بابها أربعون سنتيمترًا مربعًا، نحن نحفر بالإسمنت المسلح، الحفر ليس حفرًا بالمعنى الشائع، إنه نحتٌ أضفنا إليه أداة نستخدمها كمطرقة تم إخراجها من قلب محرك مروحية تالفة، لا يفل الحديد إلا الحديد، لكن تخيل كم من الوقت سيستطيع برغيٌ مثبتٌ بقابض ملعقة حتى يفلَّ الحديد الذي هضم الإسمنت والمنحوت فيه منذ أسابيع؟!

الحفرة تغطى يوميًا في أوقات التفتيش الروتيني والمعروف لدينا هو على مرحلتين إحداهما صباحية والأخرى مسائية، وكلتاهما ليستا بالدقة التي نخشى منها على مشروع حريتنا، أما التفتيش الفجائي هو أشبه بالصدمة الكهربائية التي تفجّر طاقات ساكن المرحاض لأن يخفي آثار عمله قبل أن يدخل السجانون الغرفة ويطالبوا محتل المرحاض بالخروج منه!

عملية خاطفة، نظف ما حولك، ارمِ كل ما كان من آثار نحتك داخل مجاري الصرف الصحي، أعد القاعدة الحديدية مكانها لتغطي الحفرة تحتها، الصابون والماء مجهز في دلوٍ مسبق إلى جانب إبريق المرحاض، اسكب خليط الماء والصابون بتروٍ سريع في محيط القاعدة، قبل الخروج بدل ملابسك المتسخة بملابس نظيفة سبق وأن علقت قبل مناوبتك العمل داخل المرحاض!

آلام شديدة، أيدينا دميت، أرجلنا والمفاصل نرى الكدمات عليها، لكن من يخطب الحسناء لم يغلها المهر!

لم يكن ذاك الجهد المتواصل حجة لي لأنقطع بها عن مواصلة مهامي كأمير لأسرى الجهاد الإسلامي داخل القسم، كنت أحاول جاهدًا أن أخفف من حدة الاصطدام بين الأسرى وإدارة السجن، فما أعد له هم أكبر من أي مكسبٍ آني قد يحققوه بصدامهم ذاك.

إنها الحرية التي أجبرتني أن لا أسر لأحدٍ بعملي لأجلها حتى لا ينكشف سبيلي لها، كنت قد عاهدت نفسي أن يكون الذي أُعده أنا ومهنا داخل غرفتنا بوابة عبور أسرى القسم إلى الحرية وحتى تنقضي حاجة المجموع كتمنا السر عن الجماعة!

التأكيد ما زال متجددًا ودائمًا لزملائنا في الغرفة، نحن بصدد إعداد مخبأ للهاتف الذي سيأتينا يومًا ما من خارج السجن. تحذيرٌ دائم من إفشاء سر المخبأ، إذاعة المكتوم خيانة للجماعة، هناك إخوان لكم يخبئون الهواتف المهربة بنفس الطريقة في سجونٍ أخرى، إن كشف أمر المخبأ هنا

فمـن المؤكـد أن إدارة السـجن سـتعمم الأمـر عـلى باقـي السـجون، وبذلـك يلحق الـضرر بعـددٍ كبـيرٍ مـن الأسرى! الأمـر أمانـة والأمانـة لا يحملهـا إلا رجـال! فهـل أنتـم أهـلٌ أن تكونـوا رجـالًا؟!

كلماتٌ مفتاحية كنت أشبع بها نهم تساؤلات المجاهدين عن المخبأ الـذي طـال إعـداده ولم يحضر بعـد الهاتـف الـذي سيكون خبيئة!

لم يكـن المجاهـدون أقـل جهـدًا مني أو مـن مهنـا، هـم يسـاندون في المراقبـة والتمويـه، ويكفينـا مـا تحملتـه أجسـادهم خـلال انتظارنـا الفـراغ مـن العمـل اليـدوي لنسـمح لهـم بإفـراغ محتواهـم داخل مرحـاض غرفتهـم الوحيد!

خـلال إعدادنـا لفـم النفـق، سـاقت الأقـدار محمـود الكليبـي (الطهبـوب) للنقـل مـن سـجن شـطة إلى قسـمنا في جلبوع.

أدخلـت الطهبـوب لغرفتـي بشـكل مبـاشر، لاحـظ الطهبـوب وخـلال أيامـه الأولى جسـدي المنهـك بعـد كل خـروج لـه من بيـت الراحـة (المرحاض)، وذلـك مـا لاحظـه عـلى مهنـا أيضًـا، اضطـررت إلى مكاشـفة الطهبـوب بالحقيقة التـي لا يعلمهـا باقـي المجاهديـن فدبـت الهمـة في عروقـه إلا أنني ومهنـا أخبرناه أننـا نـود أن نبقـي الأمـر محصـورًا بيننـا حتـى العمـل فيـه يجب أن يقتـصر عـلى اثنـين لا ثالـث لهـما إن تـم كشـف أمرهمـا لا نعـرض الجماعـة لعقـاب سـتتخذه إدارة السـجن بحـق حفـاري النفـق،

لم تجـد حجتنـا تلـك قبـولًا لـدى الطهبـوب، ولكننـا حكمنـا لـه بالمسـاعدة بالقـدر الـذي لا يـضرُ بـه إن كشـف أمرنـا.

خلال أشُهر من العمل المتواصل أنهينا حفر الفم وبلغنا حلق النفق بعد ستين سنتيمترًا من النحت الذي أذاب أيدينا قبل الإسمنت والحديد، وصلنا التراب! التراب كان ينتظرنا على بعد ستين سنتيمترًا فقط قطعت بقرابة ستة أشهر!

التراب الذي لمسته أيادينا رغم قذارته بسبب تمديدات الصرف الصحي المهترئة التي تمر بجانبيه؛ تنسمنا خلاله الحرية التي بالتأكيد ستكون أجمل بكثير من هذه السجون حتى لو مررنا لها من تمديدات الصرف الصحي ذاته!

كان تماسنا مع التراب دفعة نوعية للمضي قدمًا نحو النفق، مشروع الحرية صار جليًا أمامنا، من جد وجد، والجد موجودٌ لهدفٍ كالذي نحفرُ لأجله!

بدأنا السير في خط النفق، الرمل المستخرج يكدس داخل أكياس نستخدمها تباعًا لتجنب انهيار سقف النفق علينا، عملٌ دؤوب اجتزنا المتر الأول والثاني والثامن والتاسع ومررنا بغرفة رقم (8) الملاصقة لنا، أحيانًا كنا نسمع ضربات خطوات نزلائها، قطعنا الجدار المحيط بالقسم، ما إن نخرج للراحة حتى نعود للعمل مشحونين بالأمل لحلم الحرية الذي بقي القليل لتحقيقه، خلال الأيام التي داومنا فيها على العمل بالمرحاض وصلنا نبأٌ مشؤوم مفاده أن إدارة سجن شطة قد عثرت على نفق في غرفة تابعة لأسرى الجهاد الإسلامي في واحدٍ من أقسامها، كان الخبر صاعقًا لنا، لقد وقع على رقابنا كالسيف، لكن العقبة تلك استثمرت كمحفزٍ جديد لنا،

فما قمنا بإنجازه هو الكثير وما بقي علينا عمله هو حفر الأمتار الأخيرة!

كان ذلك الخبر مزعجًا للجميع فالتساؤلات من نزلاء غرفتنا زادت والشكوك لاحت، أكُل هذه الشهور من أجل هاتف؟ ألا تكفي حفرة صغيرة لإيواء هاتف خليوي لا يتجاوز حجمه قبضة اليد؟ ثقة المجاهدين بنا كانت رادعًا لهم ليشككوا للحظة في أي روايةٍ نسردها لهم حتى لو نفت العقل!

جميعهم ليسوا ذوي أحكامٍ مرتفعة تستدعيهم أن يرتقوا بتفكيرهم إلى هذا الحد من البحث عن الحرية في مرحاض!

كاشفناهم بالحقيقة وطلبنا منهم كتم السر، عارضين عليهم جميعًا أن يتخيروا بين أن يخرجوا من غرفتنا بشكل طبيعي دون أن يعاقب أحدهم من قبل الإدارة حالما تم ضبط النفق، أو أن يبقوا معنا ويتحملوا أي تبعات للأمر، والله جعل مع كل عُسرٍ يُسرين!

رغم سخط البعض على إخفاء الحقيقة عنها، إلا أن الجميع أجمع على أن يستمر معنا ويستر أمرنا ويبقى إلى جانبنا حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وبالتأكيد مجهولًا لثمانية!

تكثف عملنا، نسابق الزمن الآن، فقد تقع الواقعة في أي وقت، السجون ملتهبة إضرابات عن الطعام يخوضها كل فلسطيني أسره العدو دون أن يوجه له أي تهمة فقط، قرارٌ إداري من المخابرات الصهيونية يحكم لمن صدر بحقه أن يمضي عدة سنين دون أن يعرف ما الجرم الذي اقترفه.

الآن نحن أسفل أسوار السجن، تجاوزنا المتر العاشر والمتر الحادي عشر، والآن نحن نحفر المتر الذي سيبقى علينا بعده متران أو يزيد حتى نرى تقلب الليل والنهار دون حاجزٍ وجدار!

التفتيشات تكثفت بعد ضبط النفق في سجن شطة، اقتحمت قوة قمع خاصة بشكل مفاجئ غرفتنا، تم إخلاء المرحاض بسرعةٍ قياسية، جرى تفتيش دقيق للغرفة لكن الله سلم! خرجت القوة الخاصة في السجن أصفار الأيدي دون أن يعثروا على شيء!

في هذه الأثناء كانت هناك حربٌ تدور في أطراف غزة حيث بين ساعةٍ وأخرى نسمع عن تطورٍ نوعي جديد يؤهل المقاومة فيها للصمود بل والتحدي أمام قوات العدو الغازية لغزة!

الحرب من شدةٍ لشدة، الآمال مشدودة لأن يكون هناك محاولات أسر ناجحة لجنود من قوات العدو، ترد بعض أوراق الضغط لأيدي المقاومة الفلسطينية لإنجاز صفقات تبادل بين الأسرى الفلسطينيين والجنود المتأمل في أسرهم!

أيامٌ، وحضر يوم الثالث من أغسطس (آب) من العام 2014م، تم مداهمة غرفتنا في التاسعة صباحًا دخل أحد السجانين مرحاض الغرفة في يده عصًا غليظة اعتاد أن يحملها مفتشو الغرف أمثاله، طق السجان النافذة بعصاه ثم باب المرحاض ثم التفت قبل خروجه ليطرق قاعدة المرحاض الحديدية، كانت ضربته للقاعدة ضربة قوية شعر خلالها أن القاعدة تتحرك بفعل ضربته التي كررت حتى أتى إليه المسؤول عن الأمن في إدارة السجن!

مسؤول الأمن ضابطٌ كبير يعمل بمهنية عالية استدعته إلى الاتصال بفرقة صيانة لاستيضاح أمر قاعدة المرحاض في غرفتنا!

وصلت فرقة الصيانة إلى ساحة القسم، تم إخراج نزلاء غرفتنا إلى الغرفة الثانية لنا، غرفة رقم (12)، وبعد أن أخلينا الغرفة لعمال الصيانة وضابط الأمن ورفاقه السجانين؛ كشف أمرنا لنرى قاعدة المرحاض تفارق فم نفقنا الذي عكفنا على إعداده أكثر من ثمانية أشهر متواصلة.

رغم ما أصابنا من انهيار على مجهودنا الذي قضى هباءً منثورًا إلا أنني هتفت بجلساء الغرفتين معلنًا _أنا ومهنا_ ما كنا قد عاهدنا أنفسنا عليه في أننا نحن فقط من سيتحمل المسؤولية أمام إدارة السجن واستخباراتها، مطالبين الجميع بأن يكتموا أي علمٍ لهم بالحادثة واتفقنا مع أصحاب الشأن من أبناء غرفتنا على رواية يقرونها أمام أي ضابطٍ من إدارة السجون، وكانت الرواية تنص على ألا أحد يعرف بموضوع النفق إلا أمير الجهاد ومساعده _أنا ومهنا_، وأن الجميع من نزلاء الغرفة كانوا يخرجون من الغرفة للساحة بطلبٍ من الأمير ومساعده خلال الأوقات التي يسمح للأسرى فيها بذلك! وبذلك تخلى الغرفة للأمير ومساعده.

دوت صفارات الإنذار، أعلن الاستنفار الأمني داخل السجن، مدير السجن وجميع ضباطه تناوبوا لرؤية النفق وتصويره بهواتفهم الذكية بعدما كنا قد أتممنا فيه المتر الثاني عشر!

تم إخراج نزلاء الغرفة المخروقة من القسم مقيدين، عددنا ثمانية هو عدد نزلاء غرفة رقم (7) التي فتحت منذ أكثر من ثمانية أشهر في هذا

القسم من سجن جلبوع! من القسم إلى قسمٍ لا يحوي إلا النازلين! والتي قسم فيها عددنا إلى أزواج فقط!

حضر أحد الضباط من استخبارات السجن، بدأ الضابط يستدعي إلى مكتبه واحدًا تلو الآخر منا، كنت أنا أول الحاضرين لضيافته التي لم أعطه فيها الأجوبة التي يرغب، والإجابة التي كررتها له أنني وإلى جانبي مهنا، قمنا بكل ما تم توثيقه داخل المرحاض وما خرج منه تجاه سور السجن.

رجعت إلى الزنزانة، استدعي على إثري مهنا، وأخبر بما أخبرت ومن ثم أعيد لمجاورتي، نقلب كفينا على ما كان، الآن أصبح همنا وواجبنا الأخلاقي تخفيف آثار رد فعل إدارة السجون ضد شركائنا في الغرفة ورفقانا أن نتبنى حفر النفق فيها.

بتنا ليالينا الأولى في زنازين سجن جلبوع، ونقل ثمانيتنا إلى عزل سجن هشارون في اليوم التالي!

في عزل هشارون تم توزيعنا على ثلاث زنازين وليتم إقرار واحدٍ وعشرين يومًا كعقوبة أولية سنظل خلالها داخل أحضان العزل حتى يعاد البت في أمرنا بإجراءٍ يتناسب مع جرمنا في البحث عن الحرية!

تم نقلنا من هشارون إلى عزل أيلون في سجن الرملة، وما هي إلا أيام حتى حضر إلى زنازين العزل في أيالون سبعة من المجاهدين الذين اتهموا بحفر النفق في سجن شطة!

أمضينا أيامًا كان قد جدد لنا فيها قرار العزل الذي بان بأنه مفتوح من خلال مداولاتي المتكررة مع ضباط السجن الذين وكلت الحديث معهم نيابة عن أربعة عشر أسيرًا موزعين داخل زنازين عزل أيالون!

عزلنا عن العالم، الآن في شهرنا الثاني نحن لا ندرك ماهية الحياة في الخارج، ما هي أخبار الحرب على غزة!، في أقسام السجون كنا نتمتع بأربع ساعات نقضيها في ساحة القسم الذي نكون نزلاء غرفه، هناك عدة وسائل يستطيع الأسير أن يتلقى خلالها أخبار العالم خارج السجون وهو نزيل تلك الغرف!

الآن نحن في عزلٍ غيبنا عن كل تلك الامتيازات التي وإن كانت كيفما كانت لم تكن لتلفتنا عن مشروعٍ كان سيخرجنا للحياة بعدما قبرتنا السجون كرهًا!

ثمانية عشر يومًا في عزل أيالون تم توزيعنا بعدها على عدة سجون، وبالتأكيد إلى أقسام عزلٍ فيها!

كان من سوء حظي أن أنقل أنا وعدد من زملاء محنة الأنفاق إلى قسم عزلٍ في سجن نفحة، كان قسم العزل ذاك يحوي في زنازينه بعضًا من المعتقلين الجنائيين من الصهاينة الذين أُدخلوا السجون بعدما أفسدوا داخل كيانهم الموبوء أصلًا!

سباب للذات الإلهية يصدر بين حين وآخر، تشويشٌ دائم على صلواتنا بغنائهم النشاز، صوتهم العالي الذي يؤكد أن إبليس هو من اختارهم ليغزوا هذه البلاد!

أربعـة أشـهر أمضيناهـا في تلـك الغـرف، إضرابٌ عـن الطعـام و سـجالاتٌ لفظيـة مـع أولئـك الغوغائيـين، واعتـداءٌ بالأيـدي مـا اسـتطعنا إليهـم السـبيل خـلال مرورنـا بغرفهـم حـال خـرج أحدنـا لمقابلـة ضابـطٍ أو زيـارة لمحـامٍ!

قضـت لنـا إدارة السـجن بعـد كل ذاك الأسـى الـذي لاقينـاه في عـزل نفحـة أن نخـرج إلى عـزل إيشـل في بئـر السـبع، لكـن للأسـف لم يكـن الحـال أفضـل مـن عـزل نفحـة، لكـن واسـانا هـذه المـرة أن إضرابنـا عـن الطعـام في نفحـة لاقـى نجاحـه حينـما خـرج أسرى مـن بيننـا للانخـراط مـع إخوانهـم في أقسـام السـجون، وبقـي خمسـة مـن أصـل خمسـة عـشر هـم مجمـوع مجاهـدي غرفتـي الأنفـاق في جلبـوع وشـطة!

مضـت الأيـام علينـا في عـزل إيشـل أنـا ومهنـا والطهبـوب في زنزانـة وإسـماعيل أبـو شـادوف ويعقـوب غـوادرة في زنزانـة أخـرى!

إسـماعيل ويعقـوب همـا مـن أبقـي عـلى عزلهـما مـن أصـل سـبعة كانـوا معهـم في غرفـة (12) في سـجن شـطة خـلال ضبـط النفـق فيهـا! رعايـة الله حسـمت لنـا أن ينهـى العـزل بحقنـا بعـد أن أمضينـا فيـه قرابـة ثمانيـة أشـهر متنقلـين مـن عـزل سـجن إلى عـزل آخـر!

توزعنـا نحـن الخمسـة حسـبما أُريـد لنـا مـن قبـل إدارة السـجون، شـاء لي الله أن أعـود إلى سـجن نفحـة وإلى قسـم جمعـت بـه مـع سـامر بعـد طـوال غيـاب!

وصلت سجن نفحة، التقيت بسامر هناك، وكان قد علم بقصة النفق وقبل أن يهنئني بسلامتي قال ممازحًا:

"وين بدك تهرب وتخليني لحالي".

أجبته مبتسمًا لتهكمه:

لو ربنا وفقني بالهرب كان من الثانية الأولى اشتغلت ع ترويحتكم.

الأخبار التي غيّبت عنها أثناء العزل تدعوا للتفاؤل، المقاومة تمكنت من أسر أكثر من جندي من قوات العدو خلال الحرب التي عشناها تحت الأرض أو معزولين عن العالم والبشائر بصفقة حرية قادمة لا محالة! مرت الأيام والأسابيع والأشهر وقرر نقلي إلى سجن ريمون وقبل أن أدخل أيًا من أقسامه، وكما جرت العادة في استقبال السجون للسجناء؛ تم استدعائي لمقابلة ضابط استخبارات في إدارة السجن، وبعد أسئلة راتبة حفظتها قبل أن ألقي إجاباتها قال الضابط بسادية مطلقة.

فهد، أتمنى أن لا تحفر في هذا السجن، وأتمنى أن تكون عقوبة عزلك الطويل رادعة لك حتى لا تفكر مجددًا بالهرب.

عندما أنهى الضابط حديثه جاء دوري أوتوماتيكيًا، هيأت ذاتي للإجابة منذ أن سمعت منجزات المقاومة الغزية في الحرب الأخيرة:

الأخبار واضحة رح نروح من البوابة، ومش رح ننجبر لحفر نفق جديد إن شاء الله!

هزّ الضابط رأسه كاتمًا غيظه، آمرًا سجانًا في باب مكتبه أن يصطحبني إلى قسم رقم (1) حيث أنا الآن، وللآن أحدق في كل يوم للباب الذي أدخلت منه كرهًا لتخرجني منه المقاومة بصفقتها المقبلة إلى الحرية!

» تعريف بالكاتب الأسير

- الاسم: فهد عبد الله محمد صوالحي.
- مكان الإقامة: مخيم بلاطة - محافظة نابلس.
- تاريخ الميلاد: 1981/07/04م.
- الحالة الاجتماعية: أعزب.
- الاعتقالات: 1.
- تاريخ الاعتقال : 2003/02/14م.
- الحكم: 7 مؤبدات و50 عامًا.

الشهادات التعليمية:

- دبلوم تبريد وتكييف - كلية قلنديا للتدريب المهني.
- بكالوريوس تربية إسلامية - جامعة القدس المفتوحة.

» في هذ الكتاب

سريعًا يكبر الثائرون، يتنقلون بين مراحل كلها تقربهم أكثر لشهادة قد ينالونها منذ أول يوم للالتحاق بهذا النهج، الحضانة، الرياض، الابتدائية، الإعدادية إلى ما شاء الله كلها مراحل تتيح لمنتسبيها أن ينالوا الشهادة العليا فيها، ولكنْ لكل أجل كتاب!

في هذا الكتاب سيجد القارئ نفسه أمام دراما واقعية عايشها مجتمع كامل، فلا مجال فيها لاختلاق أي مشهد ولا لتهيؤ أي مقطع؛ لذلك فإن الدقة في كل دقيقة ستكون مطلبًا شرعيًا في كل ما سيَسقط على الأوراق، فالشهود ما زال غالبهم على قيد الحياة، والدلائل دماء إما كانت صاحبة قصاص وإما كان منها!

لذلك فلا شك فيما سيلفظه الأسير الكاتب ما هو إلا شاهد عايش اللحظة بجزيئاتها، ولا شقوق يمكن أن يتسرب منها التهويل لأي رواية قد يرويها.